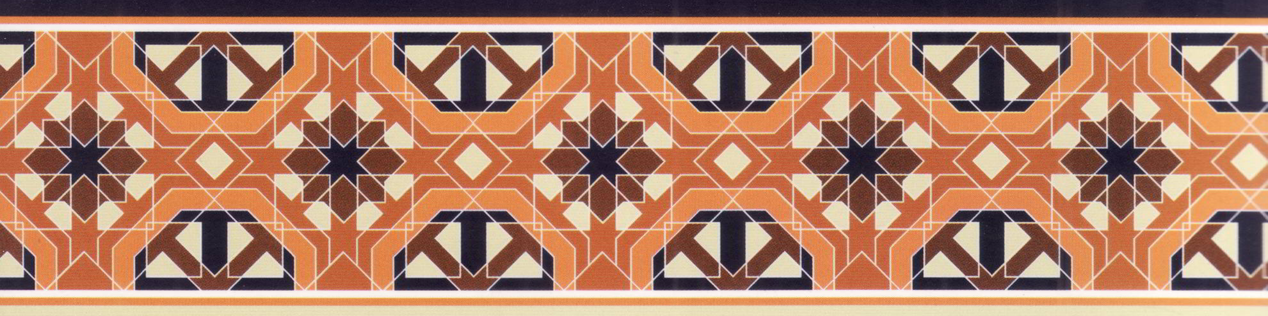
إلى طالب العلم



تأليف
سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

إلى طالب العلم

• الموضوع: ثقافة إسلامية
• العنوان: إلى طالب العلم
• تأليف: سيد عبد الماجد الغوري

الطَّبْعَةُ الأُولَى
1438 هـ - 2017 م
ISBN 978-614-415-206-5

ISBN 978-614-415-206-5



• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 188 / الوزن: 300 غ

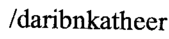


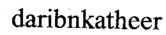
دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com





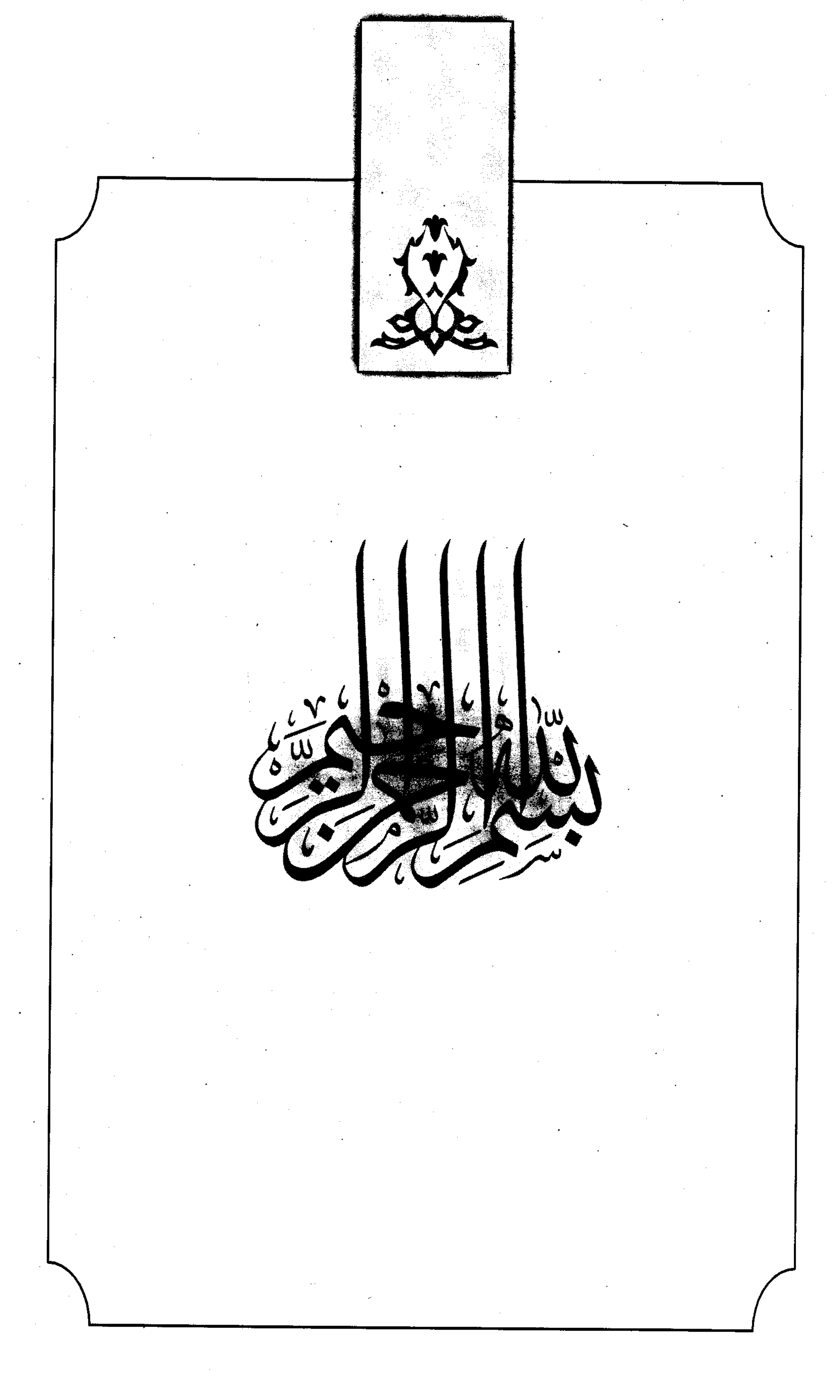
/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

إِلى طَالِبِ العِلْمِ

تأليف

سيّد عبد الماجد الغوري




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة التصدير

الحمدُ لله وكَفَى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّه المصطفى، وعلى آله وأصحابه، ومن تَبِعَهم بإحسانٍ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد: فإنَّ ما للأدب في دِيننا الحنيف من أهميةٍ عظيمةٍ ومنْزلةٍ رفيعةٍ لا يخفى على أحدٍ، فإنَّ التزام الفردِ به يهذِّب أخلاقَه ويُصلِح عاداتِه، ويصفِّي سلوكَه عما يَشينه ويَنتقِصه، ونظراً لأهمية ذلك فقد بادر علماء الإسلام إلى الاعتناء به، وألَّفوا فيه كتباً قيمةً كما أشار المؤلِّفُ إلى أهمِّها وأشهرها في مقدمته لهذا الكتاب، فمثلُ تلك الكتبِ حَرِيَّةٌ أن تُقرَّر على طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية في المعاهد الدينية والجامعات الإسلامية، حتى لا يَسبِق العلمُ الأدبَ، بل يكونا معاً، فقد قيل: «إنَّ علماً بلا أدبٍ كنارٍ بلا حَطَبٍ، وأدباً بلا علمٍ كروحٍ بلا جِسْمٍ».

ولكننا إذا تأمَّلنا في الكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع قديماً وحديثاً؛ نجد أنَّ الكثير منها لا يكاد يَصلُح للطلاب حديثي العهد بدراسة العلوم الشرعية بسببِ عُلُوِّ مستوى تلك الكتبِ لغةً وأسلوباً وبياناً، ثم إنَّ الكثير منها يحتوي على أمور تأديبية وتحذيرية لا يَفتقِر إليها الطلابُ الذين يعيشون هذا العصر ليتأدَّبوا بها أو يَحذَروا عنها، إنما تحدَّث هؤلاء المؤلِّفون عن تلك الأمور في كتبهم نظراً لوجودها في عصورهم، أمَّا في

هذا العصر فقد حَلَّتْ محلَّ تلك الأمورِ أمورٌ كثيرةٌ لا بُدَّ للطلاب من الالتزام بها إن كانت حسنةً، واجتنابها إن كانت سيئةً.

ولأجل ذلك كانت الحاجةُ ماسَّةً إلى كتابٍ يُحقِّق ما أشرنا إليه من تلك الأمور، وهي جِدُّ مهمة في نظرنا، فقام بتأليفه الأستاذُ سيد عبد الماجد الغَوْرِي خيرَ قيامٍ، مراعياً في ذلك كلَّ ما أسلفناه آنفاً، حيثُ بدأ الكتابَ بالتأكيد على أهمية العلم وفضله، والحثِّ عليه، ثم بذكر الآداب التي ينبغي للطالب التحلِّي بها أثناء اشتغاله بطلب هذا العلم، وما بعد مرحلة طلب العلم، مستشهداً في كل ذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال السَّلَف الصالِح، فجزى الله مؤلِّفَه الفاضلَ عن هذا العمل خير الجزاء، ونسأله تعالى أن يتقبَّل جهده، ويضعه في ميزان حسناته يوم الحساب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلِّف

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد الأوَّلِيْن والآخرين، صاحبِ الآياتِ الباهِراتِ في خَلْقِه الكامل، وخُلُقِه العظيم، وعلى آله الْخِيَرَةِ، وأصحابِه الْبَرَرَةِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

أما بعد: فإنَّ العِلم سِرُّ نهضةِ الأُمَمِ وتقدُّمِها، وهو لا يُثمِر خيراً للإنسانية إنْ لم يَقُمْ على دعامةٍ ثانيةٍ، وهي: الأدب والأخلاق، ورسولُنا المصطفى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كان على ذِرْوَةٍ عاليةٍ من التحلِّي بهما حتى أشادَ اللهُ ﷻ به في كتابه العزيز إذْ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، كما أكَّد النبيُّ ﷺ بأنَّ من مهام بعثته: تتميمُ مَكارِمِ الأخلاق فقال: «إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخْلَاقِ»(١).

لذلك فقد تنبَّه علماءُ الإسلامِ إلى أهمية الأدبِ والأخلاقِ في التربية والتعليم، ورأوا أنَّ من مُوجِباتِ الشَّرع: «التحلِّي بمحاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، والْهَدْيِ الْحَسَن، والسَّمْتِ الصالِح، فهي سِمَةُ أهلِ الإسلام، والعِلمُ ـ وهو أثْمَنُ دُرَّةٍ في تاج الشَّرع الْمُطَهَّر ـ لا يصل إليه إلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: حُسن الخلق، برقم: (٢٧٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

المتحلِّي بآدابه، المتخلِّي عن آفاته»[١]، ولهذا أَوْلَوْا «الأدبَ» و«الأخلاقَ» عِنايةً كبيرةً، وخَصُّوهما بالبحث والتنبيه، وأفردوهما بالتأليف، إمَّا على وجه العُموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص لبعض العلوم.

أمَّا على وجه الخصوص لبعض العلوم فقد ألَّف الإمامُ أبو زكريَّا يَحيَى بن شَرَف النَّوَوِيّ (ت٦٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ «التِّبْيانَ في آداب حَمَلَة القرآن» في بيان ما يجب على حامل القرآن الكريم من آداب، وأوصافِ حَفَظَتِه، وطَلَبَتِه، وآدابِ معلِّم القرآن، وفضل تلاوته، وما أعد الله تعالى لأهل القرآن من إكرام.

وألَّف الحافظُ أبو بكر أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ رحمه الله ـ «الجامعَ لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع»، في ذِكر ما ينبغي للمحدِّث وطالبِ الحديث أن يتحلَّيا به من الآداب والواجبات التي تقتضيها صنعةُ التحديث.

وألَّف الحافظُ أبو عَمْرو عثمان بن الصَّلاح الشَّهْرَزُوْرِيّ (ت٦٤٣هـ) ـ رحمه الله ـ «آداب الْمُفْتِي والْمُسْتَفْتِي»[٢] في الإفصاح عن شروط المفتي وأوصافِه وأحكامِه، وعن صفة المستفتي وأحكامه، وعن كيفية الفتوى والاستفتاء وآدابهما، وهكذا...

وأمَّا على وجه العُمومِ لكافة العلوم فإنهم ألَّفوا فيها كذلك عشراتٍ من الكتب، التي لا يَسَعُ المقَامُ هنا لذِكرها، لذا أكتفي بذكر الأنفَعِ والأهَمِّ منها، مِثل:

---

(١) العبارةُ بين القوسين للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد في مقدمة كتابه «حلية طالب العلم»، ص٦.

(٢) وابن الصَّلاح ليس أولَ مَن كَتَب في هذا الموضوع، بل سَبَقه غيرُ واحدٍ من العلماء الأجلّاء، لكني ذكرتُ كتابه كمثالٍ لشهرة مؤلِّفه.

«جامع بيان العلم وفضلِه» للحافظ أبي عَمْرو يوسف بن عبد البرّ القُرْطُبِيّ (ت٤٦٣هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: وهو كتابٌ نفيسٌ قَيِّمٌ، ومفيدٌ للغاية، مؤلِّفه من أئمة الحديث وكبار المؤلِّفين فيه، وقد عرض فيه منهجاً تربوياً متكاملاً لتكوين الطالب والعالِم، وضمَّنه بحوثاً قيمةً عن العلم وفضله، وآداب العالِم والمتعلِّم، وبيَّن المراحلَ التي يَمُرُّ بها طالبُ العلم، وذَكَر العلومَ الأساسيةَ التي يجب أن يُلِمَّ بها مِن فهم القرآن الكريم، ومعرفة السُّنَّة النبوية الشريفة، واللغةِ، وغيرِ ذلك من العلوم.

و«تعليم المتعلِّم طريق التعلُّم» للشيخ بُرْهان الإسلام الزَّرْنُوْجِي (من أبناء القرن السادس)[1]: الذي يُعتبَر مِن أحسن الكتب التي أُلِّفَت في هذا الموضوع، إلَّا أنَّ مؤلِّفه ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ قد ذَكَر فيه أحاديثَ لا سندَ لها، وقصصاً من نسيج الخيال لا حقيقةَ لها، لكنه مع ذلك مفيدٌ جداً، لذلك فقد ظَلَّ مَوضِعَ إعجابِ كثيرٍ من العلماء قديماً وحديثاً، وكان العلامة أبو الحسن علي الحسني النَّدْوِي (ت١٤٢٠هـ) يَعُدُّه في الكُتُب التي أثَّرَتْ فيه كثيراً أيامَ طلبِهِ للعلم، ويقول عنه ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «إنه حَضَّني على الاحترام للكتاب والأستاذِ وعلى الاستفادة منهما، وأَرْسَخَ فكرةَ التمسُّكِ بآداب طالب العلم»[2].

ومقدِّمة «الْمجموع في شرح الْمهذَّب»[3] للإمام النَّوَوِي (ت٦٧٦هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: وهي مقدِّمةٌ رائعةٌ في المضمون، ورائقةٌ في الْحُسْن والبيان، وجودةِ

---

(١) لم يذكر أحد من المترجمين له سنةَ وفاته، لكنه من المؤكَّد بأنه عاش في القرن السادس الهجري.

(٢) انظر: «أبو الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب»، للمؤلِّف، ص٣٩٦.

(٣) وهو شرحٌ لـ «المهذَّب»، للإمام أبي إسحاق الشيرازي، (ت٤٧٦هـ).

التصنيف والتبويب، ذَكَر فيها المؤلِّفُ فضلَ العلمِ وفضيلةَ الاشتغالِ به، ثم أدبَ طالبِ العلم والعالِم، وغيرَ ذلك من الأمور التي تتعلَّق بالاشتغال بالعلم، وقد استفاد مِن هذه المقدِّمةِ كلُّ مَن كَتَب بعده في هذا الموضوع.

و«تَذْكِرَة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالِم والمتعلِّم» للإمام بدر الدين محمَّد بن إبراهيم بن جَمَاعة الكِنَانِيّ (ت٧٣٣هـ) ـ رحمه الله ـ: وهي رسالةٌ صغيرةٌ اختصرها المؤلِّف من مقدِّمة الإمام النووي لكتابه «المجموع»، وأضاف إليها زياداتٍ حسنةً تشتمل على الآداب والأخلاق التي ينبغي أن يتزيَّن بها المعلِّمُ والمتعلِّمُ.

و«مِفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الْجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ) ـ رحمه الله ـ: يُعتبَر هذا الكتابُ مَرجِعاً ثرّاً في معرفة ما جاء في فضل العلم والعالِم، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد في هذا الباب ما لا يُوجَد ذلك في سِواه.

و«الدُّرُّ النَّضِيد في أدب الْمُفِيد والْمُسْتَفِيد» للشيخ بدر الدين محمَّد العِزِّي (ت٩٨٤هـ) وهو كذلك مُخْتَصَرٌ من مقدِّمة الإمام النَّوَوِي للمجموع، لكن مؤلِّفه ـ رحمه الله ـ أضاف إليه زياداتٍ مفيدةً، أخذاً واقتباساً من كُتُب الشَّافعية فقط دُوْن غيرِهم، ولو أنه تَوسَّع في ذلك مِن كُتُبٍ أخرى لغيرهم لاحتوى الكتابُ على مادَّة غزيرة في الموضوع، لا سيما كتب المالكية[١] والحنابلة[٢].

---

(١) مثل «جامع بيان العلم وفضله»، للإمام ابن عبد البر القرطبي المالكي، (ت٤٦٣هـ).

(٢) مثل «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة»، للإمام ابن قيِّم الجوزية الحنبلي، (ت٧٥١هـ).

و«أدَبُ الطَّلَبِ ومُنْتَهى الأَرَبِ» للإمام محمد بن علي الشَّوْكاني اليَماني (ت١٢٥٠هـ): وهو كتابٌ قَيِّمٌ في هذا الموضوع، ومتميِّز عن الكتب السابقة بمزايا عديدة، منها أنَّ مؤلِّفه الإمام - رَحِمَهُ اللهُ - قدَّم من خلال هذا الكتابِ العديدَ من اقتراحاته المفيدة في طلب العلم إلى جانب بيانه الكثيرَ من الآداب التي يلزم للطالب مراعاتها في تلقِّي العلم.

هذه بعضُ كُتُب المتقدِّمين المفيدة، التي اعتنتْ ببيان الآداب والأخلاق التي ينبغي أن يتحلَّى بها الطالبُ، لكن مؤلِّفيها - رحمهم الله تعالى - رغم عُلُوِّ كعبِهم في علم الحديث، وقُوَّتِهم فيه، فقد أوردوا فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة، بل ما لا أصلَ لها! فقد يكون عُذْرُهم في ذلك مثل عُذْرِ غيرِهم من المصنِّفين في الفضائل والآداب، مِن أنَّ الأمر فيهما مبنيٌّ على التساهُل؛ لأنَّ ذلك ترغيبٌ وترهيبٌ، واللهُ أعلَمُ.

كما ألَّف في هذا الموضوعِ بعضُ أَجِلَّة العلماء المعاصرين كتباً مفيدةً، ومنها الجديرُ بالذكر هنا: «حِلْيَةُ طالب العلم» للعلامة الشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ت١٤٢٩هـ) - رَحِمَهُ اللهُ -، الذي أعتبره أحسنَ وأجمَعَ كتابٍ في هذا الموضوع على الإطلاق، و«معالِم في طريق طلب العلم» للشيخ عبد العزيز السَّدحان، و«مَعالِم إرشادية لصناعة طالب العلم» للمحدِّث المحقِّق الشيخ محمد عَوَّامة، وهذه كتبٌ ينبغي أن لا تفوت طالبَ العلمِ قراءتُها[1].

---

(١) كذلك ألَّف في هذا الموضوعِ من علماء الهند العلامةُ الجليل العالِم الرَّبَّاني الشيخ أبو الحسن علي الحسني النَّدوي (ت١٤٢٠هـ) كتاباً نفيساً قيماً باللغة الأردوية بعنوان «باجَا سُرَاغِ زندكي» (يعني: البحث عن سِرِّ النجاح في الحياة وفي طلب العلم خاصةً)، وجَّه - رَحِمَهُ اللهُ - من خلال هذا الكتابِ نصائحَه القيمة المفيدة وتوجيهاتِه السديدة النافعة إلى طَلَبَة العلم، في أسلوبٍ رائع مؤثِّر.

أمَّا هذا الكتابُ الذي أسعد بتقديمه إلى طَلَبة العلم الشَّرعي فهو حلقةٌ متواضعةٌ من سلسلة حلقات تلك الكتبِ في هذا الموضوع، وقد قمتُ بتأليفه تلبيةً لرغبة معهد دراسات الحديث النبوي بسِلَانْجُوْر في ماليزيا(١) واستمددتُ في ذلك أولاً من أنوار كتابِ الله وسُنَّة رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثم استفدتُ من بعض الكُتُبِ المشار إليها آنفاً، كما أسعفتْني في ذلك خبرتي المتواضعة في مجال التدريس، التي أتاحت لي ـ على مدى السنوات ـ فرصةً جيدةً للتَّعامُل مع الطُّلّاب ذوي المستويات العلمية المختلفة، وللوقوف على ما يَحتاجُون إليه من نصائح وتوجيهاتٍ مهمةٍ في طلب العلم، والتي هي غيرُ مذكورةٍ في الكتب السَّابقة، وركَّزتُ في تأليف هذا الكتاب على أمورٍ مهمَّةٍ هي:

١ ـ الاستدلالُ ـ قدر الإمكان ـ بالأحاديث الصحيحة والمناسبة لفهم الطلاب.

٢ ـ التَّجَنُّبُ من ذِكْر الأخبارِ والأمور الْمُبالَغ فيها في: تحصيل العلمِ، وحملِ المشاقِّ في طلبه، واحترامِ الشَّيخ (أو الأستاذ) وإجلاله وتعظيمه، الذي يَبلُغ حدَّ التقديسِ أحياناً في بعض الكتب التي أُلِّفَتْ في هذا الموضوع سابقاً، وكذلك تجنَّبتُ ذِكْرَ الكثير من الأخبارِ والأمور التي لا تَقتضي طبيعةُ عُقولِ الطُّلّاب قبولَها في هذا العصر، فضلاً عن تطبيقها على أنفسهم(٢).

---

(١) التابع للكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسِلَانْجُوْر في ماليزيا.

(٢) وإنْ كان في مثل تلك الأخبار ترغيبٌ لهم في التحصيل العلمي، وتشجيعٌ على الاستمرار في دراستهم بالجدِّ والاجتهاد، والصَّبر على طلب العلم، وتجشُّمِ

٣ ـ مراعاةُ الأسلوبِ في الخطابِ والتوجيه؛ ليكون ملائماً للذين يَدرُسون العلومَ الشرعية في المعاهد الدينية على الطريقة التقليدية، وفي الجامعات العصرية على الطريقة الأكاديمية.

وعلى ذلك حاولتُ أن أسير في كل الكتاب، أما محتوياته فهي موزَّعةٌ على القسمين التاليين:

القسم الأول: فضل تعلُّم العِلم الشَّرعي وبيان أهميته، والذي يشتمل على مبحثَين: أولهما: حَدُّ «العلمِ» الذي طلبُه فرضٌ على كل مسلمٍ. والثاني: أهميةُ طلب «العلم» وبيانُ فضله في ضوء ما وَرَد في القرآن والسنة.

القسم الثاني: آداب الطالب في طلب العلم الشرعي، والذي يَحتوي على مبحثَين كذلك، أولهما: الآدابُ التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها أثناء انشغاله بطلب هذا العلم. والثاني: الآدابُ التي ينبغي له أن يتحلَّى بها دائماً في حياته.

ولا يَفُوتني في خِتام هذه المقدِّمةِ أن أتوجَّه بكلمة شكرٍ وتقديرٍ إلى الباحث الزميل الأستاذ محمد حافظ بن سُوْرُوْني السِّلَانْجُوْرِيّ، والباحثة الأستاذة خديجة فاطمة بنت سيد ممتاز الدين، على إتحافهما لي بعضَ الملاحظات القيِّمة حول ما جاء فيه من نصائح وتوجيهات، فجزاهما الله تعالى عني خير الجزاء.

وأخيراً أسأل الله ﷻ أن يوفِّقني أوَّلاً قبل غيري، بالتحلِّي بتلك الآداب النبيلة والأخلاق الكريمة التي ذكرتُها في هذا الكتاب، حتى

المشقَّات، وتحمُّلِ الأَلَاقي في سبيله، وغيرِ ذلك من فوائد كثيرة لا إنكارَ في ذلك، ولكنَّ الأمر كما أسلفتُه.

لا أكون في زُمْرَة مَن قال فيهم ﷻ في مُحكَم تنْزيله العزيز: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، كما أسأله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتقبَّل مني هذا الجهدَ المتواضع المبذول في تأليف هذا الكتاب، خالصاً لوجهه تعالى، إنه سميع مجيب.

كتبه

المعتزُّ بالله تعالى

(أبو الحسن) سيد عبد الماجد الغَوْرِي

كوالالمبور ١١/ جمادى الثاني، ١٤٣٤هـ (٢٢/ إبريل ٢٠١٣م)

القسم الأول

فضلُ تعلُّمِ العِلْمِ الشَّرْعيّ وبيانُ أهميته

المبحث الأول:

حَدُّ «العلمِ» الذي طلبُه فرضٌ على كلِّ مسلمٍ.

المبحث الثاني:

الْحَثُّ على طلب «العلم» وبيانُ فضله وأهميته في ضوء ما وَرَد في القرآن والسُّنَّة.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

حَدُّ «العِلم» الذي طلبُه فرضٌ على كلِّ مسلمٍ

إنَّ «العِلم أشرَفُ ما رَغِبَ فيه الراغبُ، وأفضَلُ ما طَلَب وجَدَّ فيه الطالِبُ، وأنفَعُ ما كَسَبه واقتناه الكاسِبُ»(١)، فله في شريعتنا الغَرَّاء مقامٌ عظيمٌ، فأهلُ العِلمِ هم وَرَثةُ الأنبياء، وفَضْلُ العالِمِ على العابد كما بين السَّماء والأرض، كما قال النبيُّ ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»(٢).

يعني: أنَّ فضل العالِم من حيث عُموم نفعِه لغيره كفضل القمر من حيث عُموم ضيائه لغيره، وأنَّ العلماء خلفاءُ الأنبياء في العلمِ والعملِ وهداية الناس(٣).

---

(١) العبارةُ بين القوسين للشيخ محمد أحمد إسماعيل المقدَّم في كتابه «علوّ الهمة»، ص١٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب: في فضل العلم، برقم: (٣٦٤١)، والترمذي في الجامع، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم: (٢٦٨٢)، كلاهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو حديث حسن. انظر: «الترغيب والترهيب»، (١/ ١٢٠).

(٣) انظر: «نزهة المتقين شرح رياض الصالحين»، للدكتور مصطفى سعيد الخن، (٢/ ١٩٤).

وإذا كان للعلم وصاحبِه هذا الفضلُ العظيم والمنقبةُ العليا؛ فمن الضروريِّ هنا بيانُ أسباب ذلك؛ ليُفهَم من خلالها سببُ تفضيل النبيِّ ﷺ العالِمَ على العابد، وكذلك إيضاحُ حدِّ «العلم» وفضلِ طالبه أيضاً فيما سيأتي.

لقد وَرَدَتْ أحاديثُ كثيرةٌ في السُّنَّة النبوية تَحُثُّ على طلب العلم، ومنها الحديثُ المشهورُ الذي رواه أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ[1]».

وقد ذكر الإمامُ ابنُ قَيِّم الْجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ) سببَ فرضِ «العلم» على كُلِّ مسلمٍ، فقال ـ رحمه الله ـ: «إنَّ الإيمان فرضٌ على كل أحدٍ، وهو ماهيةٌ مُرَكَّبةٌ من علمٍ وعملٍ، فلا يُتصوَّر وجودُ الإيمان إلا بالعلم والعمل. ثم شرائعُ الإسلامِ واجبةٌ على كل مسلمٍ، ولا يُمكِن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلمِ بها، واللهُ تعالى أخرج عبادَه من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، فطلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم. وهل تُمكِن عبادةُ اللهِ التي هي حَقُّه على العباد كلِّهم إلا بالعلم؟ وهل يُنال العلمُ إلا بطلبه؟»[2].

أمَّا المقصود بالعلم الذي فرض الحديثُ النبويُّ طلبَه على كلِّ مسلمٍ، فقد اختلف العلماء في ذلك، فقال الإمامُ ابن الْجَوْزِي (ت٥٩٧هـ) ـ رحمه الله ـ: «اختلفت عباراتُ الناس، في بيان العِلم المفروض، والصحيحُ أن يُقال:

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في المسند، (٥/ ٢٢٣)، برقم (٢٨٣٧)، وللحديث طرق متكاثرة جمعها الحافظ السيوطي في جزء مفرد بعنوان «جزء طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وحسَّنه.

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، (١/ ٤٨٠، ٤٨١).

هو علمُ مُعامَلَةِ العبدِ لرَبِّه، وهو يَدخُل في باب الاعتقاد والأفعال، وهذا العِلمُ المفروضُ ينقسم إلى قِسمَين:

الأول: فرضُ عَيْنٍ: وهو ما يتعيَّن وُجُوْبُه على الشَّخصِ من: توحيد الله، ومعرفةِ أوامرِه وحُدودِه في العبادات والمعاملات التي يُحتاج إليها.

والثاني: فرضُ كفايةٍ: وهو كلُّ علمٍ لا يُستغنَى عنه في قِوَام الدُّنيا، كالطِّبِّ، والحساب، وأصولِ الصِّناعات، كالفِلَاحة، والْحِيَاكة، والْحِجَامة. فلو خَلَا البلدُ عمَّن يقوم بهذه العلوم والصِّناعات؛ أَثِمَ أهلُ البلدِ جميعاً. وإذا قام بها واحدٌ فقط كَفَاهم؛ سَقَط الإثمُ عن الباقين.

ومن العُلوم ما يكون مُباحاً، كالعِلم بالأشعار التي لا سُخْفَ فيها، ومنها ما يكون مذموماً، كعلم السِّحْر، والطِّلْسِمَات[(١)]، والتَّلْبِيْسات[(٢)].

وأمَّا العلومُ الشَّرعيةُ فكُلُّها محمودةٌ، وتَنقسِم إلى أصولٍ وفروعٍ، ومُقَدِّماتٍ ومُتَمِّماتٍ»[(٣)].

وذكر الحافظُ ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ أنَّ العلم النافع الذي ينبغي أن يَسلُكه المسلمُ فهو: «ضبطُ نصوصِ الكتاب والسُّنَّةِ، وفهمُ معانِيها، والتقيُّدُ في ذلك بالمأثور عن الصَّحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم في معاني القرآن والحديث، وفيما وَرَد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزُّهْدِ والرَّقائق والمعارف وغير ذلك. والاجتهادُ على تمييز

---

(١) وهي ما يكتبه السَّاحِرُ من خطوط وأعداد وكلمات غامضة.

(٢) وهي جمعُ «تلبيس»، وهو سترُ الحقيقةِ وإظهارُها بخلاف ما هي عليه.

(٣) انظر: موسوع نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، (٧/ ٢٩١٢، ٢٩١٣)، نقلاً عن «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة، (ص: ١٥، ١٧) بتصرف واختصار.

صحيحه من سقيمه أوَّلاً، ثم الاجتهادُ على الوُقوف على معانيه وتفهُّمِه ثانياً. وفي ذلك كفايةٌ لِمَن عَقَل، وشغلٌ لِمَن بالعِلم النافِع عُنِيَ واشْتَغَلَ»[١].

وهناك أقوالٌ أخرى كثيرةٌ وقريبةٌ مِن هذا، وحاصِلُها: إنَّ العِلمَ المفروضَ تعلُّمه على كل مسلم هو: علمُ فروضِ الأعيان، كمعرفة الله وحده لا شريكَ له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته إجمالاً، ومعرفةِ نبيِّه محمد ﷺ، ووجوبِ اتِّباعه في كل ما أَمَر، واجتنابِ ما نَهَى عنه وزَجَر، ومعرفةِ أحكام شريعته التي لا تَصِحُّ العبادةُ دُوْن العلمِ بها، وكذلك معرفةِ سائر العلوم التي تُعِين على فهم الكتاب والسنة.

ثم بعد ذلك كلُّ علمٍ يَكشِف عن حقيقةٍ تَهدي الناسَ إلى حقٍّ، أو تقرِّبهم من خيرٍ، أو تحقِّق لهم مَصْلَحةً، أو تَدْرأ عنهم مَفْسَدةً.

وفي خِتام هذا المبحث يَجْدِر بي أن أنقل هنا نصيحةً قَيِّمَةً للحافظ الذَّهبي (ت٧٤٨هـ) ـ رحمه الله ـ، التي وَجَّهها إلى كلِّ طالبٍ باحثٍ عن العلم النَّافع، فقال:

«نَسأَل اللهَ عِلماً نافعاً، تَدْرِي ما العِلْمُ النَّافِع؟ هو ما نَزَل به القرآنُ، وفَسَّره الرَّسُوْلُ ﷺ قولاً وفعلاً، ولَمْ يَأْتِ نَهْيٌ عنه، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي»[٢].

فعليكَ يا أخي! بتدبُّر كتابِ اللهِ[٣]، وبإدمان النَّظَر في (الصَّحِيْحَيْن)[٤]،

---

(١) فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي، ص٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، برقم: (٤٧٧٦)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) لأنه العلمُ الصميمُ، ومصدرُ التشريع، والأصلُ الذي تَرِدُ العلومُ إليه.

(٤) لأنهما جَمَعا في هذين الكتابين أصحَّ ما ثَبَت ورُوي عن رسول الله ﷺ من الأحاديث، فأصبحا بذلك من الأصول الستة الصحيحة الموثوقة لدى الأمة.

و(سُنَنِ النَّسَائيّ)[١]، و (رِياضِ النَّوَوِي)[٢] وأذكارِه[٣]؛ تُفلِحْ وتنْجِحْ.

وإيّاكَ وآراءَ عُبَّادِ الفلاسِفة، ووظائفَ أهلِ الرِّياضات، وجُوعَ الرُّهْبان، وخِطابَ طَيْشِ رُؤُوْسِ أصحابِ الْخَلَوات، فكُلُّ الْخَيْر في مُتابَعة الْحَنِيْفِيَّةِ السَّمْحَة[٤]، فواغَوْثَاهُ بالله، اللَّهُمَّ اهْدِنا إلى صِراطك الْمُسْتَقِيم»[٥].



(١) لأنَّ مصنِّفها جمع فيها ما ثَبَت من رسول الله ﷺ من أحاديث الأحكام مما يُمكن أن يَستدِلَّ به الفقهاء، فهكذا أنه جمع في هذا الكتاب بين الحديث والفقه، كما اعتنى فيه ببيان علل الأحاديث، فمَن أدامَ النظرَ فيه يحصل له خيرٌ كثيرٌ.

(٢) يقصد به «رياض الصالحين»، للإمام النووي، الذي ذكر فيه جملةً كبيرةً من الأحاديث النبوية التي تتصل بالأخلاق والآداب، وما لا غنى لمسلمٍ عنه.

(٣) يَقصِد به «كتاب الأذكار»، للإمام النووي، فيه من الأذكار والأوراد الصحيحة الواردة عن رسول الله ﷺ، والتي لا بُدَّ للطالب أن يَستعِين بها.

(٤) هي الطريقة التي تُلائِم فطرةَ الناسِ، وليس فيها غلوٌّ ولا تقصيرٌ.

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٣٧/ ٣٢٠).

المبحث الثاني

الحَثُّ على طلب «العِلم» وبيانُ فضلِه وأهميتِه في ضوء ما وَرَد في القُرآن والسُّنَّة

لقد تَكاثَرَتْ آياتُ القرآنِ الكريم وأحاديثُ النبيِّ ﷺ في بيان فضل العلم ومَنْزِلةِ العلماء عند الله ﷻ وعند الناس، في الدنيا والآخرة، وها هي بعضُ ما وَرَد منها في ذلك:

١ ـ «العِلمُ» مُقَدَّمٌ على العبادة:

لأنَّ العلم هو الذي يوضِّح أركانَ العبادةِ، وشروطَها، وآدابَها الظاهرة، وأسرارَها الباطنة، كما يبيِّن ما يُصَحِّحها وما يُبطلها، وما يُكمِلها أو يَنقُصها. فلذلك فضَّل النبيُّ ﷺ العلمَ على العبادة، كما في الحديث الذي رواه عنه حُذَيْفَةُ بن اليَمَان رضي الله عنه أنه قال: «فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وخَيْرُ دِيْنِكُم الوَرَعُ»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، (١/ ١٧١)، برقم: (٣١٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط»، (٤/ ١٩٦)، برقم: (٣٩٦٠)، وقال المنذري: «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن». (الترغيب والترهيب، ١/ ١١٨، برقم: ١٠٣).

٢ ـ «العِلمُ» إرْثُ الأنبياء:

إنَّ العلم الشَّرعي هو ميراثُ النُّبُوَّةِ، والعلماءُ هم وَرَثَةُ الأنبياء، فإنهم ـ كما قال النبيُّ ﷺ ـ «لَمْ يُوَرِّثُوْا دِرْهَماً وَلَا دِيْناراً، وإنَّمَا وَرَّثُوْا العِلْمَ. فَمَنْ أَخَذَهُ؛ أَخَذَهُ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١) مِن إرث الأنبياء. فبقدر حظِّ الإنسانِ من العلم الشرعي يكون حظُّه من ميراث النبيِّ ﷺ؛ ولذلك كان طلبُ العلم مِن أفضَل القُربات وأجَلِّ الطَّاعاتِ. فالذي يَطلُب العلمَ الشرعيَّ بصِدْقٍ وإخلاصٍ، لأجل العمل به والدعوة إليه؛ يَدخُل ضِمْنَ قافلة وَرَثَةِ الأنبياء والْمُرسَلين، عليهم أفضلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ التسليمِ.

٣ ـ «العِلمُ» يسهِّل لطالبه طريقاً إلى الجنَّة:

فمَن سارَ في دَرْب العِلم، يُسهَّل له طريقُ الْجَنَّةِ، كما دَلَّ على ذلك هذا الحديثُ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْماً؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقاً إِلَى الْجَنَّةِ»(٢)؛ وسببُ ذلك أنَّ «العلم» هو الذي يَجعَل المسلمَ على بَيِّنَةٍ من أمره، ويُرشِده إلى أعمال البِرِّ، ويَجعَل في قلبه نوراً يميِّز به الحقَّ من الباطل، ويَعرِف به العملَ الصحيح من الفاسد(٣).

٤ ـ «العِلمُ» يُورِث الخشيةَ لله تعالى والقُرْبَ منه:

وذلك كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]،

---

(١) سبق تخريجه في صفحة: ٢٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب: فضل العلم، برقم: (٢٦٤٦)، وقال: «هذا حديث حسن».

(٣) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، للخَن، (١/ ١٩١).

أي: إنما يَخاف اللهَ ﷻ ويقدّره حقَّ قَدْرِه، مَن عَرَفه، وعَرَف عظيمَ قُدرتِه، وسلطانِه على خَلْقه، نتيجةَ التأمُّلِ في أسرار كونِه وشرعِه، وهم: العلماء.

وما أجملَ ما قاله الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ) ـ رحمه الله ـ: «ولو لم يكن في العِلم إلَّا القُرْبُ من ربِّ العالمين، والالتحاقُ بعالَم الملائكة، وصُحْبَةُ الملأ الأعلى؛ لكَفَى به شرفاً وفضلاً»(١).

٥ ـ «العِلمُ» من أسباب الرِّفْعَة لأهله:

إنَّ الله ﷻ يَرفَعُ درجةَ أهلِ العِلمِ في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، أما في الدُّنيا فيَرفَعُهم اللهُ بين عباده بحسب ما قاموا به من أعمالٍ في سبيله، وفي الآخرة فإنَّه ﷻ يَرفَعهم درجاتٍ بحسب ما قاموا به من الدعوة إلى دينه، والعملِ بما عَلِمُوا.

٦ ـ «العِلمُ» أفضَلُ الجهاد:

إنَّ قِوام الدِّين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهادُ نوعَين: جهادٌ باليَدِ والسِّنان؛ وهذا المشارك فيه كثيرٌ، والثاني: الجهادُ بالْحُجَّة والبيان؛ وهذا جهادُ الأئمَّةِ مِن وَرَثة الأنبياء، وهو أفضَلُ الجهادَيْن؛ لعِظَم منفعتِه، وشِدَّة مُؤنَتِه، وكثرةِ أعدائه(٢)، كما يدلُّ على ذلك الحديثُ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِيْ هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُه أو يُعَلِّمُه، فَهُوَ فِي مَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ»(٣)، وكذلك الحديثُ الذي رواه

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، (١/ ١٠٨).

(٢) انظر «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية، (١/ ٢٧١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب: فضل العلماء والحث على طلب =

أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ»(١).

فأفاد الحديثان: أنَّ طلب العلمِ جهادٌ في سبيل الله، ولطالبه أجرُ المجاهِدِ في ميادين القتال؛ لأنَّ كُلّاً منهما يقوم بِما يُحيي الدينَ ويَحمِيه، ومَن ماتَ وهو يَطلُب العلمَ كان له مثلُ أجرِ الشهيد(٢).

٧ ـ «العِلم» يكثُر أجرَ العامِل:

لأنَّ العلم يصحِّح نِيَّةَ الطالبِ، فيُحسِن عملَه، والنيةُ في الأعمال لا بُدَّ منها ليترتَّب الثوابُ على فاعلها، فعن عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما الأعْمَالُ بالنيّة، وإنَّما لإمْرِئٍ ما نَوَى»(٣).

٨ ـ فضلُ «العِلمِ» أعظَمُ مِن فضل «المَال»:

فعن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُحَدِّثُكُمْ حَدِيْثاً فَاحْفَظُوْهُ، قال: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَتَّقِيْ رَبَّهُ فِيْهِ، وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيْهِ حَقّاً؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.

وعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْماً، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُوْلُ: لَوْ أَنَّ لِيْ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيْهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

= العلم، برقم: (٢٢٧)، والحاكمُ في المستدرك، (١/ ١٦٩)، برقم: (٣١٠)، وصحَّحه، واللفظُ لابن ماجه.

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب: فضل طلب العلم، برقم: (٢٦٤٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، للخن، (١/ ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، أول كتاب الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، برقم: (١).

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً، فَهُوَ يُخْبَطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِيْ فِيْهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيْهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيْهِ حَقّاً؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً ولَا عِلْماً، فَهُوَ يَقُوْلُ: لَوْ أَنَّ لِيْ مَالاً لَعَمِلْتُ فِيْهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[1].

فجَعَل النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ العِلمَ الحقيقيَّ هو العلمُ الذي يُبصِر الْمَرْءَ بحقائق الأمور، فصاحِبُ المالِ إذا لم يَتَحَلَّ بالعِلم فإنَّه سيُسيء التصرُّفَ فيه، فتجده يُنفِقه على شهواتِ نفسِه، ولا يَعرِف شُكْرَ هذه النِّعمةِ؛ ولذلك استحقَّ أن يكون بأخبث المنازل.

لقد عَقَد الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِيّة (ت٧٥١هـ) مُقارَنةً جميلةً بين «العلم» و«المال»، يَحسُن إيرادُها في هذا المقام، فضَّل فيها ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ «العلمَ» على «المال» من عِدَّة وُجوهٍ، أهمّها:

إنَّ «العِلم» ميراثُ الأنبياء، و«المالَ» ميراثُ الملوكِ والأغنياء. إنَّ «العِلم» يَحرِس صاحبَه، و«صاحبُ المالِ» يحرس مالَه.

أنَّ «العِلم» «يَزْدَادُ بالبذل والعطاء، و«المالَ» تُذهبِه النفقاتُ ـ عدا الصَّدَقة.

أنَّ «العِلم» يُرافِق صاحِبَه حتَّى في قَبْره، و«المالَ» يُفارِقه بعد موته إلَّا ما كان من صدقةٍ جاريةٍ.

أنَّ «المال» يَحصُل للبَارِّ والفاجِر والمسلم والكافر، أمَّا «العِلمُ» النافعُ فلا يَحصُل إلَّا للمؤمن.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب: ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم: (٢٣٢٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

أنَّ «العالِم» يَحتاج إليه الملوكُ ومَن دُوْنَهم، و«صاحِبَ المال» يَحتاج إليه أهلُ العدمِ والفاقة والحاجة.

أنَّ «صاحب المال» قد يُصبِح معدَماً فقيراً بين عَشِيَّةٍ أو ضُحاها، و«العِلمَ» لا يُخْشَى عليه الفَناءُ إلَّا بتفريط صاحبه.

أنَّ «المال» يدعو الإنسانَ للدُّنيا، و«العِلمَ» يدعوه لعبادة ربِّه.

أنَّ «المال» قد يكون سبباً في هلاك صاحبِه[١]، أمَّا «العِلمُ» ففيه حياةٌ لصاحبه حتى بعد موته.

سعادةُ «العِلمِ» دائمةٌ، وسعادةُ «المالِ» زائلةٌ.

أنَّ «العالِم» قَدْرُه وقيمتُه في ذاته، أمَّا «الغَنِيُّ» فقيمته في مالِه.

أنَّ «الغَنِيَّ» يدعو الناسَ بماله إلى الدُّنيا، و«العالِم» يدعو الناسَ بعلمه إلى الآخرة[٢].

٩ ـ «العِلمُ» سببُ الاستغفارِ لصاحبه:

لأنَّ صاحب العِلم كَفَاه فضلاً أنَّ الله ﷻ يسخِّر له كلَّ شيءٍ ليَستغفِر له، ويدعو له، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «صَاحِبُ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحُوْتَ فِيْ الْبَحْرِ»[٣].

١٠ ـ كلُّ ما في الدنيا ملعونٌ سِوى «العِلم»:

وذلك كما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ، مَلْعُوْنٌ مَا فِيْها، إلَّا: ذِكْرَ اللهِ تعالى، وَمَا وَالَاهُ[٤]، وعالِماً، أو

---

(١) فكم اختطف من الأغنياء بسبب مالهم!

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة»، (١/ ٤١٨، ٤٣٥).

(٣) أخرجه أبو يعلى في المسند، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»، (٣٧٥٣).

(٤) «وما والاه» أي: طاعة الله تعالى.

مُتَعَلِّماً»(١)، يعني: أنَّ كُلَّ ما في هذه الدنيا من الأموال والأمتعة والشهوات وغيرها ملعونٌ، وكلُّ علم يقرِّب إلى مرضاة الله، ويَنفَع عبادَه فهو مطلوبٌ ومحمودٌ. فهذا الحديثُ يَحُثُّ على طلب العلم وتعليمِه ليَحصُل صاحبُه على القُرْب من الله تعالى ويَنْجُو من الطَّرد من رحمته.

١١ ـ «العِلمُ» دليلٌ على خيرٍ يُراد بالإنسان:

لأنَّ مَن رُزِقَ فِقْهاً في الدِّين(٢)؛ فذاك الموفَّقُ على الحقيقة، فالفقهُ في الدِّين مِن أعظم الْمِنَنِ، فعن مُعاوِية ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ»(٣)، ومَن لم يَفْقَهْ في الدِّين، ولم يَعلَم قواعدَ الإسلام وما يَتَّصِلُ به من الفروع؛ فقد حُرِمَ الخيرَ الكثيرَ(٤).

وهذا الحديث عظيمٌ في فضل العلم وفي الحثِّ على طلب علم الشريعة والفقه فيها، فإنه يَدُلُّ على أنَّ العلم جِماعُ الخيرِ وعنوانُ توفيقِ الله ﷻ ورضاه؛ لأنه يَجعَل طالِبَه على معرفة أحكام الدين وتعاليمِه.

١٢ ـ أمرُ اللهِ بطلب الاستزادة من «العِلم» دُوْن غيره:

إنَّ الله ﷻ أَمَر نبيَّه مُحمَّداً ﷺ بالاستزادة من العِلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا، برقم: (٢٣٢٣)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) والفقهُ في الدِّين ليس المقصودُ به فقهَ الأحكامِ العملية المخصوصة عند أهل العلم بعلم الفقه فقط، ولكن المقصود به هو: علمُ التوحيد، وأصول الدِّين وما يتعلَّق بشريعة الله ﷻ.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً، برقم (٧١)، ومسلم في الصحيح، كتاب الزكاة، باب: النهي عن المسألة، برقم: (١٠٣٧).

(٤) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر، (٢/ ٢١٨).

زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فكَفَى بهذا شَرَفاً للعلم أنْ أَمَر ـ سبحانه ـ نبيَّه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ أن يَسأله المزيدَ منه(١).

وقال الإمام القُرْطُبِيُّ (ت٦٧١هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في تفسير هذه الآية: «فلو كان شيءٌ أشرَفَ من العِلم؛ لأَمَر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيدَ منه، كما أَمَر أن يَستزِيده من العِلم»(٢).

فتُفيدنا هذه الآيةُ الجليلةُ بأنَّه لا بُدَّ من الاستزادة من العِلم والتَّرَقِّي فيه درجةً بعد أخرى، فليس للتعلُّم في الإسلامِ نهايةٌ، والدليلُ على هذا أنَّ الله ﷻ أَمَر رسولَه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ هذا الأمرَ الوحيدَ من نوعِه بطلب الازديادِ من العلم.

والمعهودُ في التشريع أنَّ الله ﷻ حين يَأمُر رسولَه ﷺ يَطلُب منه مُطلَقَ الفِعلِ، أو يَطلُب ما يَتيَسَّر منه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ ـ ٤]. فاللهُ ﷻ يُخفِّف على عباده، مع الرَّأْفَة بالنبيِّ ﷺ وبالأُمَّة مِن تَحَمُّل ما هو فوق الطَّاقةِ من العبادة العملية أو القولية، أَمَّا العلمُ فإنَّ الله ـ سبحانه ـ أَمَر رسولَه أن يَزْدَادَ منه، وأن يَتبسَّط فيه؛ لأنه ليس للتعلُّم نهايةٌ، وليس للعلم حدودٌ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥](٣).

وفي القِصَص القرآنِيَّة شواهد كثيرة على ذلك مِن سُنَن الأنبياء وقِصَص الْمُرسَلين، فقِصَّةُ مُوسى مع الْخضر ـ عليهما السلام ـ معروفةٌ، كما سيأتي الحديث عنها في القسم الثاني(٤).

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٤/ ٤٠).

(٣) منهجية العلم في الإسلام، للدكتور عبد الستار أبو غدة، ص٩، ١٠.

(٤) انظر: «التحلِّي بالصبر» و«الرحلة في طلب العلم» في المبحث الثاني.

١٣ ـ الأمرُ النبويُّ بتبليغ «العِلم»:

لقد أَمَر النبيُّ ﷺ بتبليغ «العِلم» عنه، كما في الحديثَين: «بَلِّغُوْا عَنِّيْ وَلَوْ آيَةً»[١]، و«لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ مِنْكُم الغَائِبَ»[٢]، ففيهما وجوبٌ على طلب العلم؛ ليتمكَّن طالِبُه من تبليغ شريعة الله ﷻ، وهو من الفروض الكفائية التي إذا أقام بها بعضُ المسلمين سقط الوجوبُ عن الباقين، «ومعلومٌ أنَّه لا شيءَ أحَبُّ إلى رسول الله ﷺ من إيصالِه الْهُدَى إلى جميع الأمةِ، فالْمُبَلِّغُ عنه ساعٍ في حصول مَحَابِّه، فهو أقرَبُ الناسِ منه وأحَبُّهم إليه، وهو نائبُه وخليفتُه في أُمَّته، وكَفَى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله»[٣].

١٤ ـ ترغيبُ النبيِّ ﷺ لاغتباط صاحب «العِلم»:

إنَّ رسولنا ﷺ لم يرغِّب أحداً أن يَغبِط أحداً على شيءٍ من النِّعَم التي أنعم اللهُ بها على عباده، إلَّا على نِعمتَين، هما: طلبُ العِلْمِ والعملُ به، والتَّاجِرُ الذي جَعَل مالَه خدمةً للإسلام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لَا حَسَدَ إلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[٤]. وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم: (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، برقم: (٦٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الحدود، باب: تغليظ تحريم الدماء، برقم: (١٦٧٩)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، (١/ ٢٧٩).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب: الاغتباط في العلم، برقم: (٧٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، برقم: (٨١٦).

الحديثُ يَحُثُّ على طلب العلم، ووجوبِ العملِ بالعلم، وتعليمِه الناسَ، واستخدامِه فيما يقضي مصالِحَهم، كما يَحُثُّ أيضاً على استحباب تحصيل المال لإنفاقه في وُجُوه الخير.

١٥ ـ لا ينقطع عملُ صاحبِ «العِلم» بموته:

لأنَّ «العِلم» يَبقَى، ويكون سبباً لتخليد ذِكر صاحبِه بين الأنام مدى الدَّهر، بينما يتلاشى اسمُ صاحبِ «المال» وذِكرُه بينهم إنْ لم يكن بذلُه في وُجُوه الخير، وخيرُ مثالٍ لذلك: الصحابي الجليل أبو هريرة ﵁، أحد أشهرِ أصحابِ الصُّفَّةِ[1]، وكان يَسقُط من شِدَّة الْجُوع كالْمُغْمَى عليه، فقد صَبَر على ذلك في طلب العلم، وآثَرَه على الاكتساب، فلازَم رسولَ اللهِ ﷺ ورَوَى عنه العددَ الأكبر من الأحاديث، حتى لُقِّبَ «راوية الحديث»، فقد تُوفِّي ﵁ قبل خمسة عشر قرنٍ من قرننا هذا، والأمةُ مازالت مستفيدةً مما رواه ﵁ عن النبيِّ ﷺ المجموعةَ الهائلةَ من الأحاديث، فيكون له أجرُ كلِّ مَن انتفع بأحاديثه إلى يوم القيامة، والدليلُ على ذلك الحديثُ الذي رواه أبو هريرة ﵁ نفسُه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ لَهُ»[2]، فأفاد الحديثُ بأنَّ عمل الإنسانِ يتوقَّف بالموت فيتوقَّف الثوابُ المرتَّبُ عليه، غير ثوابِ ثلاثة خِصَالٍ وهي: صدقةٌ جاريةٌ كالوقف من مسجد وغير ذلك، أو علمٌ نافِعٌ كتعليم غيره، أو تأليفُ كتبٍ مفيدةٍ في

---

(١) أصحاب الصُّفَّة: هم جماعةٌ من فقراء الصَّحابة، الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وهم فقراء، لا يجدون مأوى فيأتون إلى الصفة التي كانت في مسجد النبيِّ ﷺ، ويعيشون فيها على ما تَجُوْدُ به أيدي الناس.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم: (١٦٣١).

العلم، أو دعوةُ ولدٍ صالحٍ لأبوَيه، فإنَّ ثواب هذه الخِصال لا ينقطع بموت فاعلها، بل يستمرُّ باستمرار أثرها.

١٦ ـ وصية النبيِّ ﷺ لطالب العلم:

فإنَّ كُلَّ ما سَبَق من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فيه دلالةٌ صريحةٌ على مكانة «العلم» وفضله في ديننا العظيم، وشريعتِنا الغرَّاء، فلذلك أوصى النبيُّ ﷺ بمَن يَطلُب العلمَ كما جاء في هذين الحديثَين:

١ ـ عن أبي سعيد الْخُدْرِي رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَيَأْتِيْكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُوْنَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوْهُمْ فَقُوْلُوْا لَهُمْ: مَرْحَباً بِوَصِيَّةِ رَسُوْلِ اللهِ، وَأَقْنُوْهُمْ»(١). أي: عَلِّمُوْهُمْ.

٢ ـ وعن صَفْوانَ بن عَسَّال الْمُرَادِي رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو في المسجدِ مُتَّكِئٌ على بُرْدٍ له أَحْمَرَ، فقُلْتُ له، يا رسولَ اللهِ! إنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ العِلمَ، فقال: «مَرْحَباً بِطَالِبِ الْعِلْم، إِنَّ طَالِبَ الْعِلْم لَتَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُم بَعْضاً حَتَّى يَبْلُغُوْا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِم لِمَا يَطْلُبُ»(٢).

هذا غيضٌ من فيضٍ في هذا الباب، ومَن يُريد التوسُّعَ في ذلك فليَرجع إلى «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البَرِّ القُرْطُبي (ت٤٦٣هـ)، و«مفتاح دار السَّعادة» للإمام ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ)، ففيهما الكثيرُ من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة في بيان فضل العلم وأهميته.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب: الوصاة بطلبة العلم، برقم: (٢٤٧) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٦/ ١٩١٤)، برقم: (٧٣٤٧)، قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، (مجمع الزوائد: ١/ ١٣٦).

القسم الثاني
آدابُ الطالبِ
في طلب العِلم الشَّرعي

المبحث الأول:

الآدابُ التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها أثناء الانشغال بطلب العلم.

المبحث الثاني:

الآدابُ التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها دائماً في حياته.



المبحث الأول

الآدابُ التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها أثناء الانشغال بطلب العلم

١ ـ الإخلاصُ لله تعالى.

٢ ـ حفظُ القرآن الكريم.

٣ ـ تعلُّمُ اللغةِ العربية وإتقانُها.

٤ ـ التحلِّي بمكارم الأخلاق.

٥ ـ التأدُّبُ مع الخالقِ الرَّبِّ ﷻ ومع مخلوقاته الكِرام من الأنبياء والصحابة والأئمة والعلماء.

٦ ـ التَّجَنُّبُ عن الغُرور والكِبْر والحياء والتَّحَلِّي بالتَّواضُع.

٧ ـ الحذرُ من التلقِّي عن أهل البِدَع.

٨ ـ مُلازَمةُ الشيخِ الْمُرَبِّي الْمُتقِن وآدابُ الاستفادة منه.

٩ ـ اللُّجوءُ إلى الله سبحانه وتعالى في الطلب والتحصيل.

١٠ ـ الحرصُ على لُزوم الطهارة في مجالس العلم.

١١ ـ الاتِّصافُ بعُلُوِّ الْهِمَّةِ.

١٢ ـ التَّحَلِّي بالصَّبْر.

١٣ ـ تقديمُ الأَهَمِّ على الهامِّ في طلب العلم.

١٤ ـ التدرُّج في طلب العلم.

١٥ ـ الحذرُ من الخوض في الخلافيات والانشغال بالشُّبُهات.

١٦ ـ الحرصُ على انتقاء الأصحاب.

١٧ ـ مُذاكَرةُ العلم.

١٨ ـ تقييدُ العلم بالكتابة.

١٩ ـ الرِّحلة في طلب العلم.

٢٠ ـ «التَّخَصُّصُ» في علمٍ مُعَيَّنٍ من العلوم الشرعية.

١ ـ الإخلاصُ لله تعالى

المرادُ «الإخلاص»: تَرْكُ الْمَرْءِ الرِّياءَ في طاعات الله ﷻ وحده، والقيام بها خالصةً له ﷻ، ولا يُريد بها تعظيماً من النَّاس ولا توقيراً[1]. لذلك قيل فيه: (أي في الإخلاص) إنَّه حقيقةُ الدِّين، ومضمونُ دعوةِ جميع الرُّسُلِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فقيَّد ﷻ في هذه الآيةِ الأمرَ بالعبادة بالإخلاص الذي هو رُوْحُها[2].

فالإخلاصُ لله تعالى في العبادة أو العَمَل شَرْطٌ مِن شروط قَبُوْلِهما عنده، فإنَّ اللهَ ﷻ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إلَّا مَا كانَ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ.

فيَجِبُ على المسلمِ أن يُخلِص نِيَّتَه لله تعالى في جميع أعمالِه، وأن يُصَحِّحَها في كلِّ وقتٍ؛ لأنَّ مَدار قَبولِ أعمالِه، والإثابةِ عليها في الدَّار الآخرة متوقِّفٌ على إخلاص النِّيَّةِ لله تعالى، كما جاء في الحديثِ المشهورِ الذي رواه عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّما الأعْمَالُ**

---

(١) انظر: «التعريفات»، للجرجاني، ص٢٨.

(٢) انظر: «أدب الطلب ومنتهى الأرب»، للإمام محمد بن علي الشوكاني، ص٨٢.

بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لإمْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورَسُوْلِه. وَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَة يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1].

وهذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ في الدِّين، وموضوعُه الإخلاص في العمل، وبيانُ اشتراط النِّيَّةِ وأثرُ ذلك، وبه صَدَّر الإمامُ البخاري (ت٢٥٦هـ) ـ رحمه الله ـ كتابَه «الجامع الصحيح الْمُسْنَد»، وأقامه مقامَ المقدِّمةِ له إشارةً إلى أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا يُراد به وجهُ اللهِ فهو باطِلٌ لا ثمرةَ له في الدُّنيا والآخرة.

وكذلك «العِلمُ»؛ فإنَّه إذا فَقَد إخلاصَ النِّيَّةِ؛ انْتَقَلَ مِن أفضل الطَّاعات إلى أحَطِّ المخالفات، ولا شيءَ يُحَطِّمُ العِلمَ مثلُ: الرِّياء.

لقد ذمَّ الحافظُ الذهبي (ت٧٤٨هـ) ـ رحمه الله ـ من يَطلُب العلمَ دُوْن إخلاصٍ، فقال: «مَن طَلَب العلمَ للعمل؛ كَسَره العلمُ، وبَكَى على نفسه. ومَن طَلَب العلمَ للمَدارِس، والإفتاء، والفَخْرِ، والرِّياءِ؛ تَحامَقَ، واخْتالَ، وازْدَرَى بالناس، وأهلكه العُجْبُ، ومَقَتَتْه الأَنْفُسُ، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، أي: دَسَّسها بالفُجور والمعصية»[2].

لذلك يجب على الطالب قبل أن يبدأ بدراسة العلوم الشرعية: أن يتخلَّص أولاً من كُلِّ ما يَشُوْبُ نِيَّتَه في صِدْق الطَّلب، كحُبِّ الظُّهور مِن خلال اشتغاله بهذا العِلم، وجعلِه وسيلةً له لنيل المال، أو الْجَاهِ، أو السُّمْعَةِ. فإنَّ هذه وأمثالَها إذا شَابَتْ النِّيَّةَ؛ أفْسَدَتْها، وذَهَبَتْ بركةُ العِلم؛ ولذلك يَتَعَيَّنُ على الطالب أن:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في أول كتاب الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم: (١).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١٨/ ١٩٢).

ـ يَحمِي نِيَّتَه من شَوْبِ الإرادةِ لغير اللهِ تعالى، ولا يرجو من وراء طلبِه هذا العِلمَ سِوَى وجهِ الله ﷻ والْجَنَّة.

ـ ويَتَجنَّبَ التَّكالُبَ على الدنيا وأعراضِها الزائلة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً، مِمَّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللهِ تعالى، لا يَتَعَلَّمُهُ إلَّا لِيُصِيْبَ عَرَضاً مِن الدُّنْيا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّة[١] يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

ـ لا يَطلُب العلمَ لِمِراءٍ أو رِياءٍ، وقال النبيُّ ﷺ: «لَا تَعَلَّمُوْا العِلْمَ لِتُبَاهُوْا بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوْا بِهِ السُّفَهَاءَ، ولَا تَخَيَّرُوْا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»[٣].

ـ ويُصلِحَ نفسَه ويُهَذِّبها بهذا العِلم.

ـ ويَعْمَلَ جاهداً على المحافظة على سُنَّة رسولِ الله ﷺ؛ وذلك بتعليمها للنَّاس ونشرِها فيهم.

ـ ويَسْأَلَ اللهَ التَّيْسِيْرَ والتَّوفيقَ فيما يَطلُبه.

ملاحظة:

ومِمَّا ينبغي التنبيهُ هنا: أن ليس معنى «الإخلاص» أنْ لا يَدْرُس الطالبُ لنَيْل شهادةٍ علميةٍ أو وظيفةٍ خشيةَ أن يتسبَّب ذلك ـ في نظره ـ بتَكَالُبه على الدُّنيا ومادياتها، بل يَدرُس بنِيَّةٍ أنه يَجعَل هدفَه من الشَّهادة

---

(١) عَرْفُ الجنة: أي: رِيحُها.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب العلم، باب: في طلب العلم لغير الله، برقم: (٣٦٦٤)، وهو حديث صحيح، انظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري، (١/ ١٥٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، برقم: (٢٥٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، (انظر «الترغيب والترهيب» للمنذري، (١/ ١٥٤).

والوظيفة والرَّاتِب استعمالها في رضوان الله تعالى، وفي خدمة دِينه وشرعِه، ونشر سُنَّةِ نبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام[١].

٢ ـ حفظُ القرآن الكريم:

إنَّ «القرآن الكريم» المصدرُ الأوَّلُ للتشريع الإسلامي، ومنبعُ العلوم والمعارف الإسلامية، ودستورُ حياة المسلمين؛ فينبغي أن يكون اعتناءُ الطالبِ بالقرآن قراءةً وحِفظاً وتدبُّراً قبل اعتنائه بكلِّ علمٍ وفَنٍّ.

ولأهمية ذلك قال الإمامُ النَّوَوِي (ت٦٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ: «أوَّلُ ما يَبتدِئ به [الطالبُ] حِفْظَ القرآنِ العزيز، فهو أهَمُّ العلومِ، وكان السَّلَفُ لا يُعَلِّمُون الحديثَ والفقهَ إلا لِمَن حَفِظَ القرآنَ الكريمَ»[٢].

كما أنَّ لحفظ القرآنِ الكريم فوائد عظيمة وفضائل جَمَّة، منها أنَّ حافِظَ القرآن:

١ ـ خيرُ الناس عند الله.

٢ ـ وشفاعةُ القرآنِ له.

٣ ـ والقرآنُ حُجَّةٌ له.

٤ ـ وهو مِن أهلِ الله وخاصته.

٥ ـ وهو في مرتبة الملائكة.

٦ ـ وهو أكثَرُ الناسِ حسناتٍ وأعظَمُهم ربْحاً يوم القيامة.

٧ ـ وهو أعلى الناسِ درجةً في الجنة.

٨ ـ ومُصاحَبة الملائكةِ له دوماً.

٩ ـ وإكرامُ والِدَيْه من أجله.

---

(١) «المنهاج الحديث في علوم الحديث»، للدكتور شرف محمود القضاة، ص: ٣٢.

(٢) انظر: مقدمة «المجموع»، للإمام النووي، باب: آداب المتعلم، (١/ ٦٤).

١٠ ـ وأنَّ الله يَذكُره في الْمَلأ الأعلى.

١١ ـ وهو يَأمَن من فتنة الدَّجّال، ويَأمَن عذابَ القبر.

وغيرُها من الفوائد الكثيرة والفضائل الشريفة التي وَرَدَتْ في كثير من الأحاديث النبوية[١].

ولكن الذي يَحفَظ القرآنَ الكريم؛ يَلزَم عليه أن يَتعاهَده خشيةَ نِسيانه، لقد حَثَّ النبيُّ ﷺ على ذلك، وحَذَّر من التَّهاوُن في ذلك، كما جاء في أحاديث عديدة، منها:

١ ـ عن عبد الله بن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»[٢].

٢ ـ وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تَعَاهَدُوْا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتاً مِنَ الإبِلِ فِي عُقُلِها»[٣].

والمعروفُ أنَّ الإبل إذا ذَهَبَتْ وتَفَلَّتَتْ من صاحبِها لا يقدر على الإمساك بها إلا بعد تعبٍ ومشقَّةٍ. فكذلك صاحبُ القرآن، إنْ لم يتعاهد حفظَه بالتكرار والمراجعة؛ انفلت منه واحتاج إلى مشقَّةٍ كبيرةٍ لاسترجاعه.

٣ ـ وعن عبد اللهِ بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «بِئْسَ

(١) انظر: «فضائل القرآن الكريم»، للحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) بتحقيق وتعليقات الشيخ أبي إسحاق الْحُوَيني.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده، برقم: (٥٠٣١).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب: الأمر بتعهد القرآن، برقم: (٧٩٠ و٧٩١).

مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: (نَسِيْتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ) بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّياً[١] مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ[٢]»[٣].

وغيرُ ذلك أحاديث كثيرة وَرَدَتْ في الزَّجْر عن نِسيان القرآن الكريم بعد حفظه[٤]، فعلى الطالب أن يعتني على الدَّوام بمُراجَعةِ حِفظه وتكرارِ تلاوته خشيةَ النِّسيان.

ملاحظة مهمة:

ومع حِفظ القرآنِ الكريم، ينبغي على الطالب أن يَقْرَأ تفسيراً مختصراً له؛ ليتفكَّر أثناء حفظِه له في معانيه، وأوامره، ونَواهِيه، ووَعْدِه، ووَعِيدِه، والوقوفِ على حدوده؛ لأنَّ رَبْط الحفظِ بالفهم يُيَسِّر له حفظَ القرآنِ. فكم مِن حُفَّاظه ـ للأسف ـ يَجهلُون الكثيرَ من معاني ألفاظِ وكلماتِ القرآن في السُّوَر القصيرة وهم يُرَدِّدُونها كُلَّ يوم في الصَّلوات، مِثل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ و﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ و﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ و﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ وغيرها[٥].

فعلى الطالب أن يَهْتَمَّ بقراءة ما تيسَّر له من الكتب المفيدة التي تُعينه

---

(١) تفصِّياً: أي: أشدّ خروجاً، يُقال: «تفصّيتُ من الأمر تفصِّياً»، إذا خرجتَ منه وتخلَّصت. (النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، (٢/ ٣٧٦).

(٢) النَّعَم: جمعُه «أنعام وأناعيم»، وهو: الإبلُ الحمراء، وهي من أعزِّ الأموال عند العرب.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده، برقم: (٥٠٣٢).

(٤) انظر في ذلك: كتاب «فضائل القرآن الكريم» للحافظ ابن كثير، بتعليقات محقِّقه الشيخ أبي إسحاق الْحُويني، ص٢١٧، ٢٢٢.

(٥) معالم في طريق طلب العلم، للشيخ عبد العزيز السدحان، ص١٩٥.

على معرفة معاني ألفاظ وكلمات القرآن الكريم وتفسيرِ آياتِه، مثل التي أذكرها فيما يلي:

أ ـ كتب في معاني القرآن الكريم:

«صفوة البيان لمعاني القرآن» للشيخ محمد حَسَنَيْن محمد مخلوف (ت١٤١٠هـ).

ب ـ التفاسير المختصرة للقرآن الكريم:

١ ـ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الْمَنَّان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدي (ت١٣٧٦هـ).

٢ ـ أو «تيسير العليِّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير» للشيخ محمد نَسِيْب الرِّفاعي (ت١٤١٣هـ).

٣ ـ أو «أَيْسَرُ التفاسير لكلام العليّ الكبير» للشيخ أبي بكر الجزائري.

٤ ـ أو «صفوة التفاسير» للشيخ محمد علي الصَّابُوْني.

فيَختار الطالبُ واحداً من هذه الكتب، ويُلْزِم نفسَه معرفةَ معاني وكلمات القرآن، وكذلك قراءةَ تفسيرِ السُّورةِ التي يَحفَظُها، أو قد حَفِظَها.

٣ ـ تَعَلُّمُ اللغةِ العربية وإتقانُها

كذلك مِمّا يَجِبُ على الطالب قَبْل إقدامه على طلب العلم الشرعي: أن يَعْتَنِي كُلَّ الاعتناءِ بتعلُّم اللغةِ العربية ثم إتقانِها، وهي اللغةُ الَّتي نَزَل بها القرآنُ الكريمُ، وتكلَّم بها الرسولُ ﷺ، ولا يخفى على ذي لُبٍّ ما لهذه اللغةِ من أهميةٍ عظمى في ديننا؛ فالذي ليس لديه تأسيسٌ لهذه اللغةِ لا يستطيع تَلَقِّيَ أيِّ علمٍ من العلوم الشرعية، يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «مَعْرِفَةُ العربيَّةِ الَّتي خُوطِبْنا بها مِمَّا يُعِين على أنْ نَفْقَهَ

مُرَادَ اللهِ ورسولِه بكلامِه»[١].

وقال الإمامُ الشَّاطِبِيُّ (ت٧٩٠هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «على النَّاظِرِ في الشريعةِ، والمتكلِّمِ فيها أصولاً وفروعاً أمران؛ أحدهما: ألا يتكلَّمَ في شيءٍ من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعربي؛ في كونِه عارفاً بلسان العرب»[٢].

فعلى الطالب أن يَحرِص على إتقان هذه اللغة؛ ليُحسِن فِقْهَ الدين وأحكامه، وليبتعد عن اللَّحْنِ في اللَّفْظ والكَتْبِ، «فإنَّ عدمَ اللَّحْنِ جلالةٌ، وصفاءُ ذوقٍ، ووقوفٌ على مِلاح المعاني لسلامة الْمَبانِي»[٣].

ولقد وَرَد ذَمٌّ شديدٌ على لسان السَّلَف للذي يُقبِل على قراءة الحديث النبوي وهو غيرُ مُلِمٍّ بالعربية، قال الإمامُ شُعْبَة بن الْحَجَّاج (ت١٦٠هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «مَن طَلَب الحديثَ فلم يُبصِر العربيةَ؛ فمِثله مِثل رَجُلٍ عليه بُرْنُسٌ[٤]، وليس له رأسٌ»[٥].

وقال الإمامُ حَمَّاد بن سَلَمَة (ت١٦٧هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «مثلُ الذي يَطلُب الحديثَ ولا يَعرِف النَّحْوَ، مثل الحمارِ عليه مِخْلاةٌ[٦] لا شَعِيرَ فيها»[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢/ ١٠٢).
(٢) الاعتصام، للإمام الشاطبي، (٣/ ٣٦١، ٣٦٢).
(٣) العبارة بين القوسين للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد في كتابه «حلية طالب العلم»، ص: ٨١.
(٤) قلنسوة طويلة، وكان النُّسّاك يَلبِسونها في صدر الإسلام. (انظر: «مختار الصحاح» للرَّازي).
(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٦)، برقم: (١٠٧٣).
(٦) هي ما يُجعَل فيه العلفُ ويُعلَّق في عُنق الدَّابة.
(٧) المصدر السابق: (٢/ ٢٦)، برقم: (١٠٧٤).

فليَنظُر الطالبُ كيف كانت لدى السَّلَف ـ رحمهم الله تعالى ـ كراهيةٌ شديدةٌ تِجاه الجهلِ بالعربية وظاهرةِ اللَّحْن، وحَضٌّ شديدٌ على اكتساب العربيةِ والتفقُّهِ في مواردها، فعليه أن يَحرِص كُلَّ الحرصِ على تعلُّم هذه اللغةِ وإتقانها[١]، فإنَّ تعلُّمها «فرضٌ على الكِفاية» كما قال ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ[٢]، وكذلك إنَّ «تعلُّمها يَزِيْد في الْمُروءة» كما قال عُمَرُ بن الخطّاب رضي الله عنه[٣].

أمور لا بُدَّ من الاعتناء بها:

وبعد تعلُّم الطالبِ اللغةَ العربيةَ بأصولها وقواعدها؛ لا بُدَّ له من الاعتناء بأمور هي في غاية الأهمية، أذكرها تحت العناوين التالية:

أولاً: البحث عن المعنى الدقيق للكلمة اللُّغَوِيَّة:

يجب على الطالب أن يكون حريصاً على البحث عن المعنى الدقيق في اللغة العربية، وخاصةً للكلمة القرآنية أو النبوية، وأن لا يَقتنِع بمعناها المتبادر إلى الذِّهْن حين سماعها، فإنَّ ذلك لا يُوصِل الطالِبَ إلى المعنى الصحيح للآية الكريمة، أو الحديث الشريف، أو الشاهد الشِّعْري، أو غيرِ ذلك.

وللعلماء خلافٌ كبيرٌ: هل في اللغة العربية تَرادُفٌ، أو لا بُدَّ من وجود فرقٍ جَلِيٍّ أو خَفِيٍّ بين كلمةِ كذا وكلمةِ كذا؟. وأيّاً كان الرَّاجِحُ

---

(١) ومما يُنصَح للطالب قبل أن يشرع دراسة العلوم الشرعية: أن يقرأ ـ على الأقلّ ـ «النحو الواضح في قواعد اللغة العربية» و«شذى العرف في فن الصرف»، و«البلاغة الواضحة»، وهي كتب مفيدة جداً في العلوم الآلية للمبتدئين فيها.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٨/ ٣٤٣).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٥)، برقم: (١٠٦٧).

منهما، فإنَّ مما يُفيد الطالِبَ أن يَفترِض وجودَ فرقٍ بين هاتَيْن الكلمتَيْن، فيَبحَث عن المعنى الدقيق لكلٍّ منهما؛ ليتذوَّق المعنى الدقيقَ ـ أو المعنى الصحيح ـ لهذه الآية أو لهذا الحديثِ.

وهناك الكثيرُ من الكلمات بالعربية لا يعرف الكثيرون معانيها الدقيقة، وعلى سبيل المثال لا الحصر كلمةُ «اللُّبّ»، فإنَّ معناها: ليس العقل فقط كما يتبادر إلى الذِّهْن، بل العقل الخالص من المؤثِّرات الخارجية، والشَّهوات العارضة للإنسان، لذلك حين مَدَح الله ﷻ المؤمنين فمدحهم بهذه الصِّفة: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ولم يَمْدَحهم بصفة: «أُولِي العقل».

وكذلك كلمةُ «صَنَع كذا»، وكثيرٌ مِنّا مَن يتبادر إلى فهمه حين يقرأ هذه الكلمةَ في آيةٍ أو في حديثٍ أنَّ معناها: «فَعَل كذا»، في حينٍ أنَّ «صَنَع» تُفيد معنى «فَعَلَ الشيءَ مع الإتقان له والجودة»، فقوله تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]، معناه: ـ والله تعالى أعلَمُ بالمراد ـ: أنه كان يَصنَع الفُلْكَ صنعاً مُتقَناً؛ لأنه سيُقاوِم أمطاراً غزيرةً وسيولاً جارفةً ستُغرِق الأرضَ كُلَّها! وما إلى ذلك من أمثلة وشواهد كثيرة.

وأقرَبُ ما يُستعان به على معرفة ذلك من الكتب: «مفردات ألفاظ القرآن» للإمام حسين بن محمد الرَّاغِب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» للإمام ابن الأثير الْجَزَرِيّ (ت٦٠٦هـ)، فهما الكتابان اللَّذان لا ينبغي لطالب العلم أن يُفارِقهما حِلّاً وتَرْحالاً[1].

ثانياً: الضبطُ والإتقانُ في القراءة:

---

(١) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، للشيخ محمد عوامة، ص٣٢٧، ٣٢٨، بتصرف واختصار.

ومن الْمُهِمِّ أيضاً في هذا الباب: أن يتعوَّد الطالبُ على ضبط الكلمة اللُّغَوِيَّة، أو اسمِ العَلَم فوراً، ولا يسوِّف ولا يُمهِل، فإذا تعوَّد لسانه مِن أوَّل الأمر على نُطْق الكلمةِ أو العَلَم على الوجه الصحيح؛ استقام لسانه على ذلك مدى حياتِه، ولن يَتَلَكَّأ فيها بَعْدُ[١].

ثالثاً: الحرص على تجويد القراءة:

كما يجب على الطالب أن يَحرِص دائماً على أن تكون قراءتُه مُجَوَّدةً، فإنَّ «التجويد» مِن أكبر مَحَاسِن الكلام، وأعظمِ مَظاهِر الفصاحة، ومن أهَمِّ مُقْتَضَيات اللغةِ العربيةِ، ورسولُنا ﷺ لم يَنطِق بكلمةٍ إلَّا مُجَوَّدَةً، فمَنْ تكَلَّم بحديثه فعليه بمراعاة ما نَطَقَ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

رابعاً: الاعتناء بضبط العبارة وتحريرها:

كما يجب على الطالب أن يعتني دوماً بإتقان قراءة العبارة لُغَوِيّاً ونَحْوِيّاً، وفهمِها وحَلِّها، بل تحليلِها، وإعادةِ الضَّمائر التي فيها، وتعيينِ كلِّ ضميرٍ ورابطِه، ثم تحقيقِ معنى العبارةِ كاملةً[٣].

خامساً: كثرةُ النظر في القواميس:

وكذلك ينبغي للطالب أن يُكثِر النظرَ في القَوامِيس أو المعاجم اللُّغَوية لمعرفة معنى الكلمة، ومعرفةِ أصلها، ومعرفةِ الضَّبْطِ الصَّحيحِ لها، ومعرفةِ الصِّياغات المختلفة لها. ومِن أنفع المعاجم القديمة: «القاموس المحيط»

---

(١) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، للشيخ محمد عوامة، ص٣٢٩، ٣٣٠، بتصرف.

(٢) انظر: «قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث»، للشيخ جمال الدين القاسمي، ص: ٢٤٥.

(٣) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، للشيخ محمد عوامة، ص ٣٣٢، بتصرف.

للإمام مَجْد الدين الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، ومن الحديثة: «المعجم الوسيط»، و«المعجم العربي الأساسي».

٤ ـ التَّحَلِّي بِمَكارِمِ الأخلاق

«الْمَكارِمُ» هي حالٌ في النَّفْس راسِخةٌ تَصْدُرُ عنها أفعالُ الخيرِ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ.

أمَّا «الأخلاق» فهي حالٌ في النَّفْسِ راسِخةٌ تَصْدُرُ عنها الأفعالُ من خيرٍ أو شَرٍّ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ[١].

واتِّصافُ الْمَرْءِ بمكارم الأخلاق أمرٌ محبوبٌ عند الله ﷻ، كما وَرَد في حديثٍ رواه سَهْلُ بن سَعْد الأنصاري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ كَرِيْمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا»[٢].

وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ على الاتِّصاف بهذه الصفةِ الكريمةِ (أي التحلِّي بمكارم الأخلاق) في حديثٍ آخر له، والذي رواه عنه أبو ذَرٍّ الغِفَاري رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»[٣].

فيجب على الطالب أن يتحلَّى بمكارم الأخلاق، ويتجنَّب سيِّئَها

---

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص١٣٦، و«موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»، للتهانوي، (١/ ٧٦٢، ٧٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (١/ ١١١)، برقم: (١٥١) بإسناد صحيح، انظر هامش الكتاب.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن، في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، برقم: (١٩٨٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وردِيئَها، قال الإمامُ أبو عاصم النَّبِيْل (ت٢١٢هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن طَلَبَ هذا الحديثَ[(١)]؛ فقد طَلَبَ أعلى أمورِ الدِّينِ، فيَجِبُ أن يكون خَيْرَ النَّاسِ»[(٢)].

فعلى الطالب أن يَجعَل لِمَا يتعلَّم من الحديث النبوي والعلومِ الشرعيةِ واقِعاً عَمَلِيّاً في حياته الخاصَّة والعامَّة، وأن يُجاهِد نفسَه مِن أوَّل الطريقِ أوَّلاً بأوَّلٍ ليُرَبِّيَ نفسَه على الالتزام بالإسلام التزاماً عملياً، حتى تُصبح قِيَمُ الإسلامِ وآدابُه جُزءاً لا يَتَجَزَّأُ من حياتِه.

٥ ـ التأدُّبُ مع الخالِق الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ:

ومع مخلوقاته الكِرام من الأنبياء والصَّحابة والأئمَّة والعلماء.

«الأدب» عبارةٌ عن: حُسْن أخلاقِ الْمَرْءِ، واجتماعِ الخِصال الحميدة فيه، وحُسْنِ أحوالِه في قيامه وقعوده، وتعظيمِه مَن فوقه، ورِفْقِه بمَن دُونه، ووُقوفِه مع الْمُستَحسنَات، وغير ذلك[(٣)].

لذلك فقد قَرَّر العلماءُ أنَّ تعلُّمَ الأدبِ، وحُسْنَ السَّمْتِ مَطْلَبٌ شرعيٌّ.

ولِعِظَمِ مقامِ الأدبِ ومكانِه؛ فإنهم أَوْلَوْهُ اهتماماً عظيماً، وكان طلبُه مُقَدَّماً عندهم على طلب العلم، فجَدُّوا في طلبه لأنفسهم، ونصحوا به طُلَّابَهم، وأَمَرُوا به أبناءهم، وجعلوه مَطْلَباً أساسيّاً قبل العِلم، إذْ كلُّ عِلمٍ بلا أدبٍ لا منفعةَ فيه، وإقبالُ الطالبِ على العِلم بإعراضه عن تَعَلُّمِ الأدبِ؛ يُنشِىء فيه أغراضاً غيرَ مرضيةٍ، منها:

١ ـ التَّهَجُّمُ على العُلماء.

---

(١) أي حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) علوم الحديث، لابن الصلاح، النوع الثامن والعشرون، ص٢٤٦.

(٣) انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص٢٩، و«موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»، للتهانوي، (١/ ١٢٧، ١٢٨).

٢ ـ والتَّطَاوُلُ على الفضلاء.

٣ ـ واعتداءٌ على المعلِّمين والمربِّين بالأقوال والأفعال.

٤ ـ وسوءُ الأخلاق.

٥ ـ وشُذوذُ السُّلوك.

٦ ـ وعُقوقُ الوالِدَين.

٧ ـ والتَّقلِيدُ الأعمى في الْهَيْئَة واللِّبَاس.

وغيرُ ذلك أمورٌ كثيرةٌ يُخشى أن تَنشَأ في الطالب إنْ لم يُقبِلْ على تعلُّم الأدبِ قبل تعلُّمِ العِلم.

ولذا كان السَّلَفُ حَريصِين شديدَ الحرصِ على تعليم أولادِهم وتلاميذِهم الأدبَ قبل العِلم، يقولُ إمامُ دارِ الهجرة مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) «كانت أُمِّي تُعَمِّمُني، وتقول لي: «اذْهَب إلى رَبِيْعَة[1] فتعلَّمْ من أدبِه قبل عِلمه»[2]، ويقول ـ رحمه الله ـ لفَتىً من قُرَيْش: «يا بن أخي! تَعَلَّم الأدبَ قَبْلَ أنْ تَتَعَلَّمَ العِلْمَ»[3].

وقال الإمامُ عبدُ الله بن الْمُبارَك (ت١٨١هـ) ـ رحمه الله ـ: «لا يَنْبُلُ الرَّجُلُ بنَوعٍ من العلوم ما لَمْ يُزَيِّنْ عِلْمَهُ بالأدَبِ»[4]، وقال: «كادَ الأدبُ يَكُوْنُ ثُلُثي العِلم»[5].

---

(١) هو ربيعة بن فرّوخ التيمي المدني، المعروف «ربيعة الرأي» إمام حافظ، وفقيه مجتهد. توفي سنة ١٣٦هـ. انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي، (١/ ١٤٨).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، (١/ ٣١).

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، (٦/ ٣٣٠).

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي، (٢/ ٢٦٠).

(٥) صفة الصفوة، لابن الجوزي، (٤/ ١٢٠).

وقال الإمامُ المحدِّث المفسِّر أبو زكريا يحيى بن محمد العَنْبَري (ت٣٤٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «علمٌ بلا أدبٍ كنارٍ بلا حَطَبٍ، وأدبٌ بلا علمٍ كروحٍ بلا جِسْمٍ»(١).

فينبغي للطالب أن يكون حريصاً على التحلِّي بسُمُوِّ الأدب، وجَمِّ التواضُعِ، وكثرةِ التعظيم والإجلال مع الخالق الرَّبِّ ﷻ، ومع مخلوقِه من الأنبياء والصحابة، والأئمة والعلماء، أمّا كيفيةُ التأدُّبِ معهم فسيأتي الحديثُ عن ذلك.

أولاً: الأدبُ مع الله ﷻ:

إنَّ مِن أَوْجَبِ الواجبات على المسلم تِجَاهَ ربِّه ﷻ، أن يَقْدِرَه حَقَّ قَدْرِه، ويُعَظِّمَه حَقَّ تعظِيمِه، ويَحْمَدَه كما يَنبغِي لِجَلال وجهِه وعظيم سُلطانِه، لقد خَلَقَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأَنْشَأَنا من عَدمٍ، وأَنْعَمَ علينا بنِعَمٍ كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ظاهرةً وباطنةً، وأَسْبَلَ علينا سِتْرَه وحِفْظَه؛ ومن أجلِ ذلك يجب علينا أن نتأدَّب مع خالِقنا الْمُنعِم والمتفضِّل علينا، بأن نَطيع أوامره، ونتجنَّب نَواهِيه، وأن نُنَزِّهَه عن كل ما لا يليق بجلاله.

فمِن الأدب مع الله ﷻ، أنْ لا يَذكُر الطالبُ اسمَه إلَّا ويُثني عليه بِما هو أهلُه، أو يُنَزِّهُهُ، أو يُقَدِّسُه، ويُضيف إلى اسمه مثل هذه الكلمات: «عَزَّ وجَلَّ»، و«تَبَارَكَ اسْمُه»، و«جَلَّتْ عَظَمَتُه»، و«سُبْحَانَهُ وَتَعَالى» وما أشبه ذلك من الكلمات.

وهذا مِن الأدب مع الله تبارك وتعالى، وهو ثمرةٌ من ثِمار هذا العلم؛

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ٨٠)، برقم: (١٢).

فإنه يُورِثُ العبدَ الخشيةَ من اللهِ جلَّ شأنُه، والتي تَنْشَأُ فيه عن استعظام اللهِ سبحانه، وكُلَّما ازداد العِلمُ؛ ازدادتْ في طالبه الخشيةُ من الله تعالى(١).

ثانياً: الأدبُ مع الرسول ﷺ:

إنَّ حَقَّ النبيِّ الكريم والرسولِ الأعظم محمَّد بن عبد الله ـ عليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ التَّسليمِ ـ على أُمَّته عظيمٌ، وفضلُه عليهم كبيرٌ، فبه أُخرِجوا من الكُفر إلى الإسلام، ومن أسباب الشَّقَاء إلى أسباب السَّعادة، ومن مُوجِبات النَّار إلى موجبات الْجَنَّة.

وكان ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ رحيماً بأُمَّته، حريصاً عليهم، يَعِزُّ عليه ما يَشُقُّ عليهم كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولذا كان ﷺ يترُك العَمَلَ وهو يُرِيده، خشيةَ أن يُفرَض عليهم فلا يُطِيقُونه، ويَتأَلَّمُ لأَلَمِهم، ويَصبِر على أذاهم، ويَفرَح بهدايتهم، ويَخشَى عذابَهم، ويَدعُو لهم، كما رَوَى عبدُ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا قولَ اللهِ عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرَفَع ﷺ يَدَيْه وقال: «اللَّهُمَّ! أُمَّتِيْ أُمَّتِي»، وبَكَى. فقال اللهُ عز وجل: يا جِبريل! اذْهَبْ إلى محمَّد ـ وربُّكَ أعْلَمُ ـ فسَلْهُ ما يُبكِيكَ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسَأَله، فأخبره رسولُ الله ﷺ بما قال ـ وهو

---

(١) انظر: «إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سُنَن خير الخلائق ﷺ»، للإمام النووي، ص١٤٥، و«قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث»، للشيخ جمال الدين القاسمي، ص٢٤٥.

أَعْلَمُ - فقال الله: يا جبريل! اذْهَبْ إلى محمَّدٍ فقُلْ: إنَّا سَنُرْضِيْكَ في أُمَّتِكَ ولَا نَسُوْءُكَ»(١).

وفي روايةٍ: إنَّ ذلك كان في صلاة الكُسُوْف، وأنَّ النبي ﷺ: نَفَخ في آخر سُجودِه فقال: «أُفْ أُفْ»، ثم قال: «ربِّ! أَلَمْ تَعِدْنِي أنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وأنا فِيْهِمْ؟! أَلَمْ تَعِدْنِي أنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ؟!»(٢).

إنَّ لكلِّ نبيٍّ من الأنبياء - عليهم السلام - دعوةً مُسْتَجابةً، دَعَوْا ربَّهم فاستجابَ اللهُ تعالى دعواتِهم، وأعطاهم مسائلَهم، إلَّا رسولنا ﷺ فإنه ادَّخَرَ دعوتَه شفاعةً لأُمَّته في مَوقِفٍ هم أحوَجُ ما يكونون لشفاعته، فصلواتُ ربِّي وسلامُه عليه صلاةً وسلاماً دائمين ما تعاقَبَ اللَّيل والنهار.

وإنَّ نبيّاً بَلَغ حِرصُه علينا، ورَحْمَتُه بنا هذا الْمَبلَغَ؛ لَحريٌّ بنا أن نُؤمِن به ونُصَدِّقه، وأن نُعزِّرَه ونُوَقِّرَه، وأن نَتَّبِعَه ونُطِيْعَه، وأن نُحِبَّه أشَدَّ مِن مَحَبَّتنا لأنفُسنا وآبائِنا وأمهاتِنا وأزواجِنا وأولادِنا وأموالِنا، فهو - عليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ التسليمِ - بفضل الله تعالى سببُ هدايتِنا ونجاتِنا، وأعظَمُ خيرٍ بَلَغَنا - وهو الإيمان - إنما بَلَغَنا عن طريقه، وأعظَمُ شَرٍّ خِفْناه - وهو الكُفر - إنما جانَبناه؛ لأنه ﷺ حَذَّرَنا منه، ومَن ماتَ منا على الإيمان فقد نال الجنّةَ والرضوان، فما نال ذلك إلا بسبب هذا النبيِّ الهادي والرسول الكريم ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، برقم: (٢٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب صلاة الاستسقاء، باب: من قال يركع ركعتين، برقم: (١١٩٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٣) بتصرف واختصار من مقال الشيخ إبراهيم بن محمد الحقيل، المشور في مجلة =

فهل تَرَى أيها الطالبُ ـ لأحدٍ حَقّاً عليك ـ بعد حقِّ الله ﷻ أعظَمُ مِن حقِّ نبيِّنا محمّد ﷺ، بآبائنا هو وأمهاتنا وأولادنا وأموالنا؟ لا، وألف لا. فالواجبُ عليك أن تتأدَّب مع رسول الله ﷺ، وذلك بأن تُصَلِّيَ وتُسَلِّمَ عليه كُلَّما ذُكِر، فتقول: «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، أو «عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ» بكمالِها لا مقتصراً على أحدها فقط، فلا تقول: «عليه الصَّلاةُ» أو «عَلَيْهِ السَّلَامُ»، بل تَذكُرها بكمالها وإن لم يكن موجوداً في الأصل الذي تَقْرَأ منه، فإنه دعاءٌ يُثبته وليس روايةً(١).

كما أنَّ في صلاة المسلم وتسليمه على الرسول ﷺ: اقتداءٌ بالله ﷻ، وملائكتِه الكِرام عليهم السلام، واستجابةٌ لأمر الله تبارك وتعالى، واعترافٌ بفضل رسول الله ﷺ علينا، وتقديرٌ لِمَا بَذَله ﷺ من أجل الأُمَّة وحرصُه عليها، ورغبةٌ في ثواب الله ﷻ.

ثالثاً: الأدبُ مع الصحابة رضي الله عنهم:

«الصحابةُ» رضي الله عنهم هم أصحابُ أفضَلِ الرُّسُلِ، وخاتِمُ الأنبياءِ: محمَّد بن عبد الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وكانوا خيرَ هذه الأمَّةِ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهم السَّابقون إلى الإيمان والْهِجرة والاتِّباعِ كما في قوله ﷻ:

= «الجندي المسلم» في عددها (١٣١) سنة ٢٠٠٨م، بعنوان: «توقير السلف للنبي ﷺ».

(١) انظر: «إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سُنَن خير الخلائق ﷺ»، للإمام النووي، ص١٤٤، و«قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث»، للشيخ جمال الدين القاسمي، ص٢٤٥.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهم السَّابقون إلى الْجِهاد والنُّصْرَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨].

وهم الذين صَدَّقُوا النبيَّ ﷺ حين كَثُرَ الْمُكذِّبون، واتَّبعوه إذْ قَلَّ الْمُتَّبِعون، وتحمَّلوا في سبيل ذلك هَجْرَ الأوطان، ومُفارَقَةَ الأهل والوِلْدَانِ، ومُعادَاةَ العشيرة والْخِلَّانِ، ومهما عَمِلَ مَن بعدهم فلن يَبلُغوا مَبْلَغهم، ولن يَحُوزُوْا فَضْلَهم، أو يُدرِكوا سَبْقَهم؛ ولكنهم يَلحقُون بهم في الفوز والْجَنَّة لا في الفضل والدرجة، وفي هذا يقول النبيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوْا أَصْحَابِيْ، لَا تَسُبُّوْا أَصْحَابِيْ، فَوَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً؛ مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، ولَا نَصِيْفَهُ»(١).

وقال ﷺ: «الله الله فِي أَصْحَابِي! لا تَتَّخِذُوْهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهم فَبِبُغْضِي أبْغَضَهم، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِيْ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله، وَمَنْ آذَى الله يُوْشِك أنْ يَأْخُذَه»(٢).

فإنَّهم رضي الله عنهم أعظَمُ هذه الأمَّةِ بعد نبيِّها ﷺ إيماناً ويقيناً، وأكثَرُهم تضحيةً وبذلاً، فاسْتَحَقّوا ما نالوا بفضل الله تعالى عليهم، ورحمتِه بهم، واصطفائِه لهم؛ ليكونوا أحبابَ خاتمِ أنبيائه وأفضلِ رُسُلِه، عليه الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب: تحريم سبّ الصحابة، برقم: (٢٥٤٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب المناقب، باب: فِي من سب أصحاب النبي ﷺ، برقم: (٣٨٦٢)، عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

وبهم، وبفضلِهم، وَصَلَتْنا هذه المجموعةُ الْهائِلَةُ الضَّخْمَةُ من أحاديث النبيِّ ﷺ بأمانةٍ ودِقَّةٍ ليس لها نظيرٌ في تاريخ النَّقْلِ والرِّوَاية[١].

فيجب على الطالب أن يتأدَّب مع الصحابة ﷺ كُلَّما ذُكِرُوا، ويترضَّى عنهم[٢]. فإذا ذُكِرَ أحدُهم فيقول: «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» بعد اسمه، كذلك إذا كانت صحابية يقول: «رَضِيَ اللهُ عَنْهَا».

وإنْ كان صحابيٌّ ابنَ صحابيٍّ[٣] فيترضَّى عنه وعن أبيه فيقول: «رضي الله عنهما»، ويقول هكذا إن كانت صحابِيَّةٌ بنتَ صحابِيٍّ أو صحابيَّةٍ[٤].

وإنْ كان صحابيٌّ أكثرَ من اثنَين فيترضَّى عنهم ويقول: «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ». وكذلك إنْ كانت صحابيَّةٌ أكثر من اثنتَين فيترضَّى عنهن ويقول: «رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ».

ولا ينبغي للطالب أن يَسْأَمَ مِن تَكْرار ذلك مهما تَكَرَّرَ فيما يقرؤه أو يسمعه، فإنَّهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ، وقد شَرَّفَهم اللهُ بصُحبةِ نبيِّه وحبيبه ﷺ، وقد بَذَلُوا في حياته ﷺ وبعد مَماتِه كُلَّ الغالي والثمين في نشر هذا الدِّيْنِ، وجاهدوا في سبيله بالنَّفْس والنَّفِيس.

رابعاً: الأدبُ مع الأئمة والعلماء:

«العلماءُ» هم وَرَثَةُ الأنبياءِ، وأصحابُ الفضل والكمال، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو الدَّرْداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ

---

(١) إقرأ في ذلك رسالة «الصحابة وجهودهم في خدمة الحديث النبوي»، للدكتور السيد محمد السيد نوح.

(٢) يعني أن يقول لهم: «رضي الله عنه».

(٣) مثل: عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما.

(٤) مثل: عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما.

الأَنْبِيَاءِ»[١]، فهم الْمُؤتَمَنُون على دعوة السَّماء بعد الرُّسُل الكِرام، يُعَلِّمون الجاهلَ، ويُرشِدون الضَّالَّ، ويُقَوِّمون الْمُنحرِفَ الْمِعْوَجَّ، وهم أهلُ الخشيةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وهم أهلُ التَّقوى والإخبات إلى ربِّ البَرِيّات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

فمَن عادَى العلماءَ فهو مُعَادٍ لله، وقد آذَنَه اللهُ بالحرب، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»[٢]، قال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ) ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديثِ: «المرادُ بوَلِيِّ الله: العالِمُ باللهِ، الْمُواظِب على طاعته»[٣].

فعلى الطالب أن يتأدَّب مع الأئمة والعلماء وسائرِ الأخيار؛ ويَتَرَحَّمَ[٤] عليهم كُلَّما ذُكِرُوا، ويَذكُرهم بالخير من باب معرفةِ الفضلِ لأهلِه، وتقديراً للجُهود التي قاموا بها من أجل الْمُحافَظة على دين الله تعالى، وبَذَلُوا الغالِي والثمين، وهَجَروا الأهلَ والأوطانَ مِن أجل نشر الدين والعلم[٥].

كما أنَّ في احترامِ علماءِ الإسلامِ وتوقيرِهم دلالة على صِحَّة إيمانِ الأمَّةِ، وسلامةِ إسلامِها، فالأمَّةُ التي لا تقدِّر علماءَها، ولا تَجعَلُهم في

---

(١) سبق تخريجه في صفحة ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب: التواضع، برقم: (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، (١٤/٤١٦).

(٤) يعني أن يقول إذا مَرَّ به ذكرُهم: «رحمه الله».

(٥) اقرأ في ذلك: «الرحلة في طلب علم الحديث»، للحافظ الخطيب البغدادي، و«صفحات من صبر العلماء»، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، رحمهما الله تعالى.

أَسْمَى وأعْلَى مكانة؛ هي أَمَّةٌ لديها خَلَلٌ في تفكيرها، وتراجُعٌ في قِيَمها ومبادئها وأخلاقها.

٦ ـ التَّجَنُّبُ من الغُرُوْر والكِبْر والحياء، والتَّحَلِّي بالتَّوَاضُع:

«الغُرُوْرُ» هو شعورٌ بالعَظَمة وتَوَهُّمٌ بالكمال، وهو العُجْبُ الكاذب، واعتقادُ الشيء نافعاً وهو عكس ذلك، وهو يُعتبَر مِن أكثر الآفات البشرية ضرراً بالإنسان. كما أنه في حدِّ ذاته أنانيةٌ مُطلَقةٌ تامّةٌ؛ لأن الإنسان هنا لا يرى إلا نفسَه، ولا يَهُمُّه إلا مصلحته وتحقيق رغباته.

أمّا «الكِبْرُ» فهو فيما يتعلَّق بعلاقة الإنسانِ بالآخرين أنه يَزدرِيهم أو يَحتقِرهم[١]، فقد قال النبيُّ ﷺ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[٢]، وهو مِن أمراض القلب الخبيثة، قال الإمام ابن قَيِّم الْجَوْزِيّة (ت٧٥١هـ) ـ رحمه الله ـ: «الكِبْرُ أثرٌ من آثار العُجْبِ والبَغْي من قلبٍ قد امتلأ بالجهل والظُّلْم، تَرَحَّلتْ منه العُبوديةُ، ونَزَل عليه الْمَقْتُ»[٣].

لقد ذَمَّ النبيُّ ﷺ صاحِبَ الكِبْرِ، فقال فيه: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِيْ قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[٤].

لذلك يجب على الطالب أن يتجنَّب الكِبْرَ، فإنَّه داءٌ خطيرٌ يَعُوقه عن تحصيل العِلم.

---

(١) انظر: «موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»، للتهانوي، (٢/١٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) الروح، لابن قيم الجوزية، ص٢٣٥.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

أمّا «الْحَياءُ» فهو انكسارٌ وتغيُّرٌ يَعْتَرِي الإنسانَ من تخوُّف ما يُعاب به أو يُذَمّ[١]، وهي صفةٌ محمودةٌ كما قال النبي ﷺ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[٢].

وفي حديث آخر: «الْحَياءُ لا يَأْتِيْ إلَّا بِخَيْرٍ»[٣].

لكن تُعَدُّ هذه الصفةُ مذمومةً إذا كانت مانعةً للطالب من تزوُّده بالعِلم؛ لأنَّ الحياء قد يمنعه عن حصول الخير الكثير الذي يَحصُل له بالطلب والسؤال من أساتذته وشيوخه، لا سيما إذا اتَّفَقَ له ذلك مِمَّن كان دُونه في السِّنّ والنَّسَب والمكانة، لذلك قال الإمامُ وَكِيعُ بن الْجَرَّاح (ت١٩٧هـ) ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «لا يَنْبُلُ الرَّجُلُ مِن أصحاب الحديثِ حَتَّى يَكتُب عَمَّن هو فَوْقه، وعَمَّن هو مِثْلُه، وعَمَّن هو دُوْنَه»[٤].

وهذه هي سُنَّةُ المحدِّثين، فقد رَوَى الأكابِرُ ـ عِلْماً وسِنّاً ـ عن الأصاغر ـ عِلْماً وسِنّاً ـ ولم يكن ذلك قادحاً في الأكابر؛ بل عُدَّ مِن مناقبهم. فقد رَوَى الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم عن بعضهم، كما رَوَوْا عن تابِعِيْهم[٥].

أمّا «التَّواضُعُ» فهو انكسارُ القلبِ للرَّبِّ جلَّ وعَلا، وخفضُ الجناحِ

---

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص١٢٦، و«موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»، للتهانوي، (١/ ٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، برقم: (٣٧)، عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب: الحياء، برقم: (٦١١٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، برقم: (٣٧)، عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) علوم الحديث، لابن الصلاح، النوع الثامن والعشرون، ص ٢٤٩.

(٥) اقرأ ما ذكرتُه في ذلك في كتابي «الميسَّر في علم الرجال» في مبحث «معرفة المخضرمين»، ص١٠٢، ١٠٣، طبعة دار الشاكر بماليزيا.

والذُّلِّ، والرحمةُ للعباد[١]، وهو خُلُقٌ حَميدٌ، وجوهرٌ لطيفٌ، وهو من أخَصِّ خِصَال المؤمنين المتَّقين، ومن كريم سَجايا العاملين الصَّادقين، كما أنه مِن أبرز أخلاق نبيِّنا محمد ﷺ.

فينبغي أن يكون الطالبُ متحلِّياً بهذه الصفة الكريمة، ويكون خافِضَ جَنَاحَيْه لشُيوخِه وأساتذته الذين يَأخُذ عنهم العِلمَ حتَّى يَنتفِع بعلمهم.

لقد وَرَدَتْ أحاديث كثيرة في الحثِّ على التحلِّي بهذه الصفة، ومنها ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَفْخَر أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[٢]، فأفاد هذا الحديثُ بوجوب التَّواضُع، وعدمِ التَّفاخُر، والاعتداءِ على الناس.

ولكن ينبغي للطالب أن يَعلَم أنَّ «التَّواضُع الواجب المحمود» هو ما كان لله ولرسولِه، ولعلماءِ الأمة وأفرادِ الناس فقط إذا قُصِد بذلك وجهُ اللهِ تعالى، ومَن كان كذلك؛ أعلى اللهُ قَدْرَه، وطَيَّب ذِكرَه[٣]، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[٤]. وقال الإمام النوويُّ (ت٦٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديثِ: «فيه وَجْهان: أحدُهما: يَرفَعه اللهُ في الدُّنيا، ويُثبِّت له بِتَواضُعه في القلوبِ

(١) انظر: «موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»، للتهانوي، (١/ ٧٢١).
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يُعرَف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم: (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار رضي الله عنه.
(٣) أمَّا التواضُع لأهل الظلم فذلك الذُّلُّ الذي لا عزَّ فيه.
(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر، باب: استحباب العفو والتواضع، برقم: (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مَنْزِلةً، ويَرفَعه اللهُ عند الناسِ ويُحلّ مكانَه. والثاني: أَنَّ المرادَ ثوابُه في الآخرة، ورَفْعُه فيها بتَواضُعه في الدُّنيا»[١].

فيجب على الطالب: أن يَتَحلَّى بهذه الصِّفة الكريمة التي تَتهذَّبُ بها النفسُ ويَرِقُّ بها القَلْبُ، فيَعظُم له الأَجْرُ وتَتِمُّ له الرِّفْعَةُ في الدُّنْيَا والآخرة، فعليه أن يكون متواضعاً لشُيوخه وأساتذِته الذين يَأخُذ عنهم العِلمَ، ولو كان منهم مَن هو أَصْغَرَ منه سِنّاً، أو أقلَّ منه شُهْرَةً، أو أَفْقَرَ منه مالاً؛ لأنَّ مقصودَه طَلَبُ العِلْمِ الشَّريفِ ابتغاءَ رِضوان اللهِ تعالى، فالتَّواضُعُ يُذلِّلُ له الأُمورَ الصِّعابَ.

٧ ـ الْحَذَرُ مِن التَّلَقِّي عن أهل البِدَع

«أهلُ البِدَع» هم الذين أَحدثُوا في الدِّين ما ليس منه، ومَسَّهم زَيْغُ العَقيدةِ، وغَشِيَتْهم سُحُبُ الْخُرافةِ، يُحَكِّمون الْهَوَى ويُسَمُّونه العقلَ، ويَعْدِلُون عن النَّصِّ، ويَسْتَمْسِكون بالحديث الضَّعيف، ويَنْأَوْنَ عن الحديث الصحيح، ويُقال لهم أيضاً: «أهل الشُّبُهات»، و«أهل الأهواء»، و«الأَصَاغِر»[٢].

وقد حَذَّر السَّلَفُ مِن أخذ العلمِ عن أهل البِدَع تحذيراً شديداً، حتى قال بعضُهم: إنَّ أَخْذَ العلم عن أهل البِدَع من أشراط السَّاعة، واستدلّوا في ذلك بحديث النبيِّ ﷺ: «إنَّ مِنْ أَشْراطِ السَّاعَةِ ثَلَاثاً: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِر»[٣]، وقالوا: إنَّ المراد «الأصاغر» في هذا الحديث هم «أهلُ البِدَع»[٤].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، (١٦/٣٥٨).

(٢) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٣٩، بتصرف وزيادة.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، (٢٢/٣٦١)، برقم: (٩٠٨)، بإسناد حسن.

(٤) انظر: «الزهد»، للإمام عبد الله ابن المبارك، هامش (٢) في صفحة (٢١).

ومِن علماء السَّلَف مِمَّن حذَّر من «أهل البِدَع» والأخذِ عنهم، الإمامُ مالِكُ بن أنسٍ (ت١٧٩هـ) ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في مقولته المشهورة التي نَصُّها:
«لا يُؤخَذ العِلمُ عن أربعةٍ:
١ ـ سَفِيْهٍ يُعلِن السَّفَهَ وإنْ كان أَرْوَى النَّاسِ.
٢ ـ وصاحبِ بِدْعَةٍ يَدعُو إلى هَوَاه.
٣ ـ ومَن يَكْذِبُ في حديث النَّاس، وإنْ كنتُ لا أَتَّهِمُه في الحديث.
٤ ـ وصالِحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يَحْفَظ ما يحدِّث به»(١).
وقال الإمام محمَّد بن سِيْرِيْن (ت١١٠هـ) ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «لَمْ يَكونُوا يَسأَلُون عن الإسناد، فلمَّا وَقَعَت الفِتنةُ(٢) قالوا: سَمُّوا لنا رِجالَكم، فيُنظَر إلى أهل السُّنَّةِ فيُؤخَذ حديثُهم، ويُنظَر إلى أهل البِدَع فلا يُؤخَذ حديثُهم»(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (٨/ ٦١).
(٢) يُراد بها ما وَقَعَ من الفِتَن في عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ومنها ما ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة النبوية»، (٤/ ٥٤٥) و(٦/ ٢٣١)، ومُلَخَّصُها:
١ ـ قتلُ الخليفةِ الراشد الثالث: عثمان بن عَفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهي أوّلُ الفِتَن وأعظمُها.
٢ ـ وخروجُ «الخوارج» على عليّ ومعاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، الذين كفَّروهما حتى استحلُّوا الدماءَ والأموال.
٣ ـ ظهورُ بدعة «الرافضة» المدَّعين لإمامة عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو نبوتِه، أو إلهيتِه.
٤ ـ ظهورُ بدعة «الْمُرجِئة» و«الْقَدَرِيَّة» في آخر عصر الصحابة وفي عهد إمارة عروة بن الزُّبير وعبد الملك بن مرَوَان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.
٥ ـ وظهورُ بدعة «الْجَهْمِيَّة» الْمُعطِّلة، و«الْمُشَبِّهَة» الْمُمثِّلة، في أوّل عصر التابعين وفي آخر الخلافة الأموية.
وغير ذلك من الفِتَن التي ذكرها ابنُ تيمية في كتابه المذكور.
(٣) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب: بيان أن الإسناد من الدين، ص١٠، ١١، برقم: (٢٦).

كما أُثِرَتْ عنه ـ رحمه الله ـ مقولته المشهورة في هذا الأمر: «إنَّ هذا العِلمَ دِيْنٌ؛ فانْظُرُوْا عمَّن تَأخُذون دِيْنكم»(١).

ومرادُه «العلم»: العلوم الشرعية، والعربية وآلاتها؛ لكونها خادماً للعلوم الشرعية(٢).

وأُثِرَ عن التابعيّ الإمام إبراهيم النَّخَعِي (ت٩٦هـ) ـ رحمه الله ـ قولُه: «كانوا إذا أتوا الرَّجُلَ ليأخذوا عنه؛ نظروا إلى سَمْتِه، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه»(٣).

فيجب على الطالب أثناء الاشتغال بطلب العلم: الابتعادُ عن أهل البِدَع، والحذرُ مِن التلقّي عنهم، ومن مطالعةِ كُتبهم(٤)؛ ليكون صَحِيحَ العقيدةِ في الدِّين، متينَ الاتّصالِ بالله، كما يجب عليه أن يَحرِص دائماً على أخذ العِلْم عن مَنابِعه الأصلية من كُتُبِ السَّلَفِ، وعلى أيدي العُلماء الرَّبَّانِيِّيْن.

٨ ـ مُلازَمةُ الشَّيخِ الْمُرَبِّي الْمُتقِن وآدابُ الاستفادةِ منه:

لا شكَّ أنَّ الحصول على الشَّهادات العلمية مُهِمٌّ لطالب العلم الشَّرعي، ولا غِنىً له عنها في العصر الحاضر، ولكن في الوقت نفسِه لا بُدَّ له من الْمُلازَمة والْمُثافَنة لشيخٍ مُرَبٍّ مُتقِنٍ، الذي يَتعامَلُ مع الطالب عن

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب: بيان أن الإسناد من الدين، ص١٠، برقم: (٢٦).

(٢) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، للشيخ محمد عوامة، ص١٩٧.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/١٢٨)، برقم: (١٣٣).

(٤) لكن إنْ كان الغرضُ من النظر في كتبهم معرفةَ بدعتِهم للردِّ عليها؛ فلا بأسَ في ذلك.

كَتْبٍ، ويَتواصَل معه تَواصُلاً عِلمياً خاصّاً، ويُدرِك مَواهِبَه ويَعرِف مَلَكاتِه، ويُرشِده ويُوجِّهه إلى الطَّريق الصحيح والسُّلوك السَّوِيّ، فلا شكَّ أنَّ مَن تَتَلْمَذَ على مِثل هذا الشيخِ فقد رُزِقَ خيراً عظيماً.

لأنَّ «الأَصْلَ في الطَّلَب: أن يكون بطريق التَّلقين والتَّلَقِّي عن الأساتيذ، والْمُشافَنةِ للأشياخ، والأَخْذِ من أفواه الرِّجال لا مِن الصُّحُف وبُطُونِ الكُتُب»[١].

وقد قِيل: «مَن دَخَل في العِلم وَحْدَه؛ خَرَج وَحْدَه»[٢]؛ أي: مَن دَخَل في طلب العِلم بلا شيخٍ؛ خَرَج منه بلا عِلمٍ، إذ العِلمُ صَنْعَةٌ، وكلُّ صنعةٍ تَحتاج إلى صانعٍ، فلا بُدَّ إذاً لتَعلُّمِها من مُعلِّمِها الْحاذِق[٣].

وصَدَق مَن قال:

أخي! لَنْ تَنالَ العِلْمَ إلَّا بِستَّةٍ ... سَأُنْبِيْكَ عن تَفْصِيْلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٍ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ وبُلْغَةٍ ... وصُحْبَةِ أُسْتَاذٍ وطُوْلِ زَمَانِ[٤]

ولبعضِهم:

مَنْ لَمْ يُشَافِهْ عَالِماً بِأُصُوْلِهِ ... فَيَقِيْنُهُ فِي الْمُشْكِلَاتِ ظُنُوْنُ

وكذلك لبعضهم أبياتٌ جميلةٌ في ذَمّ مَن لم يَتّخِذ لنفسه منهجاً علمياً لطلب العلم فأَخَذه عن الكُتب دُوْن مُلازَمةٍ لشيخٍ مُتْقِنٍ أو أستاذٍ بارعٍ:

---

(١) العبارة بين القوسين للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، في كتابه «حلية طالب العلم»، ص: ٣٠، ٣١.
(٢) انظر: «الجواهر والدرر» للسخاوي، (١/ ٥٨).
(٣) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله بن أبي زيد، ص٣١.
(٤) هذا البيتُ منسوبٌ إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل: إنه للإمام الشافعي، انظر: «ديوان الإمام الشافعي»، ص٣٧٨.

يَظُنُّ الْغَمْرُ[١] أَنَّ الْكُتُبَ تَهْدِي أَخَا فَهْمٍ لإِدْرَاكِ الْعُلُوْمِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهُوْلُ بأَنَّ فِيْهَا غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الفَهِيْمِ
إذا رُمْتَ الْعُلُوْمَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيْمِ
وتَلْتَبِسُ الأُمُوْرُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيْرَ أَضَلَّ مِن «تُوْمَا الْحَكِيْمِ[٢]»

لذلك ينبغي للطالبِ أن يَحرِص على مُلازَمةِ الشيوخ الْمُتقِنين والأساتذة المتخصِّصين والاستفادةِ منهم، ولا يكتفي بالشَّهادات العصرية[٣] التي يَظُنّها الكثيرُ من طَلَبة العلم أنها هي مفتاحُ بابِ العِلْم، كَلَّا، ثم كَلَّا؛ بَلْ «للتَّمكُّن من العِلم لا بُدَّ من الْمُتابَعةِ، والدَّرْسِ، والتَّبَحُّرِ، والتَّدْقِيْقِ، والانْقِطَاعِ، مع صِحَّةِ الْفَهْم، وحُسْنِ التَّلَقِّي بالسَّمَاعِ، والْمُجَالَسَةِ للعُلَمَاءِ الْمَشْهُوْد لهم بالعِلم والتَّحقيق»[٤].

أمّا إذا أقبل الطالبُ على العلم دُوْن ملازمته لشيخٍ مُتقِنٍ أو أستاذٍ متخصِّصٍ فيؤثِّر ذلك في حياته تأثيراً سَيِّئاً، وتَنْتِجُ عن ذلك أمورٌ تاليةٌ:

١ ـ فُقْدانُ عُنْصُرِ الاقتداء: الذي أكَّد عليه كُلّ من السَّلَف والخَلَف، وبالتالي سنَفتقِد في الطالب الذي لم يَأخُذ العلمَ عن أيِّ عالِمٍ، أخلاقَ العلماءِ، يقول الإمامُ الشَّاطِبِيّ (ت٧٩٠هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «أن يكون [الطالبُ] مِمَّن رَبَّاه الشُّيوخُ في ذلك العِلم، لأَخْذِه عنهم، ومُلازَمتِه لهم؛ فهو الجديرُ

(١) الغَمْرُ: الغِرُّ، هو مَن لم يجرِّب الأمورَ.
(٢) كان طبيباً، ولكن تطبُّبه كان من الكتب، قد وقع التصحيفُ في بعض كتبه فكان يقرأ «الْحَيَّة السَّوْداء شفاءٌ من كلِّ داءٍ»، تصحَّفت كلمةُ «حَبَّة» إلى «حَيَّة»، فمات بسبب تطبُّبه خلقٌ كثيرٌ. والله أعلم. الدرر الكامنة، لابن حجر، (٢/ ٦٣).
(٣) مثل: الدبلوم، والليسانس، والماجستير، والدكتوراه إلى غير ذلك.
(٤) ما بين القوسين من كلام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، في تعليقه على صفحة (٧١٤)، في كتاب «ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجُرجاني».

بأن يَتَّصِفَ بما اتّصَفُوا به مِن ذلك، وهكذا كان شأنُ السَّلَفِ الصّالِح».

ثم قال: «وحَسْبُك مِن صِحَّة هذه القاعِدةِ: أنّك لا تَجِدُ عالماً اشتهر في الناس الأَخْذُ عنه إلَّا وله قُدْوَةٌ واشتهر في قَرْنه بمِثل ذلك. وقلَّما وُجِدَتْ فِرقةٌ زائغةٌ، ولا أحدٌ مُخالِفٌ للسُّنّة، إلا وهو مُفارِقٌ لهذا الوصف، وبهذا الوجهِ وَقَع التشنيعُ على ابن حَزْم الظَّاهري[١]، وأنه لم يُلازِم الأخذَ عن الشُّيوخ، ولا تَأَدَّبَ بآدابهم...»[٢].

٢ ـ ضِيْقُ الأُفُقِ: وذلك لأنَّ الطالب سوف يَبْقَى في إطار ما دَرَسه في الصُّحُف أو الكُتُبِ، غافلاً عمّا يُمكِن أن يَرفَع مِن مُسْتَواه العلمي، سواء تعلَّق الأمرُ بالعلم الذي يَدرُسه بذاته، أو بأمورٍ أخرى، تكون الثقافةَ العامّةَ للطالب[٣].

٣ ـ التَّصحِيفُ[٤]: الذي يقع من الطالب بسبب أخذِه العلمَ من بُطون

---

(١) أحدُ أئمة العلم، بلغ من الذكاء وغزارة العلم منْزلةً فائقةً، فألَّف الكتبَ القيمةَ، وناضَلَ عن كثير من حقائق الدين بالحِجَج الباهرة، ولكنه لم يهذِّب حاشيةَ منطقِه، فكان يرمي بشَرَرٍ من عبارات الازدراء والغضاضة من شأن أئمة السَّلَف، ولم يَحتمِل منه علماءُ عصرِه هذه السيرةَ الشّاذة، فنهضوا في وجهه، ودارَتْ بينه وبينهم المناظراتُ حتى امتدّتْ إليه يدُ الدولةِ وأَبعدتْه عن وطنه، ومات بالبادية سنة ٤٥٦هـ. وكان مضربَ المثل بسبب سلاطة لسانِه، فقد قيل: «كان لسانُ ابن حزم وسيفُ الحجّاج شقيقَيْن». (انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان، ٣/ ٣٢٨، و«الموافقات» للشاطبي، ١/ ١٤٤، هامش رقم: ٢).

(٢) الموافقات، للشاطبي، (١/ ١٤٢، و١٤٤).

(٣) النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، للأستاذ المكي أَقلايْنَة، ص١٢٦.

(٤) هو كتابةُ الكلمةِ أو قراءتُها على غير صِحّتها لاشتباهٍ في الحروف. (معجم المصطلحات الحديثية، للمؤلف، ص١٦٤).

الصُّحُفِ أو الكُتُبِ دون الشُّيوخِ والأساتذة من ذوي الاختصاص، أما الذي يَأخُذ العلمَ عنهم فيَبْقَى عنده هو الأساسُ في تلقّي العلم[١].

وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ في الرُّوَاة، الذين وَقَع منهم التصحيفُ بسبب أخذِهم الحديثَ عن بُطون الصُّحُفِ والكُتُبِ وعدم تلقِّيه عن الشيوخ والأساتذة، ومنهم عبدُ الله بنُ لَهِيْعَة (ت١٧٤هـ)، الذي روى حديثاً أنَّ «رسول الله ﷺ احْتَجَمَ في المسجد»، قال الحافظُ ابن الصَّلاح (ت٦٤٣هـ) ـ رحمه الله ـ: «إنما هو بالرَّاء»[٢]، كما في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ: «احْتَجَرَ في المسجد بِخُصٍّ أو حَصِيرٍ حُجْرَةً يُصَلِّي فيها»[٣]، فصَحَّفه ابنُ لَهِيْعَة بالميم لكونه أخذه من كتابٍ بغير سَماعٍ[٤]. ولذلك حَذَّر الأئمةُ من أخذِ الحديث عمَّن هذا شأنُهم وقالوا: «لا يُؤخَذ الحديثُ من صَحَفِيٍّ»[٥]، أي لا يُؤخَذ عمَّن أَخَذه من الصُّحُفِ.

فالحاصلُ أنَّ: العِلم ـ لا سيما الشَّرعي ـ لا يُؤخَذ ابتداءً من الكُتب، بل لا بُدَّ لطالبه من شيخٍ أو أستاذٍ متخصِّصٍ يُتْقِنُ عليه مَفاتِيحَ الطّلبِ ليَأمَنَ

---

(١) النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، للأستاذ المكي أَقلايَنَة، ص١٢٦، ١٣١، بتصرف واختصار.

(٢) علوم الحديث، لابن الصلاح، النوع الخامس والثلاثون، ص٢٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ﷻ، برقم: (٦١١٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته، برقم: (٧٨١)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٤) معرفة أنواع علم الحديث، للحاكم أبي عبد الله النيسابوري، ص٤٤٩.

(٥) تيسير مصطلح الحديث، للدكتور محمود الطحان، ص١٤٧، وفي هذا المعنى قال الإمامُ الثقة سعيد بن عبد العزيز التَّنُوْخي (ت١٦٧هـ) ـ رحمه الله ـ: «لا تَحمِلوا العلمَ عن صَحَفِيٍّ، ولا تَأخُذوا القرآنَ عن مُصْحَفِيٍّ». (تصحيفات المحدِّثين، للعسكري، ١/ ٧).

ـ أي الطالبُ ـ من العَثَار والزَّلَلِ، وليكون تكوينُه تكويناً سليماً في العلم أو الفنّ الذي سيَدرُسه؛ ذلك أنَّ الشيخ ـ أو الأستاذ ـ يكون مُلِمّاً به، ومُحيطاً بدقائقه، وخبيراً بحلِّ مُعضلاتِه، كما أنَّ شخصيته العلمية والدينية تُؤثِّر في الطالب تأثيراً كبيراً على حياته.

اختيارُ الشيخ الأنفع والأتقى:

وإذا ثَبَت أنه لا بُدَّ مِن أخذ العلمِ مِن أهله من شيخٍ مُتقِنٍ أو أستاذٍ مُتخصِّصٍ، فعلى الطالب أن يُحسِن اختيارَ مَن يُريد التَّتَلْمُذَ عليه أو الاستفادةَ منه، حيث يكون هو مِن ذَوي الخُلُقِ الحسنِ والعبادةِ القاصدة الْمُتَّبعة؛ ليقع مَوْقِعَ القُدْوَةِ من الطالب، وأن يكون سَمْحَ الصَّدْرِ، لَيِّنَ الجانبِ، سَهْلَ الْمَأْخَذِ، حسنَ العبارةِ، عَفَّ اللِّسانِ، رفيقاً رحيماً مُتواضِعاً، صادِقَ النُّصْحِ، وحسنَ التعامُلِ معه. وكذلك أن يكون مُشاركاً في العلوم، ومُتقِناً للعلم الذي يُريد الطالِبُ تَلَقِّيه منه، كما تكون له عنايةٌ بآليات التربية والتعليم، ومنهجيةُ اختبارِ مستويات الطلابِ وتدرُّجِهم وتنميةِ مَلَكاتِهم الإبداعية[1].

وهذه نصيحةٌ قيمةٌ في هذا البابِ للإمام ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ)، وَجَّهها ـ رحمه الله ـ إلى الطالب، فقال:

«إنه ينبغي للطالب أن يقدِّم النظرَ، ويَستخِيرَ اللهَ فيمَن يَأخُذ العِلمَ عنه، ويَكتسِب حسنَ الأخلاقِ والآدابِ منه، وليَكُنْ إنْ أَمكَن مِمَّن كَمُلَتْ

---

(١) السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية، للأستاذ أبي الأشبال أحمد المصري، ص٥٦، بتصرف يسير.

أهليّتُه، وتَحقَّقتْ شَفَقَتُه، وظَهَرَتْ مُرُوْءَتُه، وعُرِفَتْ عِفَّتُه، واشْتُهِرَتْ صِيانتُه؛ وكان أحسَنَ تعليماً، وأجوَدَ تفهيماً.

ولا يَرغَب الطالبُ في زيادة العِلم مع نَقْصٍ في وَرَعٍ، أو دِيْنٍ، أو عدمِ خُلُقٍ جميلٍ، فعن بعض السَّلَف: (هذا العِلمُ دِيْنٌ؛ فانْظُرُوْا عمَّن تَأْخُذون دِيْنَكم)[١].

وليَحْذَر [الطالبُ] من التقيُّد بالمشهورين[٢]، وتركِ الأخذِ عن الخامِلين[٣]، فقد عَدَّ الغزالِيُّ[٤] وغيرُه ذلك مِن الكِبْر على العلم، وجَعَله عينَ الْحَماقَةِ؛ لأنّ الحِكمة ضالَّةُ المؤمِنِ، يَلتقِطها حيثُ وَجَدها، ويَغتنِمها حيثُ ظَفَر بها، ويتقلَّد الْمِنَّةَ لِمَن ساقَها إليه، فإذا كان الخامِلُ مِمَّن تُرجَى بَرَكَتُه؛ كان النفعُ به أعَمَّ، والتحصيلُ من جِهتِه أتَمَّ.

وإذا سَبَرْتَ أحوالَ السَّلَفِ والْخَلَفِ لَمْ تَجِد النفعَ يَحصُل غالباً، والفلاحُ يُدرِك طالباً إلَّا إذا كان للشيخ مِن التَّقْوى نصيبٌ وافرٌ، وعلى شَفَقَتِه ونُصْحِه للطَّلَبَة دليلٌ ظاهرٌ. وكذلك إذا اعتبرتَ المصنَّفات وجدتَ الانتفاعَ بتصنيف الأتقى الأزهدِ أوفَرَ، والفلاحَ بالاشتغال به أكثَرَ.

وليَجتهِد [الطالِبُ] على أن يكون الشيخُ مِمَّن له على العلوم الشَّرعية تمامُ اطِّلاعٍ، وله مع مَن يوثق به من مشايخِ عصرِه كثرةُ بحثٍ وطولُ

---

(١) قاله الإمام ابن سِيْرين (ت١١٠هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ، أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح، باب: بيان أن الإسناد من الدين، ص١٠، برقم: (٢٦).

(٢) يعني: المشهورين بين الناس بعلمهم.

(٣) يعني: غير المشهورين بين الناس لكنهم ـ في الحقيقة ـ أصحابُ العلم والفضل.

(٤) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغَزالي الطوسي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ): أحد أعلام المسلمين، وصاحب مؤلفات عظيمة مثل «إحياء علوم الدين» وغيره. (انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان، ١/ ٤٦٣).

اجتماعٍ، لا مِمَّن أَخَذ عن بُطون الأوراق، ولَمْ يُعرَف بصُحبة الْمَشايِخ الْحُذَّاقِ، قال الشّافعي - رضي الله عنه -: (مَن تفقَّه مِن بُطون الكتبِ؛ ضيَّع الأحكامَ).

وكان بعضُهم يقول: (مِن أعظم البَلِيَّةِ، تَمَشْيُخُ الصُّحُفِيَّةِ)، أي: الذين تعلَّموا من الصُّحُفِ»[١].

وفي حُسْن اختيار الطالبِ المعلِّمَ صحيح العقيدة، يقول الإمام تاج الدِّين عبد الوَهَّاب السُّبْكي (ت٧٧١هـ) - رحمه الله -: «وينبغي أن يكون المعلِّمُ صحيحَ العقيدة؛ فلقد نشأ صِبْيانٌ كثيرون، عقيدتُهم فاسدةٌ، لأنّ فقيههم كان كذلك. فأوّلُ ما يتعيَّن على الآباء الفحصُ عن عقيدة معلِّم أبنائهم قبل البحث عن دِينه في الفروع، ثم البحث عن دينه في الفروع»[٢].

وللعلَّامة الداعية، العالِم المربِّي الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدْوي (ت١٤٢٠هـ) كلمةٌ قيمةٌ عظيمةٌ حول ضرورة حُسْنِ اختيار المعلِّم لمنصب التعليم والتوجيه العظيمَين، وأهميةِ ذلك للناشئة والأجيال، يقول رحمه الله: «إنَّ مسألة اختيار المعلِّمين ليستْ بسيطةً سهلةً، كما يَظُنُّ كثيرٌ من رجال الْمَعارِف، ليس أساسُه العلمَ وحدَه، والْمَقْدِرةَ التعليمية، والمؤهَّلات العلمية فحسب؛ بل يجب أن تكون للسِّيرة والخُلُق والمبدأ والغاية، والإيمان والعقيدة: المكانةُ الأولى، والأهميةُ الكبرى في اختيار المعلِّم.

ويجب أن تكون هذه العقيدةُ متغلغلةً في الأحشاء، قد مَلَكَتْ عليه فِكْرَه ومَشاعِرَه، وجعلتْ منه داعيةً لا يَمَلُّ ولا يَكِلُّ، ومؤمِناً لا يَرتاب

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٨٩، ٩٠.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم، للإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكي، ص١٣٠.

ولا يتشكَّك؛ وذلك مَثَلُ المعلِّمِ الكامل الذي يَسعَد به نظامُ التعليم، ويؤدِّي مهمتَه بنجاحٍ وسهولةٍ.

وإنِّي لا أَعرِفُ أمانةً أكبَرَ مسؤوليةً، وأشَدَّ خطراً، وأعمَقَ أثراً في مستقبل الأُمّةِ وحياتِها، من المعارف، فزَلَّةٌ من زَلَّاتِها قد تؤدِّي أُمَّةً بأَسرِها في هاويةٍ، وقد تؤدِّي بها إلى الاضمحلال والتفسُّخ والفوضى في الأخلاق والاجتماع، والسياسة والتعليم، واللَّادينية والإلحاد، كذلك يمكنها وحدها أن توجِّه العقولَ والنفوسَ توجيهاً صالِحاً، وتُنشِئ الأُمَّةَ نشأةً جديدةً، وتبني لها مسقبلاً باهراً»[١].

الحذر مِن تلقِّي العلم عمَّن لم يتأهَّل للتعليم:

أمَّا الذين لم تَتَحَقَّقْ فيهم تلك الشروطُ التي ذكرها الإمامُ ابن جَمَاعة وغيرُه لأخذ العلمِ عنهم؛ فلا ينبغي للطالب أن يتتلمذ عليهم، لِمَا وَرَد في ذلك من تحذيرٍ شديدٍ في العديد من الأحاديث والآثار، منها:

ما رواه أبو أُمَيَّة الْجُمَحي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثاً: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ»[٢].

وأُثِرَ عن عمر بن الخطّاب ﷺ أنه قال: «إنَّ الناسَ لم يَزالُوا بخيرٍ، ما أتاهم العلمُ عن أكابرهم»[٣].

---

(١) أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية، للعلامة أبي الحسن الندوي: ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٦١)، برقم: (٩٠٨)، بإسناد حسن.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٤٩٨)، برقم: (١٠٥٤).

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «لا يَزالُ الناسُ بخيرٍ ما أَخَذُوا العلمَ عن أكابرهم، فإذا أَخَذُوا عن أصاغِرهم وشِرَارِهم؛ هَلَكُوا»(١).

ومما سَبَق نَستدِلّ على أنَّ السَّلَف اعتنوا بقضية التَّلقي عن أهل العلم اعتناءً كبيراً فبيَّنوا وجوبَه على الطالب، فعليه أن يكون شديدَ الحذرِ والحيطةِ من التَّتَلْمُذِ على صِغار الأسنان الذين لم يَتَأَهَّلُوا بعد للتدريس والإفادة؛ لأنّ أَخْذَه العلمَ عن مِثل هؤلاء ـ الذين لم تَرسَخ لهم قدمٌ فيه ـ مع وُجود مَن هو أكبَرُ منهم سِنّاً وأرْسَخُ منهم قدماً؛ يَحرِمه من خِبْرَة العلماءِ المشهود لهم بالعلم والفضلِ، واكتسابِ أخلاقِهم الكريمة.

آدابُ الطالب مع شيخه:

لقد دَرَج السَّلَفُ ـ رحمهم الله تعالى ـ على إجلال وتوقيرِ مَن أَخَذُوا عنهم العلمَ، وراعَوْا في ذلك آداباً تَلِيْقُ بمقامه ومنْزلته، وهذه جملةٌ من تلك الآداب التي ينبغي للطالب مُراعاتها بين يدي شيخِه وأستاذِه، عند مخاطبته إياه، واستماعِهِ له، وسؤاله منه.

١ ـ أدبُ مُخاطَبةِ الشيخ:

يجب على الطالب أن يتحلَّى برعاية حُرْمَة شيوخِه وأساتذته، وأن يُجِلَّهم ويُوَقِّرهم، ويَطْلُب رضاهم، ويَحْذَر مِن سخطِهم، ويتودَّد إليهم، فلا يُنادِي أحدَهم باسمه المجرَّد، بل يقول: «يا شيخنا»، أو «يا أستاذنا»، ونحو ذلك(٢).

ولا يُسمِّيه في غَيْبَته أيضاً باسمه إلَّا مقروناً بما يُشعِر بتعظيمه، كقوله:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٤٩٨)، برقم: (١٠٥٧).
(٢) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم»، لابن جماعة، ص٩١.

«قال الشيخُ أو الأستاذُ كذا»، أو «قال شيخُنا أو أستاذُنا كذا»، ونحو ذلك[١].

ومما يَجِبُ التنبيهُ هنا أنَّ الاحترام للشيوخ والإجلالَ لهم: لا يَعْنِي أن يَخضَع لهم الطالبُ ويَنحنِي لهم عند السَّلام عليهم، فإنه صنيعُ الْمُبْتَدِعَةِ[٢].

٢ ـ أدبُ الاستماع للشيخ:

لا ينبغي للطالب أن يُقَصِّر في الإصغاء إلى الشيخ والتفهُّم منه، أو يَشغَل ذِهْنَه بفكرٍ أو حديثٍ ثم يَستعِيد الشيخَ ما قاله؛ لأنَّ في ذلك إساءة الأدب معه، بل عليه أن يكون مُصغِياً إلى كلامه، حاضِرَ الذِّهْنِ لِما يَسْمَعه مِن أوّل مرةٍ.

وإذا لم يَسمَع الطالبُ كلامَ الشيخِ لبُعْده، أو لم يَفهمه مع الإصغاء إليه، والإقبالِ عليه؛ فله أن يَسأل الشيخَ إعادتَه أو تفهيمَه بَعْدَ بيانِ عُذْرِه بسؤالٍ لطيفٍ[٣].

وإذا سَمِعَ الطالبُ الشيخَ أو الأستاذَ يَذكُر حُكماً في مسألةٍ، أو فائدةً مُستغربَةً، أو نُكْتَةً علميةً، أو يَحكي حكايةً، أو يُنشِد شِعْراً والطالبُ يَحفَظ ذلك، فعليه عندئذٍ أن يُصغِي إلى الشيخ إصغاءَ مُستفيدٍ له في الحال، مُتعطِّشٍ إليه، فَرِحٍ به، كأنّه لم يسمعه قطُّ[٤].

٣ ـ أدبُ الكلامِ مع الشيخ أثناء الدَّرْس أو الْمُحاضَرة:

ينبغي للطالب أن يُحسِن خطابَه مع الشيخ لا سيما أثناء درسه أو

---

(١) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم»، لابن جماعة، ص٩١.

(٢) انظر: «حلية طالب العلم» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٣٥ ـ ٣٧.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩٩، بتصرف وزيادة.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩٨، ٩٩.

مُحاضَرته أو في مجلس العلم، ولا يقول له أمام الحاضِرين: «لِمَ»، أو: «لا نسلِّم»، أو: «مَن نَقَل هذا؟»، أو: «ما مصدرُ كلامِك هذا؟»، وشِبْهُ ذلك من كلماتٍ لا تَلِيْق بمكانة الشيخ[١].

وإذا أصرَّ الشيخُ على قولٍ أو دليلٍ ولم يَظهَر له، أو على خِلاف صوابٍ سَهْواً، فلا يَحسُن للطالب أن يُكَلِّح وجهَه، أو يُقَطِّبَ جبينَه، أو يُشير إلى غيره كالْمُنكِر لِما قاله؛ بل عليه أن يأخذه ببِشْرٍ ظاهرٍ، وإنْ لم يكن الشيخُ مُصِيباً لغَفْلةٍ أو سَهْوٍ، أو قُصورِ نظرٍ في تلك الحالِ، فإنَّ العِصْمَة في البَشَر للأنبياء عليهم السلام[٢].

كما أنَّ من الإساءة للشيخ أنْ يَسبِقه الطالبُ إلى شرح مسألةٍ، أو جوابِ سؤالٍ منه، أو مِن غيره، ولا يُساوِقه[٣] فيه، ولا يُظهِر معرفتَه به، أو إدراكَه له قبل الشيخِ، فإنْ عَرَض الشيخُ عليه ذلك ابتداءً، والْتَمَسَه منه فلا بأسَ.

كما لا ينبغي للطالب أن يَقطَع على الشيخ كلامَه أثناء الدرس، ولا يُسابِقه فيه، بل يَصبِر حتى يَفرَغ الشيخُ كلامَه ثم يتكلَّم، ولا يتحدَّث مع غيره والشيخُ يتحدَّث معه، أو مع جماعة الْمَجلِس[٤].

٤ ـ أدبُ السُّؤَالِ مع الشيخ:

إنَّ السُّؤال وسيلةٌ عظيمةٌ من وسائل التعلُّم المتعدِّدة، يَكتشِف بها الإنسانُ حقيقةَ ما يَجهَله من أمورٍ، لذا حَثَّ اللهُ سبحانه وتعالى على السؤال، وأمر

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩٧.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٩٧، بتصرف وزيادة.
(٣) أي: لا يُظهِر الطالبُ نفسَه أمامَ الشيخِ أو الأستاذ أنه مُساوِياً له في العلم.
(٤) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١٠٠، بتصرف وزيادة.

بأن يُلتمَس العلمُ من أهلِه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ومع ذلك، فالسُّؤالُ له آدابٌ يَجِبُ أن يُراعيها الطالِبُ لكي تتحقَّق الفائدةُ المرجوَّةُ منه، لقد ذكر العلامة الفاضل الدكتور أحمد محمد نور سيف في كتابه القيِّم «من أدب المحدِّثين في التربية والتعليم»[(١)] جملةً من تلك الآداب، وهذه خلاصتها:

١ ـ أن يُحْسِن الطالبُ اختيارَ السُّؤال، فلا يسأل الشيخَ أو الأستاذَ إلا عمَّا فيه نفعٌ له، فقد قال التابعيُّ الجليل مَيْمُون بن مِهْران (ت١١٧هـ) ـ رضي الله عنه ـ: «حُسْنُ المسألةِ، نِصْفُ الفقهِ»[(٢)].

٢ ـ ولا يَسأل الشيخَ لِمُجَرَّد غرضِ السُّؤال.

٣ ـ ولا يَسأل الشيخَ إلَّا بعد أن يُحَدِّد النُّقْطَةَ الغامِضةَ في ذِهنه ليُعِين ذلك المسؤولَ على تحديد الجوابِ ودِقَّتِه.

٤ ـ ويَختار الوقتَ الْمُناسِبَ للسُّؤال.

٥ ـ ويُحاوِل قَدْرَ الاستطاعةِ أن يَختصِر السُّؤالَ ولا يُطِلْه إلَّا عند الحاجة إلى ذلك.

٦ ـ ولا يَخْجَل من السُّؤال، قال التابعيُّ الجليل مُجاهِد بن جَبْر المكِّي (ت١٠٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «لا يَتعلَّم العِلمَ مُسْتَحٍ ولا مُستكبِرٌ»[(٣)]، وقد

---

(١) انظر الصفحات: ٧٥، و٧٦، و٧٨ من المرجع المذكور.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع للخطيب البغدادي، (١/ ٢١٣)، برقم: (٣٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، تعليقاً في كتاب العلم، باب: الحياء في العلم، انظر صفحة ٢.

قيل لعبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: بِمَ نِلْتَ هذا العِلمَ؟ قال: «بلسانٍ سَؤُوْلٍ، وقلبٍ عَقُوْلٍ»[١].

٧ ـ ويَتواضَع في السُّؤال، ولا يَمنعه الكِبْرُ مِن أن يَستعِين بِمَن هو أعرَفُ منه، أو أكثَرُ درايةً بالأمور، ففي ذلك ترويضٌ للنفس على أنْ تتقبَّل العلمَ دُوْن أَنَفَةٍ أو كِبْرٍ.

٨ ـ ويَتَجَنَّب السُّؤالَ عن الأشياء الواقعية ويَحترِز عن الأسئلة الافتراضية.

٩ ـ ولا يَقُول: «أنا سألتُ الشيخَ (فلاناً) أو فلاناً وأخبرني بكذا»؛ لأنَّ هذا الأمر يَجعَله في اضطرابٍ وحَيْرَةٍ، فما هو القولُ الذي سيَأخُذ به من هذه الأقوال.

١٠ ـ ولا يَمتحِن الشيخَ بالسُّؤال.

هذا بعضُ أحسَن ما قيل في أدب السُّؤال.

٥ ـ إحسانُ الظَّنِّ بالشيخ:

ويجب على الطالب أن يُحسِن الظَّنَّ بشيخه أو أستاذه، وأن يَلتمِس له العُذْرَ إذا أخطأ، فلا يَرقُب مَواطِنَ ضَعْفِه، ولا يَتتبَّع زَلّاتِه وهَفَواتِه، بل على الطالب أن يَغُضَّ الطرفَ عنها إنْ ظَهَرَتْ، فلا معصومَ إلَّا مَن عَصَمه اللهُ.

٦ ـ اعترافُ الطالبِ بفضل الشيخِ ودعاؤُه له دائماً:

ينبغي للطالب أن يَدْعُوَ لشيخِه أو أستاذه قبل الأخذِ عنه ليَطِيْبَ قلبُه ويَنشرِح صدرُه بذلك، كما يدعو للشيخ بعد الأخذ عنه مُدَّةَ حياتِه اعترافاً بفضله، وشُكراً له على معروفه، ويترحَّم عليه بعد وفاته وفاءً بحقِّه عليه[٢]،

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص٧٨.

(٢) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم»، لابن جماعة، ص٩٢.

مثل ما اشتهر مِن وفاءِ الإمام أحمد بن حَنْبَل (ت٢٤١هـ) لشيخه الإمام الشَّافِعي (ت٢٠٤هـ) ـ رحمهما اللهُ تعالى ـ أنه كان يُكثِر من دُعائه له[١].

وهذا كلُّ ما ذكرناه هنا من الآداب فهو من باب إجلال العِلم، ومعرفةِ الفضل لأهله، وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِيْ مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيْرَنَا، ويَرْحَمْ صَغِيْرَنَا، ويَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حقّه»[٢]، وإذا تَحلَّى الطالبُ بتلك الآدابِ فإنَّ ذلك عنوان نجاحِه وفلاحه، ودليل توفيقِه، وفضلِ الله عليه ـ بإذن الله ـ في الطلب والتحصيل.

٩ ـ اللُّجُوْءُ إلى الله ﷻ في الطَّلَب والتَّحصيل:

قد يتعذَّر على الطالبِ إدراكُ علمٍ من العلوم في أوّل عهده به، أو يَتعاصى عليه فهمُ مسألةٍ من مسائله، فلا ينبغي له عندئذٍ أن يَفزَع مِن ذلك، وقد تعاصَتْ بعضُ العلومِ على بعض الأعلام المشاهير، ولم يُفتَح لهم فيه، ومِنهم مَن صرَّح بذلك كما يُعلَم من تَراجُمهم، ومنهم: عبدُ الملك الأَصْمَعِيُّ (٢١٦هـ) في «علم العَرُوْض» وكان أحدَ أئمةِ اللغة والشعر، والحافظُ ابن الصَّلاح (ت٦٤٣هـ) في «علم المنطِق» وكان من كبار المحدِّثين والفقهاء، وأبو حامِد الغزاليّ (ت٥٠٥هـ) في «علم النَّحْو» وكان أحَدَ أشهر فلاسِفة المسلمين، وأبو مسلمٍ (ت١٨٧هـ) في «علم التَّصريف» وكان من أئمة النَّحْوِ، والسُّيوطي في «علم الحساب» وكان من أعلام الحديث والتفسير والتاريخ[٣].

---

(١) ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام أحمد أنه قال لابن الإمام الشافعي: «أبوك أحدُ السِّتّة الذين أدعو لهم سحراً». (سير أعلام النبلاء، ١١/٢٢٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسنده، (٣٧/٤١٦)، برقم: (٢٢٧٥٥)، عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، وقال محقِّقه الشيخ شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره».

(٣) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٥٨، ٥٩، بتصرف وزيادات.

فعلى الطالب عند عجزه عن إدراك علمٍ أو فهم مسألةٍ من مسائله: أن يُضاعِف رَغْبتَه، ويَفزَع إلى الله تعالى في الدُّعاء واللُّجُوءِ إليه والانكسارِ بين يديه، بأيِّ صِيْغَةٍ مشروعةٍ كأن يقول: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥].

وذُكِرَ عن شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّة (ت٧٢٨هـ) ـ رحمه الله ـ أنه كثيراً ما يقولُ في دُعائه إذا استعصى عليه تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله تعالى: «اللَّهُمَّ يا مُعَلِّمَ آدَمَ وإبراهيمَ! عَلِّمْنِيْ، ويا مُفَهِّمَ سُليمان! فَهِّمْنِي»[١] فيجد الفتحَ في ذلك[٢].

وقِيل في ترجُمة الإمام الكِسَائِيّ[٣]: إنه طَلَب النَّحْوَ وعَجِزَ عن إدراكه، وفي يومٍ من الأيام أنه رأى نَمْلةً تُريد أن تَصعَد بطُعْمٍ لها من الْجِدار فكلّما صَعِدَتْ سَقَطَتْ، ثم تَأْخُذ هذا الطُّعْمَ وتَمْشي ثم تَسقُط ثم تَصعَد، حتى اقْتَحَمَت العَقَبَةَ وتَجاوَزَتْها. فقال الكِسَائي: «إذا كانت هذه تُحاوِل وتَفشَل عِدّةَ مرّاتٍ ولكنها اسْتَمَرَّتْ حتى انتهى أمرها»، فرَجَع إلى علم النَّحْو وتعلَّمه حتى صارَ من أئمته الكِبار[٤].

فينبغي للطالب أن يُحاوِل ويَستمِرّ في طلب العلم مهما تعذَّر عليه إدراكُه، فقد يَعجِز عن ذلك مَرّةً، وفي المرة الثانية والثالثة يَقرُب له الأمرُ بعون الله تعالى.

١٠ ـ الحرصُ على لُزوم الطَّهارة في مَجالِس العِلم:

ومِن الآداب التي ينبغي أن يَلتزِم بها طالبُ العلمِ: مُلازَمة الطَّهارةِ

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٤/ ٣٨).

(٢) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) هو أبو الحسن عليُّ بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكِسَائي (ت١٨٩هـ): إمام في اللغة والنحو والقراءة، له تصانيف عديدة. (انظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان، ١/ ٣٣٠).

(٤) شرح كتاب حلية طالب العلم، للشيخ محمد بن صالح بن العثيمين، ص ١٦٠.

والاهتمامِ بالنظافة في مجالس العلم، قال الإمام ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رحمه الله ـ: «ينبغي أن يَدخُل [الطالبُ] على الشيخ كامِلَ الْهَيْئَةِ، مُتطهِّرَ البدنِ والثِّيابِ نظيفَهما، بَعْدَ ما يُحتاج إليه من أخذِ ظُفرٍ وشَعرٍ، وقطعِ رائحةٍ كريهةٍ، لا سيما إنْ كان يَقصِد مجلسَ العلم، فإنه مجلسُ ذِكْرٍ واجتماعٍ في عبادةٍ»[1].

وقال الحافظُ قَتَادَة بن دِعَامَة السَّدُوْسِيّ (ت١١٨هـ) ـ رحمه الله ـ: «لقد كان يُسْتَحَبُّ أنْ لا تُقرَأ الأحاديثُ التي عن النبيِّ ﷺ إلَّا على طُهْرٍ»[2]؛ لأنَّ هذه المجالس تَشْهَدُها الملائكةُ، كما جاءَ في حديث النبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُوْنَ اللهَ، إلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهم الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِيْنَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ»[3].

والملائكةُ تَتأذَّى من الرَّوائح الكريهة التي يتأذَّى منها بنو آدم[4]. فحَرِيٌّ بمن يُواظِب على حضور هذه المجالس أن يَهْتَمَّ بالآداب الشَّرْعِيَّة في نظافة البَدَن واللِّباسِ.

وكان مِن تَوقِير سَلَفِنا الصَّالِح ـ رحمهم الله تعالى ـ للحديث أنَّهم ما كانوا يُحَدِّثون بحديث النبيِّ ﷺ إلَّا وهم على أحسن حالٍ وهيئةٍ، ويُرَبُّون

---

(١) تذكرة السامع والمتكلّم، لابن جماعة: ص٩٤.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ٣٠٠)، برقم: (٦٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع، في أبواب الدعوات، باب: ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله ﷻ، برقم: (٣٣٧٨)، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) كما جاء في حديث أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «فإن الملائكة تتأذَّى مما يتأذَّى منه الإنسُ». (صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب: نهي من أكل ثوماً، برقم: ٥٦٤).

أتباعهم على ذلك، قال الحافظُ أبو سَلَمَة الْخُزاعي (ت٢١٠هـ) - رَحِمَهُ اللهُ -: «كان مالكُ بن أنسٍ إذا أرادَ أن يَخرُج ليُحدِّث؛ تَوَضَّأ وُضُوءَه للصَّلاة، ولَبِسَ أَحْسَنَ ثِيابه، ولَبِسَ قَلَنْسوَتَه، ومَشَطَ لِحْيَتَه، فقِيل له في ذلك[1]، فقال: أُوَقِّرُ به حديثَ رسولِ الله ﷺ»[2].

١١ - الاتِّصَافُ بعُلُوِّ الْهِمَّةِ:

تُطلَق «الْهِمّةُ» على: العَزْم القَوِيّ، ويُقصَد بـ «عُلُوّ الْهِمَّةِ»: استصغار ما دُوْن النِّهايةِ من مَعالِي الأمور[3]، أو خروج النَّفْسِ إلى غاية كمالِها الْمُمْكِن لها في العِلم والعَمَل[4].

وقال الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِية (ت٧٥١هـ) - رَحِمَهُ اللهُ - في تعريف «عُلُوّ الْهِمّةِ»: إنها «أنْ لا تَقِف - أي: النَّفس - دُوْن الله، ولا تَتعوَّض عنه بشيءٍ سِواه، ولا تَرْضَى بغيره بدلاً منه، ولا تَبِيْع حَظَّها مِن الله وقُرْبَه والأنسَ به والفرحَ والسُّرورَ والابتهاجَ به بشيءٍ من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالْهِمَّةُ العاليةُ على الْهِمَم كالطَّائر العالِي على الطُّيور لا يرضى بِمَساقِطها، ولا تَصِلُ إليه الآفاتُ التي تصل إليهم»[5].

لقد توارَدَتْ نصوصُ القرآنِ الكريم والسُّنّةِ النبويةِ على حَثِّ المؤمنين على ارتياد مَعالِي الأمور، والتَّسابُقِ في الْخَيْرات، منها: ما أثنى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أصحاب الْهِمَم العالية، وفي طليعتهم الأنبياء والْمُرسَلون، وفي

---

(١) يعني عن سبب ذلك الاهتمام البالغ.
(٢) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب البغدادي، (١/ ٣٨٨)، برقم: (٩٠٣).
(٣) انظر: «رسائل الإصلاح»، للشيخ محمد الخضر حسين، (٢/ ٨٢).
(٤) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ١٨٩.
(٥) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، (٣/ ١٧١).

مُقَدَّمتِهم أُوْلُو العَزْمِ من الرُّسُل، وعلى رأسهم خاتمهم محمَّد ﷺ، الذي خاطبه المولى ﷻ قائلاً: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقد تَجلّت هِمَّتُهم العالية في مُثابَرتهم وجهادِهم ودعوتِهم إلى الله ﷻ، كما أوضحه اللهُ تعالى في قصص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين[١].

أمَّا الآياتُ التي وردتْ فيها أمرُ اللهِ ﷻ المؤمنين بالهِمَّة العالية، والتَّنافُسِ في الخيرات فهي: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، و﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥٧]، و﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

كما وَرَدَتْ في السُّنّة النبوية نصوصٌ كثيرةٌ تَدُلُّ الْمُؤمِنين على الْحَثِّ على الْهِمَّة العالية، ومنها:

١ ـ عن الْحُسَيْن بن عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِي الأُمُوْرِ[٢] وأَشْرَافَهَا، ويَكْرَهُ سَفْسَافَها»[٣].

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ»[٤].

---

(١) علو الهمة، للشيخ محمد بن إسماعيل المقدَّم، ص١٢٦، ١٢٨، بتصرف يسير.

(٢) معالي الأمور: قال العلامة المناوي في شرحها: «وهي الأخلاق الشرعية، والخصال الدينية، لا الأمور الدنيوية، فإنَّ العلوَّ فيها نزول». (فيض القدير، ٢/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٢٨٩٤)، وقال الهيثمي: «فيه خالد بن إلياس، ضعَّفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات»، (مجمع الزوائد: ٨/ ١٩١).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب القدر، باب: الإيمان بالقدر والإذعان له، برقم: (٢٦٦٤).

٣ ـ وعنه أنَّ النبي ﷺ قال: «لَوْ كَانَ الإِيْمانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا؛ لَذَهَبَ به رَجُلٌ مِنْ فَارِسَ ـ أو قال ـ مِن أَبْنَاءِ فَارِسَ؛ حَتَّى يَتَنَاوَلَهُ»(١).

كذلك وَرَدَتْ في السُّنّة نصوصٌ عديدةٌ عَلَّمَنا فيها الرسولُ ﷺ عُلُوَّ الهمةِ في الدعاء، ومنها:

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان لرسول الله ﷺ دَعَواتٌ لا يَدَعُهُنَّ، كان يقول: «اللَّهُمَّ إنّي أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ، والْحَزَنِ، والْعَجْزِ، والْكَسَلِ، والبُخْلِ، والْجُبْنِ، والدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»»(٢).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَأَلْتُم الله فَاسْأَلُوْهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجّرُ أَنْهَار الْجَنّةِ»(٣).

كما أُثِرَتْ عن السَّلَف أقوالٌ كثيرةٌ في عُلُوّ الهِمّة، ومن أحسنها:

١ ـ قولُ عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «لا تَصْغُرَنَّ هِمّتَكم؛ فإنّي لَمْ أرَ أقعَدَ عن الْمَكْرُمات مِنْ صِغَر الْهِمَم»(٤).

٢ ـ وقولُ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

إذا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ الرِّجَالِ كَفَتْكَ القَناعَةُ شَبْعاً ورِيّاً

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، برقم: (٢٥٤٦).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الصغرى، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من الهم، برقم: (٥٤٥٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم: (٢٧٩٠).

(٤) أدب الدين والدنيا، للماوردي، ص٣١٩.

فـكُـنْ رَجُـلاً رِجْـلُـه فِـي الـثَّـرَى   وهـامَـةُ هِـمَّـتِـه فِـي الـثُّـرَيّـا[(١)]

٣ ـ وقولُ الإمام مالكِ بن أنس (ت١٧٩هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «عليك بِمَعالِي الأمورِ وكَرائمها، وَاتَّقِ رذائلَها وما سَفَّ منها»[(٢)].

٤ ـ وقـولُ الـحـافـظِ ابـن الْـجَـوْزِيّ (ت٥٩٧هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «مـن كـمـالِ العقلِ: عُلُوُّ الْهِمّةِ، والرَّاضي بالدُّوْنِ دَنِيٌّ، قال الشاعر:

إذا مـا عَـلَا الْـمَـرْءُ رَامَ الْـعُـلَـى   ويَقْنَعُ بالدُّوْنِ مَن كان دُوْنا!»[(٣)]

٥ ـ وقولُ الإمامِ ابن قَيِّم الْجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فمَن عَلَتْ هِمّتُه، وخَشِعَتْ نفسُه؛ اتَّصَفَ بكلِّ خُلُقٍ جميلٍ. ومَن دَنَتْ هِمّتُه، وطَغَتْ نفسُه؛ اتَّصَفَ بكلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»[(٤)].

وفيما وَرَد في تلك الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وأقوال السَّلَف الصالِح النَّيِّرَة من الْحَثِّ على الاتِّصاف بعُلُوِّ الهمةِ؛ فإنه دليلٌ واضحٌ على أهمية ذلك في حياة المؤمن ولا سيما في حياة طالب العلم، فينبغي للطالب أن يَتَحَلَّى بهذه الصِّفَة الكريمة، ولْيَكُنْ شِعارُه في ذلك قولَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وإنَّ «عُلُوّ الْهِمّةِ» تَجلِب للطالب ـ بإذن الله تعالى ـ خيراً غير مجذوذٍ ليَرقى إلى درجات الكمال، وتُجري في عُروقه دمَ الشَّهامةِ، والرَّكْضَ في ميدان العلم والعمل، فلا يُرَى واقفاً إلّا على أبواب الفضائل، ولا باسِطاً يديه إلا لِمُهِمّات الأمورِ، كما أنَّ تَحَلِّي الطالبِ بهذه الصفةِ يَسلُب منه

---

(١) ديوان عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ص١٦٠.

(٢) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، (٢/ ٦٥).

(٣) صيد الخاطر، ص١٥.

(٤) الفوائد، لابن قيم الجوزية، ص١٤٤.

سَفاسِفَ الآمالِ والأعمالِ، ويَجْتَثُّ منه شجرةَ الذُّلِّ، والْهَوان، والتَّمَلُّقِ، والْمُداهَنةِ، فعليه أن يَرسُم لنفسه عُلُوَّ الهمةِ، ولا يَنفلِت منها[1]، والتي يجب أن تَتمثَّل فيه في أمور آتية:

١ - غَيْرَةٌ على الوقت أن يُنفَق في غير فائدة.

٢ - وعَزْمٌ يُبْلِي الْجَدِيدان وهو صارمٌ صقيلٌ.

٣ - وحِرْصٌ لا يَشْفِي غليلَه إلَّا أن يغترف من مَوارِد العلوم بأكوابٍ طافحةٍ.

٤ - وغَوْصٌ في البحث لا تَحُوْلُ بينه وبين نَفائس العلومِ وُعُوْرَةُ الْمَسْلَكِ، ولا طولُ مَسافةِ الطَّريقِ.

٥ - وأَلْسِنَةٌ مُهَذَّبةٌ لا تَقَعُ في لَغْوٍ ومُهاتَرةٍ[2].

لقد كان حالُ سَلَفِ الأُمّةِ في طلب العلم، ونشرِه، والتصنيفِ فيه حالاً عجيباً، استثمروا فيه أوقاتَهم، وأَفْنَوْا شبابَهم، فحَصَّلُوا ما يُدهِش العقولَ، ويُبهِر الألبابَ، ويَستَنهِضُ الْهِمَمَ، فكانت أقدامُهم في الثَّرَى وهِمَمُهم في الثُّرَيّا، فليَقرَأ الطالبُ لرفع هِمَّتِه، وللاقتداء بهم، والسَّيْر على سُنَنِهم: الكُتُبَ التي اخْتَصَّتْ بذِكر أخبارهم، مثل: كتاب «صفحات من صبر العلماءِ على شدائد العلم والتَّحصيل» للشيخ عبد الفتَّاح أبو غُدَّة (ت١٤١٧هـ)، وكتاب «عُلُوّ الهِمّة» للشيخ محمد بن إسماعيل المقدَّم، وكتاب «نُزْهَة الفُضلاء في اختصار سِيَر أعلام النُّبَلاء» للدكتور محمد بن موسى الشريف.

---

(١) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٤٩، ٥٠، بتصرف يسير.

(٢) علو الهمة، للشيخ محمد بن إسماعيل المقدَّم، ص١٤٤، بتصرف يسير.

١٢ ـ التحلِّي بالصَّبْر:

قِيل في معانِي «الصَّبْر» أنه: حملُ النَّفْس على الْمَكارِه، وتَجرُّعُ الْمَرارة، وتحمُّلُ المشاقِّ في حصول شيءٍ[(١)].

وطلبُ العلمِ مِن مَعالي الأمور، وأسمى الْمَقاصِد، والعُلا لا يُنال إلَّا بعد التَّعَب والصَّبْر، وكما «لا بُدَّ لنَيْل كُلِّ مرغوبٍ محبوبٍ، مِن تَنازُلٍ عن مرغوبٍ محبوبٍ دُوْنَه، فكذلك العلمُ مرغوبٌ سامٍ، ومحبوبٌ غالٍ، وشرفٌ رفيعٌ، ومطلبٌ صعبُ الْمَسالِك، كثيرُ العَقَبات، لا يُمكِن بلوغُه إلَّا بتَنازُلاتٍ كثيرةٍ، وتَضْحِياتٍ كبيرةٍ في المال، والوقتِ، والرَّاحةِ، وأُنْسِ الأهل والأصحاب، وسائرِ الْمُتَعِ الْمَشرُوعة»[(٢)]، ولهذا قِيل قديماً: «العِلمُ شيءٌ لا يُعطيك بعضَه حتى تُعطِيَه كُلَّكَ»[(٣)].

لقد ذاقَ علماؤُنا الأسلاف أنواعاً من الصَّبْر على شدائد العلم وتحصيله، في الرِّحلة، وفي الغُرْبَة، وفي مَشَاقِّ الطريق، وشِدَّةِ الْجُوع، وغيرِ ذلك.

وأوّلُ مَن ذاقَ مرارةَ الصَّبْرِ في طلب العلم هو نبيُّنا موسى كليم الله عليه السلام، فهو مع عظمِ مكانتِه ومنْزلتِه عند الله ربِّ العالمين قد رَحَل إلى الْخِضْر ـ عليه السلام ـ ليتعلَّم منه ما علَّمه اللهُ مِمَّا لا يَعْلَم هو عليه السلام، فخاضَ البحر، وتحمَّل الْمَشَاقَّ حتى أَجْهَدَ نفسَه في سبيل ذلك حتى قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ١٨]، وحين أدرك الْخِضْرَ ـ عليه السلام ـ بعد التَّعَب

---

(١) انظر: «موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» للتهانوي، (٢/ ١٠٥٧).

(٢) صفحات من صبر العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص١١١، بتصرف يسير.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ١٧٤)، برقم: (١٥٢٣)، وقائله: الإمام القاضي أبو يوسف الكوفي (ت١٨٢هـ) ـ رحمه الله ـ.

وذاك الْمَشَقَّة؛ سأله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وبذلك نال - عليه السلام - عنده بُغْيَته، ووَجَد ضالَّته.

أمَّا «أخبارُ العلماءِ في هَجْر الدَّعَة واللَّذَّاذات، والانهماكِ في العِلم، والتَّرامِي على أبواب الشُّيوخ ومُلازَمتهم، والصَّبْرِ على تبايُن طبائعِهم، والتأدُّبِ معهم، ورعايةِ راحتهم لنَيْل المطلوب العزيز الغالي منهم (العلم)؛ فإنها كثيرةٌ لا تُحْصَى»[1]، وقد ذَكَر الكثيرَ منها العالِمُ الربّاني الشيخ عبد الفتَّاح أبو غُدَّة (ت١٤١٧هـ) - رحمه الله - في كتابه الْمَاتِع الْمُمتِع الْمُفيد «صفحاتٌ من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، فليَرجِع إليه كلُّ طالبٍ يَنشُد الاستزادةَ من سِيَر علماء الأمة الأبرار، الصَّفْوَة الأطهار، ليقف على عجائب صبرِهم في طلب العلم، ونفائسِ مواقفهم والأخبار.

فعلى الطالب أن يتحلَّى بالصَّبر في طلب العلم، وأن يَجتهِد في تحصيله، وأن يتحمَّل في سبيل ذلك ما قد يُلاقيه من شِدَّة بعض الشيوخ والأساتذة، ففي ذلك خيرٌ عظيمٌ ونفعٌ عميمٌ، قال الإمام يَحْيَى بن أبي كثير (ت١٣٢هـ) - رحمه الله -: «لا يُسْتَطاع العلمُ براحة الجِسْم»[2]، وليَكُنْ شِعارُه دائماً: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

١٣ - تقديمُ الأهَمِّ على الْهامِّ في طلب العِلم:

ينبغي للطالب في أوّل عهده بطلب العلم: أن يَصرِف ذِهْنَه القويَّ، ووقتَه الغالي النفيس في طلب ما هو الأَهَمُّ من العلوم؛ لأنَّ «من العِلم ما يكون خفيفَ العائدةِ، قليلَ الفائدةِ، تحصيلُه كمالٌ، وفَقْدُه ليس بنقصٍ،

---

(١) العبارة بين القوسين للشيخ أبو غدة، في كتابه «صفحات من صبر العلماء»، ص١١٢.

(٢) الفقيه والمتفقه، للحافظ الخطيب البغدادي، (٢/ ٤٦٧).

ونفعُه قليلٌ، والحاجةُ إليه أقَلُّ، فمِثلُ هذا لا تُصرَف فيه الأوقاتُ، ولا تُشغَل به النفوسُ والأذهانُ، فإنَّ الاشتغال بالمفضول عائقٌ عن الوصول إلى الفاضل والأفضل، ومُستهلِكٌ من الوقت ونشاطِ الجسم ما يَقْعُد بالْمَرْء عن بُلوغ ما يُحِبّ ويُريد»[١]، قال الشّاعرُ صالِحُ بن عبد القُدُّوْس (ت١٦٠هـ):

وإذا طَلَبْتَ العِلمَ فاعْلَمْ أنه ... حِمْلٌ، فأَبْصِرْ أيَّ شيءٍ تَحمِلُ
وإذا عَلِمْتَ بأنه مُتَفاضِلٌ ... فاشْغَلْ فُؤادَك بالَّذي هو أفضَلُ

كما يجب على الطالب قبل أن يَشرَع في طلب العلم أن يتعلَّم كيف يَتعلَّم، وما هو النَّهْجُ الأمثلُ لذلك، قال الإمام ابن سِيْرين (ت ١١٠هـ) ـ رحمه الله ـ: «العلمُ أكثَرُ مِن أن يُحاط به، فخُذوا مِن كلِّ شيءٍ أحسَنَه»[٢].

وقال الشاعر:

لن يَبلُغ العلمَ جميعاً أحدٌ ... لا ولو حاوَلَه ألفَ سَنَهْ
إنما العلمُ عَميْقٌ بَحْره ... فخُذُوْا مِن كلِّ شيءٍ أَحْسَنَهْ[٣]

وقال الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ رحمه الله ـ: «العلمُ كالبِحار المتعذِّر كَيْلُها، والْمَعادِنِ التي لا يَنقطِع نَيْلُها، فاشْتَغِلْ بالْمُهِمِّ منه، فإنه مَن شَغَل نفسَه بغير الْمُهِمِّ؛ أَضَرَّ بالْمُهِمِّ»[٤].

وقال الإمام عليّ بن محمد الْمَاوَرْدِي (ت٤٥٠هـ) «اعْلَمْ أنَّ للعلوم أوائل

---

(١) النصُّ الوارد بين القوسين من كلام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء»، انظر صفحة: ١٩٢، ١٩٣.
(٢) مختار العقد الفريد: ص١١.
(٣) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص١٩٢، ١٩٣.
(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (١٢/١٢٦).

تؤدِّي إلى أواخرها، ومَداخِل تُفضي إلى حقائقها، فليَبتدئ طالبُ العلمِ بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبِمَداخِلها ليُفضي إلى حقائقها، ولا يَطلُب الآخرَ قبل الأوّل، ولا الحقيقةَ قبل الْمَدخَل، فلا يُدرِك الآخرَ، ولا يَعرف الحقيقةَ؛ لأنَّ البناء على غير أُسٍّ لا يُبْتَنَى، والثَّمَرَ من غير غرسٍ لا يُجْتَبَى»(١).

وكان أئمةُ الحديثِ ـ رحمهم الله تعالى ـ يَحُثّون طُلَّابهم على لزوم الاشتغالِ بالْمُهِمِّ وتقديمِه على غير الْمُهِمّ في رواية الحديثِ وسماعه، ولهم في ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، وها أنا أسوق بعضاً منها:

يقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي (ت١٩٨هـ) رحمه الله: «لا يكون إماماً في العلم، مَن أَخَذ بالشَّاذِّ مِن العلم، أو رَوَى عن كلِّ أحدٍ، أو رَوَى كُلَّ ما سَمِعَ»(٢).

وقال أيضاً: «لا ينبغي للرجل أن يَشْغَل نفسَه بكتابة أحاديثِ الضِّعاف، فإنَّ أقَلَّ ما فيه أن يَفُوْتَه بقَدْر ما يَكتُب من حديثِ أهل الضَّعف، يفوته من حديث الثِّقات»(٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ـ رحمه الله ـ مُوَضِّحاً حالَ مَن تَرَك الْمُهِمَّ واشتغل بغير الْمُهِمِّ: «تركوا الحديثَ وأقبلوا على الغرائب، ما أقَلَّ الفقهَ فيهم!»(٤). أي ما أقَلَّ الفهمَ فيهم؛ لأنهم تركوا مشهورَ الحديثِ وصَرفُوا جُهْدهم لغريبه وشاذِّه(٥).

---

(١) أدب الدين والدنيا، للماوردي، ص٨٤.

(٢) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بالكتاب العزيز، لابن أبي شامة المقدسي، ص١٧٩.

(٣) الكفاية في علم الرواية، للحافظ الخطيب البغدادي، ص١٣٣.

(٤) الكفاية في علم الرواية، للحافظ الخطيب البغدادي، ص١٤٢.

(٥) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص ١٩٣.

أمَّا إذا أخذ الطالبُ حَظّاً وافراً من العُلوم الْمُهِمَّة فعليه عندئذٍ أن يَجتهِد في الاطّلاع على مختلف علوم عصره، بحيث يَعلَم شيئاً عن كل شيءٍ، كما قال حُجّةُ الإسلام الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «أنْ لا يَدَع طالبُ العلمِ فنّاً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً مِن أنواعه؛ إلَّا ويَنظُر فيه نظراً يَطّلِع به على مقصده وغايته. ثم إنْ ساعَدَه العُمْرُ؛ طَلَبَ التَّبَحُّرَ فيه، وإلَّا اشتغل بالأهمِّ منه واستوفاه، وتَطَرَّفَ من البقية؛ فإنَّ العلوم متعاونةٌ، وبعضها مرتبطٌ ببعضٍ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العِلم بسبب جهله؛ فإنَّ الناس أعداءُ ما جهلوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]»(١).

وفي ذلك قال ـ أيضاً ـ الإمامُ ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «يَعْتَنِي [الطالبُ] مِن كُلّ فَنٍّ بالأهَمِّ فالأهَمِّ، ولا يَغْفَلَنْ عن العمل الذي هو المقصود، أمَّا إذا تَحَقَّقَتْ أهليتُه، وتَأَكَّدَتْ معرفتُه؛ فالأَوْلَى أن لا يَدَعَ فنّاً من العلوم الشَّرعية إلَّا نَظَر فيه، فإنْ ساعَدَه القَدَرُ، وطولُ العُمْرِ على التبحُّر فيه فذاكَ، وإلا فقد استفاد منه ما يَخرُج به مِن عداوة الجهل بذاك العلم»(٢).

فأَقْبِلْ أيها الطالب على البدء بالأهَمِّ قبل المهمِّ، فالعلومُ كثيرةٌ، والعمرُ قصيرٌ، وتفويتُها كلُّها غبنٌ، والتخبُّطُ في تحصيلها دون هدى حمقٌ، والكَيِّسُ من حَصَّل الأهمَّ فالمهمَّ(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (١/ ٥٥).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١٠٤.

(٣) حفظ الله السنة وصور من حفظ العلماء لها وتنافسهم فيها، للأستاذ أحمد بن فارس السلوم، ص١٤٣.

ولكن للأسف إنَّ «كثيراً مّا يُزَيَّنُ لطالب العلم، ويَحْلُو له أيامَ الامتحان: قراءةُ العلمِ الذي ليس مُطالَباً به في الاختبار، ويأتيه العُزُوْفُ عن العلم الْمُطالَب به (الْمُهِمِّ)، وهذا من مَرَض النَّفْسِ وضَعْفِ الهِمَّة والنَّشاط، فإنَّ العلم الْمُطالَب به فيه تكليفٌ وإلزامٌ وتحمُّلٌ وأداءٌ، فهو ثقيلٌ على النفس الوانية. والعلمُ غيرُ الْمُطالَب به لا تكليفَ به، فهو خفيفٌ على النفس، فليَحذَر العاقلُ الاستجابةَ لِهَوَى نفسِه، فإنَّ هذا من سَرِقة الشيطان له، وانحرافِه عن الصَّواب والْمُهِمِّ، واللهُ الهادي»(١).

١٤ ـ التَّدَرُّجُ في طلب العلم:

ينبغي في هذه المرحلةِ أن يكون هَمُّ الطالبِ في طلب العلم على سبيل التدرُّج، وقد قيل: إنَّ «التدرُّج مِعْراجُ التخرُّجِ»، ومَن طَلَب العلمَ جملةً فاتَه جملةً، وقال الإمام ابن شهاب الزُّهْرِي (ت١٢٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «لا تأخُذ العِلمَ جُملةً، فإنَّ مَن رامَ أَخْذَه جُملةً؛ ذَهَب عنه جُملةً، ولكنَّ الشيءَ بعد الشَّيء مع اللَّيالِي والأيام»(٢)، ولعلَّ في هذا بعض الحكمةِ في نُزول القرآنِ الكريم مُنَجَّماً على مَدَى سِني البعثة، وأَمَر اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقرَأه على النّاس على مُكْثٍ، فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قال المورِّخ ابنُ خَلْدُوْن (ت٨٠٨هـ) ـ رحمه الله ـ في أهمية التدرُّج في طلب العلم: «إنَّ الحِذْق في العلم والتفنُّنَ فيه، والاستيلاءَ عليه، إنما هو بحصول مَلَكةٍ في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوُقوفِ على مسائله،

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ أبو غدة، ص١٩٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/٣٥٩)، برقم: (٦٥٢).

واستنباطِ فروعه من أصوله، وما لم تَحصُل هذه الْمَلَكةُ؛ لم يكن الحِذْقُ في ذلك المتناول حاصلاً»[١].

لذلك لا ينبغي للطالب أن يُحَمِّل نفسَه ما لا تُطيق لئلَّا تَسْأَمَ وتَمَلَّ، بل يَقتصِر على اليسير الذي يَضبِطه ويُحكِم حِفْظَه، ويُتقِنه، وألا يتعجَّل بأخذ الكثير؛ لأنَّ القَدْرَ القليلَ يَسهُل فهمُه وحفظُه ومراجعتُه، وإذا كَثُرَ طلبُه للعلم عن قَدْره المستطاع فيُخشَى عليه من ضياعه وتفلُّتِه.

و«النصيحةُ إلى الَّذين يَستعجِلون في تحصيل العلم: أن يَنظُروا سُنَنَ اللهِ ـ تبارك وتعالى ـ في كَوْنِه لكي يَعتبِروا، فالشَّجَرةُ لا تكون شجرةً كبيرةً، مُتفَرِّعَةَ الأغصانِ، غَزِيْرَةَ الثِّمَارِ إلَّا بعد مرحلةٍ طويلةٍ من التَّربية والعِنايةِ والإعدادِ. وهكذا العَقْلُ البَشَرِيُّ، فطاقتُه محدودةٌ، تَحتَاجُ مِثلَ هذه العنايةِ والإعدادِ، والصَّبْرِ الطَّويلِ في ذلك»[٢].

وتَعْقِبُ مرحلةَ «التدرُّجِ» في طلب العلوم الشرعيةِ، مرحلةُ «التخصُّصِ» في علمٍ مُعَيَّنٍ من تلك العلوم، وسيأتي الحديثُ عنها في آخر هذا المبحث.

١٥ ـ الحَذَرُ من الخوضِ في الخِلافِيّات ومن الانشغال بالشُّبُهات:

ينبغي على الطالب أن يَحْذَر أثناء طلبه للعلم من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء، فإنَّ الاشتغال بذلك في هذه المرحلةِ يُحَيِّر ذِهْنَه ويُدْهِشُ عقلَه. فعليه أن يُركِّز أوّلاً كُلَّ التَّركيزِ على إتقان كتابٍ واحِدٍ في فنٍّ واحدٍ على طريقةٍ واحدةٍ يرتضيها له شيخُه أو أستاذه.

كما يجب عليه في هذه المرحلةِ أن يَحْذَر من الْمُطالَعات في تفاريق

---

(١) مقدمة ابن خلدون، (١/ ١٠١٩).

(٢) من أدب المحدِّثين في التربية والتعليم، للدكتور أحمد محمد نور سيف، ص٨٥، بتصرُّف يسير.

المصنَّفات، فإنه يُضَيِّعُ وقتَه ويُفَرِّقُ ذِهْنَه، بل عليه أن يُعطِي الكتابَ الذي قَرَأه، أو الفنَّ الذي يأخذه كُلِّيّة حتى يُتقِنَه(١).

وكذلك لا ينبغي للطالب أن يَشغُل نفسَه في هذه المرحلة بالشُّبُهات الْمُثارة على أَلْسِنَة أعداءِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرةِ حول السُّنَّةِ وحُجِّيَّتِها وتشريعيتِها، إلَّا بعد رُسوخ قدمِه في علم الحديث روايةً ودرايةً، ومعرفة الحقِّ.

فإنَّه إنْ شَغَل نفسَه بمثل تلك الشُّبُهَات وهو في أوَّل أمره في طلب العلم؛ يُخشى عليه أن يتعلَّق بعضٌ منها بذِهْنه، ولا يَجِدُ لها جواباً فتَستقِرُّ في قلبه، وقد تَمنعه من قبول الْحَقِّ بعد ذلك(٢).

أمّا إذا اضْطَرَّت الطالِبَ حاجةٌ إلى قراءة كتابٍ من كُتُب المستشرقين أو غيرِهم من كُتُب الْمُعادين للإسلام سواء أكان في السنة النبوية أو في غيرها، فينبغي له أن يَستشير أولاً من شيوخه أو أساتذته، فيَقرأ ما يَختارونه له من الكتب، ويَرجِع إليهم إذا التوى عليه فهمُ محتوياته.

١٦ ـ الحِرْصُ على انتقاء الأصحاب:

ومما ينبغي للطالب أثناء اشتغاله بطلب العلم: أن يَحرِص على اتّخاذ أصحابٍ له عليهم سِمَاتُ طَلَبَةِ العلم الحقيقيِّين، حتى تَترُك صحبتُه لهم أثراً طيباً في نفسه وفي شخصيّته.

كما يجب عليه أن يَبتعِد كُلَّ الابتعادِ عن الذين يَتَزَيَّوْنَ بزيِّ طَلَبَةِ العلم والعلمُ في مَنْأًى عنهم، فصحبةُ أمثالِهم تَترُك في نفسه وفي شخصيّته أثراً سيّئاً يُعيقه عن مُواصَلة مسيرته العلمية، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(١) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة، ص١٠٤.
(٢) آداب طالب الحديث الشريف، للدكتور الخشوعي الخشوعي محمد، من «موسوعة علوم الحديث الشريف»، (١/ ٣٠).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيْسِ الصَّالِحِ وَجَلِيْسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيْرِ[١]. فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[٢]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيْحاً طَيِّبَةً. وَنافِخُ الْكِيْرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيْحاً مُنْتِنَةً»[٣].

وفي هذا الحديث: تحذيرٌ من مُصاحَبة الأشرار الذين تُؤذِي مجالَستُهم في الدُّنيا والآخرة، وترغيبٌ بِمُصاحَبة الأخيار الذين تُفيد مُجالَستُهم فيهما.

وتشبيهُ النبيِّ ﷺ في هذا الحديثِ الصَّدِيْقَ الصَّالِح ببائع الْمِسْك دليلٌ على تأثيرِ الأخلاق الحسنة، وانعكاس ذلك على الأصحاب بسبب الْمُحاكاةِ. وكذلك تشبيهُه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ الصَّدِيْقَ السَّيِّء بنافخ الكِيْر دليلٌ على انتقال الأخلاق الرديئة إلى الآخرين[٤].

لذلك يجب على الطالب أن يكون حريصاً على انتقاء أصحابٍ له مِن طَلَبَة العلم النُّبهاء، الذين يُعينونه في مسيرته العلمية، ويُشَجِّعونه على الاستمرار فيه، يقول الإمام ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رحمه الله ـ مُخاطِباً الطالب: «احرصْ على اتِّخاذ صاحبٍ صالِحٍ في حاله، كثيرِ الاشتغال بالعلم، جيِّدِ الطَّبع، يُعِيْنُك على تحصيل مَقاصِدك، ويُساعِدك على تكميل فوائدك، ويُنَشِّطك على زيادة الطلب، ويُخَفِّف عنك الضَّجَرَ والنَّصَبَ، موثوقاً بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه، ويكون ناصحاً لله غير لاعبٍ

---

(١) الكِيْرُ: الذي يُنفَخ به النار. (النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، ٢/ ٥٧٥).
(٢) أي: يُعطيك.
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب البيوع، باب: في العطار وبيع المسك، برقم: (٢١٠١)، وكتاب الذبائح، باب: المسك، برقم: (٥٥٣٤)، ومسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة، باب: استحباب مجالسة الصالحين، برقم: (٢٦٢٨).
(٤) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، للدكتور سعيد الخن، (١/ ٢٨٥).

ولا لاهٍ»[١]، و«صالِحاً، دَيِّناً، تَقِيّاً، وَرِعاً، زكيّاً، كثيرَ الخيرِ، قليلَ الشَّرِّ، حَسَنَ الْمُدارَاةِ، قليلَ الْمُماراةِ، إنْ نَسِيْتَ ذَكَّرك، وإنْ ذَكَرك أعانَك، وإن احْتَجْتَ واسَاك، وإنْ ضَجِرْتَ صَبَّرك»[٢].

كما يجب على الطالب أن يتجنَّب قُرَناء السّوء، الذين «يَصُدُّونه عن طلبه للعلم إمَّا بتضييع الأوقات باللعب، بل ربما في الحرام، وإمَّا بإشغال وقتِه في الكلام في فلانٍ وفلانٍ، واستمراءِ لُحوم العلماء والدعاة»[٣]، فعليه أن يَحذَر أشدَّ الحذرِ مِن مُجالَستهم، فالعلمُ لا يكون إلا بالعُزْلَة، وأضَرُّ شيءٍ عليه كثرةُ الخلطةِ، قال الإمام ابن جماعة رَحِمَهُ اللهُ: «والذي ينبغي لطالب العلم: أن لا يُخالِط إلا مَن يُفيده أو يَستفِيد منه، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «اغْدُ عالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً، وَلَا تَكُن الثَّالِثَ فَتَهْلَكَ»[٤]. فإنْ شَرَع [الطالبُ] أو تعرَّض لصُحبة مَن يَضِيع عمرُه معه ولا يُفيده ولا يَستفِيد منه ولا يُعينه على ما هو بصدده؛ فليتلطَّفْ في قَطْع عَشِيرته في أوّل الأمرِ قبلَ تمكُّنها، فإنَّ الأمور إذا تمكَّنتْ عَسُرَتْ إزالتُها، ومِن الجاري على أَلْسِنَة الفقهاء: الدَّفْعُ أسهَلُ مِن الرَّفْع»[٥].

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١٢٩، بتصرف يسير.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٨٧، بتصرُّف يسير.
(٣) العبارةُ بين القوسين للشيخ حاتم بن عارف العوني، انظر: «السبل المرضية»، ص٣٤٠.
(٤) أخرجه البزّار في المسند، برقم: (٣٦٢٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، (٣/ ٢٢٩) وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «اغْدُ عالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً، أَوْ مُسْتَمِعاً أَوْ مُحِبّاً، وَلَا تَكُن الْخَامِسَ فَتَهْلَكَ»، والحديث موضوع، انظر: «ضعيف الجامع»، للألباني، رقم: (٩٨١).
(٥) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٨٧.

كما ينبغي للطالب أن يتحلَّى بالآداب الحسنة مع مَن يُصاحِبه أو يُصادِقه، فمثلاً أن:

١ ـ يَتواضَع لهم، ولا يتكبَّر أو يتعالَى عليهم بما أُوْتِي من قُوّة حافظةٍ أو حضورِ بديهةٍ، فإنَّ ذلك من النِّعَم التي تُقَيَّد بالشكر.

٢ ـ يَتعاوَن معهم في الاستفادة والإفادة، ولا يتكبَّر عن التعلُّم منهم والتعليم لهم.

٣ ـ يُحِبّ لهم من الخير والعلم ما يُحِبّ لنفسه.

٤ ـ لا يُكثِر الْمِزاحَ معهم، أو يَسْخَر بأحدهم، أو يَحسُدهم.

١٧ ـ مُذاكَرة العِلم:

يُقصَد «الْمُذاكَرَة» عند العلماء: طَرْح موضوعٍ للبحث بين اثنَيْن أو أكثَر، وقد يكون الموضوعُ مسألةً فِقهيةً، أو حديثيّةً، أو لُغَوِيّةً، أو نَحْوِيّةً، أو غير ذلك(١).

و«لِلْمُذاكَرة» فوائدُ جَمّةٌ، منها أنها: تَشحَذ الذِّهْنَ، وتُقَوِّي الذاكرةَ، وتُثَبِّتُ ما حَفِظَه وقَرَأه الطالبُ من العلوم، كما أنها تَترُك أثراً بالغاً في تكوين شخصيتِه العلمية.

ولذلك كَثُرَتْ في أهميتها أقوالُ السَّلَفِ، منها:

١ ـ قولُ عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «تَزَاوَرُوْا وتَدَارَسُوْا(٢) الحديثَ، ولَا تَتْرُكُوه يَدرُس»(٣)، يعني: يُنسَى.

---

(١) انظر: «الجرح والتعديل»، للدكتور إبراهيم بن عبد الله اللاحم، ص٦٢.

(٢) أي: تَذاكَرُوا.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ٢٣٦)، برقم: (٤٦٥).

٢ ـ وقولُ أبي سعيد الْخُدْرِيّ رضي الله عنه: «تَحَدَّثُوا وتَذاكَرُوا، فإنَّ الحديث يُذَكِّر بعضُه بعضاً»[١].

٣ ـ وقولُ التابعيِّ الإمام عبد الرحمن بن أبي لَيْلى الأنصاري (ت٨٣هـ) ـ رحمه الله ـ: «إحياءُ الحديثِ مُذاكَرتُه، فتَذاكَرُوا»[٢].

٤ ـ وقولُ إمام العربيةِ الخليل بن أحمد الفَرَاهِيْدِيّ (ت١٧٠هـ) ـ رحمه الله ـ: «ذاكِرْ بعِلْمِكَ؛ تَذْكُر ما عندك، وتَسْتَفِدْ ما ليس عندك»[٣].

وللإمام النَّوَوِيّ (ت٦٧٦هـ) نصيحةٌ قَيِّمَةٌ في إدراك أهميةِ «الْمُذاكَرة» ومعرفةِ فوائدِها والتحلِّي بآدابِها، التي وَجَّهها ـ رحمه الله ـ إلى طالب الحديث، فقال:

«وليس المرادُ مِن هذا العلمِ[٤] مُجَرَّدَ السَّماع، ولا الإسماع، ولا الكتابة. بل: الاعتناءُ بتحقيقه، والبحثُ عن خَفِيِّ معانِي المتون والأسانيد، والفكرُ في ذلك، ودَوَامُ الاعتناءِ به، ومراجعةُ أهل المعرفة به، ومطالعةُ كتب أهل التحقيق فيه، وتقييدُ ما حصَّل من نفائسِه وغيرِها، فيَحفَظُها الطالبُ بقلبه، ويقيِّدها بالكتابة، ثم يُدِيْم مطالعةَ ما كَتَبَه، ويتحرَّى التحقيقَ فيما يَكتُبه ويتثبَّت فيه، فإنه فيما بعد ذلك يصير معتمداً عليه.

ويُذاكِر بمحفوظاته مِن ذلك مَن يَشتغِل بهذا الفنِّ، سواء كان مِثْله في

(١) المرجع السابق، (١/ ٢٣٧)، برقم: (٤٦٨).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٣٧٥)، برقم: (٧٠٧).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٧٤)، برقم: (١٨٣٤).
(٤) أي: علم الحديث النبوي.

المرتبة، أو فوقَه، أو تحتَه، فإنَّ بالمذاكرة يَثْبُتُ المحفوظُ ويَتَحَرَّرُ، ويَتَأَكَّدُ ويَتَقَرَّرُ، ويَزْدَادُ بحَسَبِ كثرةِ الْمُذاكَرة.

ومُذاكَرةُ حاذِقٍ في الفَنِّ [(١)] ساعةً؛ أنفَعُ من الْمُطالَعةِ والحِفظِ ساعاتٍ، بل أيّاماً.

ولْيَكُن [الطالبُ] في مُذاكَرته مُتَحَرِّياً الإنصافَ، قاصداً الاستفادةَ أو الإفادةَ، غيرَ مُتَرَفِّعٍ على صاحبه بقلبه ولا بكلامِه، وبغيرِ ذلك مِن حالِه، مُخاطِباً له بالعبارة الجميلة اللَّيِّنَة، فبهذا يَنْمُو عِلمُه، وتَزْكُوْ محفوظاتُه، والله أعلَمُ»[(٢)].

أمَّا بالنِّسبة لأنسب الأوقاتِ للمُذاكَرة فيقول الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضَلُ الْمُذاكَرةِ مُذاكَرةُ اللَّيلِ»[(٣)].

كما أنَّ مِن أنفَع أنواعِ «الْمُذاكَرة» للطالب ما يَقُوم به مع أقرانه وزُملائه، وإنْ لم يَجِدْ مَن يُذاكِره؛ فعليه أن يُذاكِر نَفْسَه بنفسه، ويُكَرِّر معنى ما سَمِعَه ولَفْظَه على قلبه؛ ليَعْلَقَ ذلك على خاطِره، فإنَّ تكْرار المعنى على القلب كتكْرار اللَّفْظِ على اللِّسان سَوَاءً بسواءٍ[(٤)].

١٨ ـ تقييدُ العلمِ بالكتابة:

إنَّ تقييد الطالبِ الفوائدَ والنُّكَتَ (التي يَجتنيها أثناء مطالعته للكتب أو سماعه لدروس الشيوخ والأساتذة) بالكتابة في دفترٍ أو مذكّرةٍ منهجٌ جميلٌ

---

(١) يعني: مَن له معرفةٌ ودرايةٌ جيدةٌ بالعلم الذي سيُذاكِره فيه.

(٢) انظر: «مقدمة المجموع شرح المهذب» للإمام النووي، (١/٣٨).

(٣) الفقيه والمتفقه: للحافظ الخطيب البغدادي، (٢/٢٦٦).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرُّف يسير، ص١٠٨.

ومفيدٌ له غاية الفائدة طُول حياته، ففيه «أمانٌ له من الضَّياع، وقَصْرٌ لمسافة البحث عن الاحتياج، لا سِيّما في مسائل العِلم التي تكونُ في غير مَظَانِّها»[١].

ومن أجَلِّ فوائد تقييدِ العلم بالكتابة: أنه عند كِبَر السِّنِّ، وضَعْفِ القُوَى؛ تكون لدى الطالبِ مادةٌ يَسْتَجِرُّ منها مادَّةً يَكتُب فيها بلا عِناءٍ في البحث والتقصِّي[٢].

وعلى ذلك فليَكُنْ مع الطالبِ على الدَّوام دَفْتَرٌ أو مذكّرةٌ، وقلمٌ يَكتُب فيه ما يَسمَعه من فوائد ونُكَتٍ، قال العلامة برهان الإسلام الزَّرْنُوْجِي (من القرن السادس الهجري[٣] - رَحِمَهُ اللهُ -: «وينبغي أن يكون طالبُ العلمِ مستفيداً في كلِّ وقتٍ، حتى يَحصُل له الفضلُ والكمالُ في العلم. وطريقُ الاستفادةِ أن يكون معه في كلِّ وقتٍ مِحْبَرَةٌ حتى يَكْتُبَ ما يَسْمَعُ من الفوائد العلمية. قيل: مَن حَفِظَ فَرَّ، ومَن كَتَبَ قَرَّ[٤][٥].

فينبغي للطالب أن يُلزِم نفسَه بكتابة كُلِّ ما يَمُرُّ عليه من الفوائد حتى لا يضيِّع وقتَه عند احتياجه إليها، وقديماً قيل:

العِلْمُ صَيْدٌ والكِتَابةُ قَيْدُهُ   قَيِّدْ عُلُوْمَكَ بالْحِبَالِ الوَاثِقَةِ
فَمِنَ الْحَمَاقَةِ أنْ تَصِيْدَ غَزَالَةً   تَتْرُكهَا بَيْنَ الْخَلَائِق طالِقَةً

---

(١) العبارة بين القوسين من كلام الشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد في كتابه «حلية طالب العلم»، ص٥٢.

(٢) انظر: «حلية طالب العلم»، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٥٢.

(٣) وفي تاريخ وفاته خلاف، قيل: إنه توفي عام ٥٩١، أو٥٩٣، أو ٥٩٧هـ.

(٤) «من حفظ فرَّ» أي: مَن حفظ شيئاً فَرَّ منه ما حفظه، ومَن كتب شيئاً استقرَّ وسكن عنده ما كتبه. (من تعليق المحقق، انظر هامش صفحة ١٠٩).

(٥) تعليم المتعلم، للشيخ برهان الإسلام الزرنوجي، ص١١٢.

أمَّا طريقةُ تقييد الفوائد العلمية فهي: أن يَجعَل الطالبُ لنفسه «مُذَكِّرةً»، وحين يقرأ فائدةً أو نُكْتَةً في كتابٍ ما؛ يَضَع تحتها خَطّاً، ويَجْعَل في أول الكتابِ فهرساً عامّاً، وله في ذلك خِياران:

الأول: إنْ شاءَ أنْ يَجْعَل الفهرسَ مُقَسَّماً حسب ترتيبٍ للعلوم كالعقائد والتفسير والحديث والفقه واللغة والأصول، فيَضَع تحتَ العنوانِ الْمُسَمَّى بعلمٍ من العلوم المذكورة، الفوائدَ المتعلّقة به.

والثاني: أو أن يَجعَل الفوائدَ مَسرُودةً سَرْداً، ثم يَكتُب الفائدةَ أو النُّكْتَةَ مع اسم الكتاب ورقم الصفحة والمجلَّد.

ومِن فوائد ذلك: أنَّ الطالب يجد مُقيَّداتِه فيما بعد في هذا الفهرس بسهولةٍ، ويَصِل إلى موضعه في الكتاب بيُسْرٍ، وإلا يُخشَى عليه أن ينسى ما قرأه من الفوائد والنُّكَتِ، كما يَنْسَى اسمَ الكتاب الذي وجدها فيه.

وهذا كان دَيْدَنُ كثيرٍ من العلماء - ولم يَزَلْ -، وقد ألَّف من المتقدِّمين الحافظُ ابن قَيِّم الْجَوْزِيّة (ت٧٥١هـ) كتابَه «بدائع الفوائد»، والإمامُ محمد بن بَهادُر بن عبد الله الزَّرْكَشِي (ت٧٩٤هـ) «خَبايا الزَّوايا»، كما ألَّف مِن المعاصرين على هذه الطريقة: الأستاذُ عبد السَّلام هارون (ت ١٤٠٨هـ) كتابَه «كُنَّاشَة النَّوادِر»، والشيخُ محمد بن صالح العُثَيْمين (ت ١٤٢١هـ) «المنتقى من الفرائد والفوائد»، ففي هذه الكتبِ أَوْدَعها هولاء الفوائدَ البديعةَ والنُّكَتَ العلميةَ، اقتطافاً من الكتب الكثيرة التي طالعوها وقرؤوها، فنفعوا بها أنفسهم وغيرَهم.

فعلى الطالب: أن يَبذُل الجهدَ في حِفظ العلم تقييداً بالكتابة كُلَّ ما يَسمَعه من شيوخه وأساتذته من النُّكَت والفوائد التي قد لا يجدها في الكتب إلا بصُعوبةٍ ومَشَقَّةٍ.

١٩ ـ الرِّحْلَة في طلب العِلم:

إنّ الرِّحلة في طلب العلمِ مُهِمّةٌ جليلةٌ، وهي تُعتبَر إحدى أهَمِّ أسباب اكتسابِ العِلم، كما أنها من مزايا أهل العلم في الإسلام من قديم الزَّمان، وأوضَحُ مثالٍ على ذلك رحلةُ سيّدنا موسى ـ عليه السلام ـ إلى الْخِضر ـ عليه السلام ـ ليتعلَّم منه، كما في حديثٍ رواه الصحابيُّ أُبَيُّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بَيْنَما مُوْسَى في مَلأٍ مِنْ بَنِي إسْرائِيْلَ إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقَالَ: أتَعْلَمُ أَحَداً أعْلَم مِنْكَ؟ قالَ مُوْسَى: لَا، فَأَوْحَى اللهُ عز وجل إلى مُوْسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خِضَرٌ، فسَأَلَ السَّبِيلَ إلَى لُقْيه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾»[1].

والمستفادُ من هذا الحديثِ: أنَّ موسى عليه السلام ـ مع عُلُوِّ قَدْرِه في الرّسالة والعِلم ـ حَرِصَ على الالتقاء بالْخِضر عليه السلام، ورَحَل إليه، وتحمَّل المشاقَّ في رحلته، فلمَّا لَقِيَ الْخِضَرَ؛ سَلَك معه مَسلَكَ المتعلِّم مع معلِّمه، وسألـه بكـلِّ أدبٍ وتـواضُـعٍ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، مع أنَّ موسى أفضَلُ من الْخِضَر وأرفَعُ منه رتبةً، وأعلى منه رسالةً ولا شكَّ، ورغم ذلك لم يَمنَعه فضلُه، وارتفاعُ رتبتِه على الْخِضر أن يَرحَل إليه لطلب العلم، ويَتحمَّل المشاقَّ في ذلك عنده، وكلُّ ذلك حرصاً منه على لقاء هذا العالِم، وعلى التعلُّم منه ما جَهِلَه. والقِصّةُ مشهورةٌ كما وردت في مستهلِّ سورة الكهف.

وخيرُ مَن ضَرَب المثلَ الأعلى في طلب العلم في الأمة المحمدية هم الصحابةُ رضي الله عنهم، فكان أحدُهم يَرحَلُ من المدينة إلى الشَّام أو إلى مِصْرَ؛ ليَأْخُذَ الحديثَ عمَّن تفرَّد بروايته عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أو ليتوثَّق من رواية حديثٍ سَمِعَه.

---

(١) والحديثُ أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، برقم: (٧٨).

كما ضَرَب في ذلك أمثلةً رائعةً مَن بعدهم مِن التابعين والأئمة أيضاً، وأعطوا لذلك غايةَ اهتمامِهم، وبَذلُوا مِن أجل ذلك كُلَّ ما في وُسْعِهم، حتى رَحَلُوا المسافاتِ البعيدة، على بُعْد الشُّقَّة وعِظَمِ الْمَشَقَّة وغَوْلِ الطَّريق، طلباً للحديث[١]، وبحثاً عن أسانيد الأحاديث، بل عن إسناد الحديث الواحد، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وتحقيقاً لِمَا حَثَّ عليه الرسولُ المعلِّمُ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ بقوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْماً؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقاً إِلَى الْجَنَّةِ»[٢]، وقولِه: «مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ الْعِلمِ؛ فَهُوَ في سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ»[٣]، وقولِه: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِه ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ؛ وَضَعَت الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا له رِضاً بِمَا يَصْنَعُ»[٤].

فأصبحت الرحلةُ في طلب العلم، مقصداً أساسياً في نفوس العلماء السابقين، للازدياد من العلم وتنقيحِه وتنويعِه وتعميقِه، فما كان يَتخلَّف

---

(١) من مقدمة الدكتور نور الدين عِتْر في مقدمة تحقيقه لكتاب «الرحلة في طلب الحديث» للحافظ الخطيب البغدادي، ص١٦، ١٧، بتصرف يسير.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب: فضل العلم، برقم: (٢٦٤٦)، وقال: «هذا حديث حسن».

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، برقم: (٢٦٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم: (٢٦٦)، والحاكم في المستدرك، (١/ ١٨٠)، برقم: (٣٤١)، وابن حبان في الصحيح، (٤/ ١٥٥) برقم: (١٣٢٥)، وكلهم عن صفوان بن عَسّال المرادي رضي الله عنه، وقال محققه: «إسناده حسن».

عنها إلَّا مَن أَقعَده ضَعْفُ الجسم، أو كثرةُ العِيال، أو فقدُ الدُّرَيْهِمات، أو رعايةُ حقِّ الوالدة أو الوالد[١].

ذلك لأنهم جعلوا «الرحلة» مَناطَ الثِّقَةِ بالعالِم، فقالوا كلمتَهم المشهورة: «مَن لم يَرحَل فلا ثِقَةَ بعلمه»، وكانوا يَعتبِرون الرحلةَ علامةً على علم الرَّجُل؛ وذلك لِما لَمَسُوه من فوائد الرِّحلة وآثارِها النافعة، وتكوين المواهب الشخصية، وتنميةِ الْمَدارِك العلمية، وتَوْسِعةِ الآفاق الفكرية، والتَّطاعُم من العقول والمعارف وأهلِها، فلذلك أقاموها مُقامَ الحاجةِ الضرورية لِمَن سَلَكَ طريقَ العلمِ والتحصيل، واعتبروها شرطاً لتوثيق العالِم والثِّقَةِ بعلمه[٢].

وأخبارُهم في ذلك كثيرةٌ، فقد ذَكَر بعضاً منها الحافظُ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في كتابه القيِّم «الرِّحلة في طلب الحديث»، والشيخُ عبد الفتَّاح أبو غُدَّة (ت١٤١٧هـ) في كتابه النفيس «صفحات من صبر العلماء». فليَرجِع الطالبُ إليهما للاستزادة في معرفة تلك الأخبار ليَقتفِي آثارَ أصحابِها في طلب العلم.

فوائد الرِّحلة في طلب العلم:

قد يتساءل الطالبُ نفسه: إنَّ أهمَّ سببٍ من أسباب الرِّحلة عند القدماء هو جمعُ الحديثِ، فهو قد انتهى، فما فائدةُ الرِّحلة في طلب الحديث في عصرنا وكتبُ الحديثِ والسُّنَّةِ مُتَوَفِّرةٌ بكلّ سهولةٍ، والوسائلُ المرئية والسَّماعية موجودةٌ للاستفادة من دروس ومحاضرات العلماء المتخصِّصين في الحديث في أي بلدٍ ناءٍ كانوا من بلده؟

---

(١) صفحات من صبر العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ص١٠٧.

(٢) صفحات من صبر العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ص١٠٧.

ولكن مع ذلك فإنّ هناك لا تزال للرِّحلة في طلب العلم فوائد جَمَّة، ومن أهمِّها:

١ ـ الغُربة:

والتي تُعين الطالِبَ في التفرُّغ لطلب العلم، فالإنسانُ ما دامَ في بيته وبيئته وبين أهله لا يجد وقتاً وفراغاً للطلب، ومِن أدِلَّتها: أنَّ النبيَّ ﷺ لَم يُنْزِل اللهُ عليه الوَحْيَ حتى حُبِّبَ إليه الْخَلَاءُ، فكان يَخْلُو في غار حِراء فيتحنَّث فيه اللَّيالِيَ ذوات العدد[1].

وهذا التحبيبُ الذي حُبِّبَ إليه الأنبياء فهو أسوةٌ وقدوةٌ ليُحَبَّبَ إلى طالبِ العلم الخلاءُ كذلك.

٢ ـ ملاقاة العلماء والمشايخ والاستفادة منهم:

والذي يَرحَل لطلب العلم يستطيع أن يُكثِر من ملاقاة أهل العِلم الذين عُرفوا بغزارة العلم وتنوُّع المعارف، ويأخذ عنهم مِن علمهم ومعارفهم، ويتحلَّى بفضائلهم وأخلاقهم. فإنه إذا لَقِيَ أمثالَهم، وجَلَس إليهم واحْتَكَّ بهم؛ فيَصِل إليه مِن خيرهم، ويَرسُخ في نفسه مما ينطبع فيها من أخلاقهم وشمائلهم؛ فيكون هذا الرسوخُ قوياً.

وكذلك فإنَّ العلماء قد رَحَلُوا وقرؤوا واستفادوا، فالطالِبُ إذا لَقِيَهم، وجلس إليهم؛ يأخذ عنهم فوائدَ ربما لا يَحصلها في الكُتُبِ سِنينَ طويلةً[2].

---

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري في الصحيح في أول كتاب بدء الوحي.

(٢) يعني: ربما أنتَ تأخُذ فائدةً عن عالِمٍ لو جلستَ تَبْحَث عنها في الكتب وقتاً طويلاً ربما لا تَجدها، لكن هو قد سَبَقَك إليها، وقرأ الكتبَ قبلك وحازَها، فهو يُعطيك نتائجَ سنواتٍ طويلةٍ من البحث، ويَهِبُكَ بالمجان فوائدَ وفرائدَ قد لا تقع =

آداب الرِّحلة في طلب العلم:

وهي آدابٌ ينبغي مراعاتها لمن يريد الرحلةَ في طلب العلم؛ حتى تُؤتِي الرحلةُ ثمارَها، وتتحقَّق أهدافُها أيّاً كان العِلمُ يَرحَل فيه الطالِبُ، وها هو مُجمَلٌ من تلك الآداب:

١ ـ الإخلاص لله تعالى:

إنَّ الإخلاص لله ﷻ رأسُ الأمرِ في طلب العلم؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْماً؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقاً إِلَى الْجَنَّةِ»(١)، فالذي يَخرُج ابتغاءَ مرضاةِ الله؛ فاللهُ ﷻ يُعطِيه من الأجر العظيم، وتكون رحلتُه هذه سبباً لدخوله الْجَنَّةَ.

٢ ـ الاستخارة من الله تعالى:

وهي من الأمور المندوبة شرعاً في قضاء الحوائج، وفي الحديث: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللهَ ﷻ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ ﷻ»(٢).

٣ ـ الاستشارة:

على الطالب قبل أن يَرحَل في طلب العلم، أن يَستشِير أهلَ الفضلِ

= عليها في الكتب إذا قرأتَ، فلذلك فيها اختصارٌ للأوقات، وفيها الحصولُ على كنوزٍ وفرائد.

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، في أبواب العلم، باب: فضل العلم، برقم: (٢٦٤٦) عن أبي هريرة ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٥٤)، برقم: (١٤٤٤)، والترمذي في الجامع، أبواب القدر، باب: ما جاء في الرضاء بالقدر، برقم: (٢١٥١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٩) برقم: (١٩٠٣)، والخطيب في «الجامع في أخلاق الراوي» (٢/ ٢٣٦) برقم: (١٧١٤) واللفظُ له، جميعهم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

والعلم والخبرة، ليَعرِف ما يبدأ به من البُلدان والْمَشايخ، وما يَحرِص على تحصيله من علمٍ وفوائد، وما يُعِينه على تحقيق بُغْيَتِه، وقيل: «ما خابَ مَن استخارَ، ولا نَدم مَن استشارَ»[١].

٤ ـ استئذان الوالِدَين:

كذلك مَن يُريد الرِّحلةَ في طلب العِلم فعليه أن يستأذن والِدَيْه أوّلاً، ولا تَجُوْزُ له الرحلةُ إلا باستئذانهما، أمّا إذا منعاه عنها وهو يرى أنَّ حصوله العِلمَ الذي يريد أن يَرحَل لأجله فرضٌ عليه فيجب عليه مُداراتُهما، والرِّفْقُ بهما حتى تَطِيْبَ له أَنْفُسُهما، ويَسْهَل مِن أمره ما يَشُقُّ عليهما[٢].

٥ ـ اختيارُ حُسْنِ المكان:

كذلك من أهمِّ شروط الرِّحلة في طلب العلم: أن يَختار الطالبُ لأجلها بلداً مسلماً معروفاً بالعِلم والفضل، حافِلاً بالعلماء والفضلاء، وعامِراً بالمدارس الدينية والجامعات الإسلامية، ليستفيد مع طلب العلم مما حوله من البيئة الدينية، والعادات المحمودة، والتقاليد الحسنة، والأعراف الجميلة إنْ لم تكُن مُخالِفةً للعقيدة والشريعة.

و«أمَّا إذا قَصَد الطالِبُ إلى بلاد الكُفَّار باسم الرحلة في طلب العلم الشرعي ـ كما يفعل كثيرٌ من الطلاب في عصرنا ـ فما هو ـ في الحقيقة ـ إلَّا انحلالُ الدِّين، وإفسادُ الأخلاق، والسُّقوطُ في براثن أهل الكُفْر، ثم العودةُ بعقولٍ ممسوخةٍ، وأذهانٍ مشوّشةٍ، وقلوبٍ خاويةٍ... فهذا ليس بطلب علم أبداً، وهو حقّاً من الأمور المضحكة جِدّاً أن يُقال: فلانٌ نال شهادةَ الدكتوراه في التفسير من «جامعة أكسفورد»، أو في الحديث من «جامعة

---

(١) من أدب المحدثين في التربية والتعليم، للدكتور أحمد محمد نور سيف، ص١٢٤.

(٢) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي»، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٢٨)، برقم: (١٦٩٣).

كامبريدج»، أو في الفقه من «جامعة السُّوربون»، أو في اللغة العربية من «جامعة برلين». . .

وذلك فإنه لا يخفى على أحدٍ أنَّ أقسام الدراسات الإسلامية واللغة العربية في هذه الجامعات ومثيلاتها، قد ظَلَّتْ إلى عهدٍ قريبٍ ـ وما زالتْ ـ أكبرَ مراكز المستشرقين الكَفَرة ـ أعداء الإسلام والدين ـ في الغرب، الذين لم يألوا جهداً في تشويه سُمعته، والنَّيلِ منه في كتبهم ودراساتهم، فكيف يُؤمَن مِن الذين يَتخرَّجون من أقسام الدراسات الإسلامية في تلك الجامعات أنَّ عقولهم لم تَتأثَّر بشُبُهاتٍ في التاريخ الإسلامي؟ وأنها لم تملأ بِمَطاعِن في السنة النبوية وهم قد تتلمذوا على أيدي هؤلاء المستشرقين الكَفَرة، أو الْمُتعالِمين من المسلمين؟ فهم يَرجِعون شخصياتٍ أخرى من تلك البلاد غير الذين كانوا»[١]. ثم تجدهم مُصابين دائماً بِمُرَكَّب النَّقْص بسبب عدم أخذِهم العِلمَ عن مصادره الأصلية، وعدمِ تلقِّيهم إيَّاه من العلماء المتخصِّصين[٢].

٦ ـ التماس الرفيق قبل الطريق:

يَحسُنُ للطالب أن يتخيَّر لمرافقته مَن يُعينه على عبادة الله وطاعته، ويشجِّعه على مُواصَلة مسيرتِه العلمية، ومَن يُشاكِله ويُوافِقه على غرضه ومطلبه، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ابْتَغِ الرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيْقِ، فإنْ عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ؛ نَصَرَكَ، وإنِ احْتَجْتَ إليه؛ رَفَدَكَ[٣]»[٤].

---

(١) ما جاء بين القوسين فهو مقتبسٌ من الشريط لمحاضرة الشيخ محمد المنجد حول «السفر إلى بلاد الكفار لطلب العلم»، عرضتُه بتصرف وزيادة منها.

(٢) أمَّا من يُريد أن يَرحَل إلى تلك البلاد لغرض تعلُّم بعض العلوم والصناعة مما ليس لدى المسلمين أو هم غير متميِّزين فيه؛ فيجوز ذلك له إذا أَمِّن على دينه.

(٣) أي: أعانك.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، (٢/ ٢٣٥)، =

٧ ـ الإكثار من الاستفادة من العلماء والْمُذاكَرة معهم:

ينبغي للطالب أن يَستغِلَّ الغُرْبَةَ في البلد الذي يَرحَل إليه؛ لأنَّ مُدَّة الغربةِ أو الإقامةِ فيه محدودةٌ، والعِلْمُ كالبحر، فعليه أن يَستغِلَّ الفرصةَ، ويَحرِصَ على مُلازَمة علمائِها، والإكثارِ من الاستفادة منهم، ويَعتني بالمذاكرة معهم في المسائل العلمية. فبذلك سيَكسِب آراءً جديدةً تَزيده تَمَكُّناً من العلم وتَعَمُّقاً فيه، أو تُزِيْحُ ما وَقَع له من إشكالٍ فيه، وهي فائدةٌ هامّةٌ يَكمُل بها العالِمُ ويَسْمُو.

هذه بعضُ أهَمِّ الفوائد والآداب في الرِّحلة في طلب العلم، وينبغي مراعاتها لِمَن يرغب في ذلك.

٢٠ ـ التَّخَصُّصُ في علمٍ مُعَيَّنٍ من العلوم الشَّرعية:

بعد أنْ يَأخُذ الطالبُ جميعَ الأساسِيّات والْمُهِمّات في العلوم الشَّرعية والآلية: ينبغي له أنْ يَتخصَّص في أحد تلك العلوم، بتفريغ نفسِه له دراسةً تُهَيِّئُ له الوقوفَ على دقائقه، ومُهِمّاته، ومعرفةِ مَفاتِيحه، ومِظَنّةِ البحثِ، وتحريرِ القولِ فيه؛ لأنّ كُلَّ علمٍ له دقائق لا يَعرِفها إلّا مَن خَبُرَها وتخصَّص فيها، لقد حَثَّ العلماءُ قديماً على التدقيق في العلم الذي يقرؤه الطالبُ، فقال الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «مَن تعلَّم عِلماً فليُدقِّق؛ لكَيْلا يَضِيع دقيقُ العلمِ»[1]، لكنَّ فرصة التدقيقِ في كلّ علمٍ من

= برقم: (١٧٠٤)، عن خُفَاف بن نُدْبَة عن النبي ﷺ، وبألفاظ أخرى عن سعيد بن رافع بن خَديج عن أبيه عن النبي ﷺ، (٢/ ٢٣٥)، برقم: (١٧٠٨). وقال الحافظ السخاوي: «كلها ضعيفة، ولكن بانضمامها تَقْوَى». (انظر: «المقاصد الحسنة»، ص١٧٠).

(١) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى»، (١/ ٣٧٧)، وابن طاهر المقدسي في «الأنساب المتفقة»، ص٣.

العلوم لا تَسْنَح للطالب حين يَدرُس جميعَها معاً، فلذلك لا بُدَّ له من «التخصُّص» في أحد العلوم بعد أَخْذِه حظّاً وافراً من أساسياتها ومهمّاتها.

وكما أنَّ تخصُّصَ الطالبِ في أحد العلومِ سواء أكانت الشَّرعية أو غيرها، والتبحُّرَ فيه، والتَّمَكُّنَ منه ـ مع تحديد الهدف، وطُولِ النفس ومجاهدتِها، والتجرُّدِ في طلب العلم، والإخلاصِ، والنيةِ الصالحة ـ منهجٌ ضروريٌّ، لا حياةَ ولا بقاءَ للعلوم إلّا به، وقد نبَّه العلماءُ قديماً على أهمية ذلك، فقال إمامُ العربيةِ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) ـ رحمه الله ـ: «إذا أردتَ أن تكون عالِماً فاقْصُدْ لفَنٍّ من العلم، وإذا أردتَ أن تكون أديباً فخُذْ مِن كلِّ شيءٍ أحْسَنَه»[(١)]، وقال المحدِّثُ الفقيه النَّحْوي الإمام أبو عُبَيْد القاسم بن سَلَّام الْهَرَوِيّ (ت٢٢٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «ما ناظَرَني رجلٌ قَطُّ وكان مُفَنَّناً في العلوم إلَّا غَلَبْتُه، ولا ناظَرَني رجلٌ ذو فَنٍّ واحدٍ إلَّا غَلَبني في عِلمه ذلك»[(٢)].

وما سَبَق من أقوال الأئمة، فيه دلالةٌ واضحةٌ على أهمية «التخصُّص» في علمٍ واحدٍ؛ لأنّ كُلَّ علمٍ من العلوم بحرٌ من البُحور، لا يَعرِفه ولا يَصِل إلى كُنوزه وخفاياه إلَّا مَن غاصَ أعماقَه، وقَصَّر حياتَه على الغوص فيه، أمَا مَن اكتفى فقط بالسِّباحة على ظهر كُلِّ بحرٍ من بُحور العلم، فإنه إنما عَرَف ظواهِرَ تلك البُحور، وما عَرَف مِن كُنوزها شيئاً.

ولكن لا ينبغي أن يكون صاحبُ «التخصُّصِ» في علمٍ معيَّنٍ، جاهلاً بنفع كُلِّ علمٍ نافعٍ لا سيما العلوم الإسلامية جميعاً، «التفسير وأصوله»، و«الحديث وأصوله»، و«الفقه وأصوله»، و«علم العقيدة»، و«علوم الآلة»

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٤٢٦)، برقم: (٨٥٠).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٤٢٧)، برقم: (٨٥٢).

من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وأدبٍ، مما يجب على الطالب تحصيلُ شيءٍ من هذه العلومِ قبل تخصُّصه في أحدها.

لأنَّ الذي يُريد التخصُّصَ في «علم الحديث» - مثلاً - فهو إنْ لم يكن قد دَرَس قبل شيئاً من عِلم «أصول الفقه»، فلا يتسنَّى له التمييزُ بين: الروايات المختلفة، مثل زيادات الثقات: مقبولها ومردودها، والشّاذة منها والْمُنكَرة، والناسخة والمنسوخة، والراجحة والمرجوحة، كما لا يُمكِن له الحكمُ في تلك المسائل لكَوْنها تَتَّصِل بهذا العلمِ كاتِّصالها العميق بعلم الحديث.

وكذلك الذي لم يَكُنْ مُلِمّاً «علم العقيدة»، فإنه لا يستطيع أن يَعرِف الصوابَ في مسألة «الرواية عن أهل البِدَع وحُكمها» التي تُعَدُّ من مشاهير مسائل علم الحديث؛ لأنَّ تعريف صُنوف البِدَع وأقسام المبتدعة، وبالغالِي منهم، ومَن بِدعتُه غليظةٌ، ومَن يُكَفَّر ببدعته ومَن لا يُكَفَّر، كلها من مُهِمّات «علم العقيدة»[(١)].

لذلك من الْمُهِمّ جِدّاً أن يَعتني الطالبُ أولاً بجميع تلك العلوم التي تَتّصِلُ بالعلم الذي يَرُوم التخصُّصَ فيه، وطريقةُ تحصيلِه لتلك العلوم أن يَدرُس مُختصَراً من مُختصَراتها، تُمَكِّنه من مُراجَعة مُطَوَّلات تلك الفنونِ، فيما إذا أحْوَجَه عِلمُه الذي تَخصَّص فيه إلى ذلك، كما سبق التمثيلُ له.



(١) باختصار وزيادات من «نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية»، للشيخ حاتم بن عارف العوني، ص٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٦.

المبحث الثاني

الآدابُ التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها دائماً في حياته

١ ـ اتِّباع السُّنَة النبوية.

٢ ـ الحرصُ على العمل بما تلقَّاه من العِلم.

٣ ـ تطهيرُ القلب من خبيث الصِّفات والابتعادُ عن الذنوب والمعاصي.

٤ ـ الابتعادُ عن الحسد.

٥ ـ مُلازَمةُ العلماء والصَّالِحين.

٦ ـ ارتيادُ مَجالِس العِلم وحضورُ النَّدْوات العلمية.

٧ ـ الحرصُ على الوقت واستثمارُه في النافع والمفيد.

٨ ـ الغَرَامُ بالكُتب والحِرصُ على القِراءة.

٩ ـ الْمُناصَحةُ وبذلُ الفائدةِ.

١٠ ـ الالتزامُ بالأمانة العلمية.

١١ ـ التأنِّي والتريُّثُ في التدريس حتى يتأهَّل لذلك.

١٢ ـ الحذرُ من التسرُّع في الإفتاء.

١٣ ـ الاشتغالُ بالتأليف النافع المفيد إذا تأهَّل له.

١٤ ـ الاحترازُ عن الهجوم على المذاهب الفقهية والتطاوُلِ على أئمتها.

١ ـ اتِّباعُ السُّنَّة النبوية:

إنَّ مِن واجبنا تِجاه سُنَّةِ رسولِنا ﷺ: الاتِّباعُ والإطاعةُ له بكلِّ ما أَمَرَنا، والاجتنابُ عن كلِّ ما نَهانا، ولقد أكَّد على ذلك القرآنُ الكريم مِراراً وتِكراراً، وأشار إلى وُجوب الالتزامِ بذلك في آياتٍ كثيرة، منها:

قولُ الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ومنها قولُه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

ومنها قولُه تعالى شأنُه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

ومنها قولُه جلَّ في عُلاه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

ومتابعةُ النبيِّ ﷺ لا تتأتَّى إلَّا بالتمسُّك بسُنَّته المطهَّرة، واتِّباع هَدْيِه المشرِّف، فما مِن خيرٍ إلَّا ودَلَّنا عليه، وما مِن شَرٍّ إلَّا وحَذَّرَنا منه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ عن طريق سُنَّتِه وهَدْيِه، لذلك حَثَّنا على العَضِّ عليهما والعمل بهما، كما يَدُلّ على ذلك الأحاديث الآتية:

١ ـ عن عِرْباض بن سارِيَة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِيْ، وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّيْنَ، تَمَسَّكُوْا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذ[1]»[2].

---

(١) النواجذ: جمعُ «النَّاجِذ» وهو: آخر الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في أقصى الأسنان، ويُسَمَّى النّاجذ ضرس الحلم؛ لأنه ينبت بعد البلوغ وكمالِ العقل، يقال: ضحك حتى بدت نواجذُه. (انظر: «مختار الصحاح» للرازي، فصل الجيم).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب السنة، باب: لزوم السنة، برقم: (٤٦٠٧)، والترمذي في السنن، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، برقم (٢٦٧٦)، وقال: «حديث حسن صحيح».

٢ ـ وعن عبد الله بن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إِنِّيْ قَدْ تَرَكْتُ فِيْكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فلَنْ تَضِلُّوْا أَبَداً: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّه»[١].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قِيْلَ: وَمَنْ يَأبَى يا رَسُوْلَ اللهِ؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِيْ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِيْ فَقَدْ أَبَى»[٢].

فالواجِبُ على المسلم أن يَتَّبِعَ محمَّداً ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وهَدْيِه، أمَّا الذي لم يَتَّبع سُنَنَه، ولَمْ يَرَ العملَ بها واجباً؛ فهو في دَعْوَى محبَّتِه لله تعالى كاذِبٌ، ومَن كان في هذه الدَّعْوَى كاذباً؛ فهو في دَعْوَى إيمانِه بالله كاذِبٌ بلا مِرْيَةٍ[٣].

٢ ـ الحِرْصُ على العَمَل بما تَلقَّاه من العِلْم:

إنَّ العَمَل بالعِلْم عبادةٌ وأداءٌ واجبٌ، لقد تَوَارَدَتْ وتَوَاطَأَتْ نصوصُ الكتاب والسُّنَّةِ، وآثارُ سَلَفِ الأُمَّةِ، على ذَمِّ مَن تَرَك العملَ بالعِلم، ومِن ذلك ما ذَكَره اللهُ تعالى عن اليهود حيثُ أَعْرَضُوا عن العمل بالعلم فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، فحَظُّ مَنْ لَمْ يَعمَل بعِلمه كحَظِّ الْحِمَارِ مِن الكتب الَّتي أَثْقَلَتْ ظَهْرَه.

وكذلك مِمَّا وَرَد في ذلك قولُه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، كتاب العلم، (١/ ١٧١)، برقم: (٣١٨)، وصحَّحه.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء برسول الله ﷺ، برقم: (٧٢٨٠).

(٣) انظر: مقدمة «تحفة الأحوذي»، للشيخ محمد عبد الرحمن المباركفوري، ص٤١.

تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، والمعنى: أن الله ﷻ يُبغِض مَن تُخالِف أعمالُه أقوالَه، مِثلُ من يَنهَى الناسَ عن الشَّرِّ ورُبَّما نَزَّهَ نفسَه عنه، وهو مُتَلَوِّثٌ ومُتَّصِفٌ به؛ فهذه الحالةُ الذَّميمةُ لا تَلِيق بالمؤمنين، فينبغي للآمِر بالخير أن يكون أوّلَ الناسِ مُبادَرةً إليه، والنَّاهِي عن الشَّرِّ أن يكون أبعَدَ الناسِ عنه[1].

ومِمّا وَرَد أيضاً في ذَمّ مَن يَعِظُ النّاسَ ولا يَتَّعِظُ، قولُه ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وإنْ كانت هذه الآيةُ متعلّقةً ببني إسرائيل، إلا أنها تَنطبِق كُلَّ الانطباقِ على كل عالِمٍ لا يَعمَل بعلمه، وعلى كلِّ واعظٍ لا يَتّعِظُ بوعظه.

وإلى جانب تلك الآيات الكريمة، فقد وَرَد العديدُ من الأحاديث النبوية في التَّحذير من تَرْك العملِ بالعِلم، ومنها ما رواه أُسامةُ بن زَيْد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ[2]، فَيَدُوْرُ بِهَا كَمَا يَدُوْرُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُوْلُوْنَ: يَا فُلَان! مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُوْلُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَلَا آتِيْهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّرِّ وَآتِيْهِ»[3].

ومنها هذا الحديثُ الذي وَرَدَ في الْحَثِّ على العمل بالعلم، الذي رواه أبو بَرْزَة الأَسْلَمِيّ رضي الله عنه عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «لَا تَزُوْلُ قَدَمَا

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ص٩٥٤، ٩٥٥.

(٢) يعني: أمعاءَه.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم: (٣٢٦٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الزهد، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، برقم: (٢٩٨٩).

عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيْمَا فَعَلَ. . . »(١).

ولقد أَدْرَكَ الصَّحابةُ ﷺ معنى تلك الآياتِ والأحاديث، فهذا الصحابيُّ الجليل أبو الدَّرْداء ﷺ يقول: «إنَّما أخشى مِن رَبِّي يومَ القِيامةِ أن يَدْعُوَني على رُؤوس الْخَلَائِق فيقولَ لِي: يا عُوَيْمِر(٢)! فأقولُ: لَبَّيْكَ رَبِّي. فيقول: ما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟»(٣)، ثم قال ﷺ: «لا تَكُون بالعِلم عالِماً حتى تَكُون به عامِلاً»(٤). وهذا التخوُّفُ مِن هذا الصحابي الجليل إنما هو في الواقع وَرَعٌ منه، وإلَّا فإنه إمامٌ يُقتدَى به، مُتَّبعٌ لأوامر الله ورسولِه(٥).

وكذلك مما وَرَد في أقوال السَّلَفِ في الْحَثِّ على العمل بالعلم: قولُ الإمام عامِر بن شَراحِيل الشَّعْبِيّ (ت١٠٣هـ) ﷺ: «كُنّا نَستعِين على حفظ الحديثِ بالعمل به»(٦)، وقولُ الإمامِ وَكِيْع بن الْجَرَّاح (ت١٩٧هـ) ﷺ: «إذا أردتَ أن تَحفَظ الحديثَ فاعْمَلْ به»(٧).

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب صفة القيامة، باب: في القيامة، برقم: (٢٤١٧)، والحديثُ بكامله: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلَاه».

(٢) وهو كنيته.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، (٣/ ٣٠٢)، برقم: (١٧١١).

(٤) أخرجه الدارمي في مقدمة السنن، باب: من قال: «العلم: الخشية وتقوى الله»، (١/ ٩٤)، برقم: (٢٩٨).

(٥) النظم التعليمية عند المحدِّثين في القرون الثلاثة الأولى، للأستاذ المكي أقلاينة، ص١٥٣.

(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (١/ ٥٧١)، برقم: (١٢٨٤).

(٧) علوم الحديث، لابن الصلاح، ص٢٢٣.

ويتبيَّن مِن كلِّ ما جاء في تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة: أنَّ العِلم لا بُدَّ أنْ يَقترِن بالعمل لتَكتمِل به الفائدةُ، ويَحصُل به النفعُ، فلا خيرَ في حياةٍ تُنفَق في علمٍ لا يَنْبَنِي عليه أو لا يَتْبَعه عملٌ.

لذلك حَثَّ السَّلَفُ في نصائحهم للطلاب على أن يَعمَلوا بما عَلِمُوا، وحَذَّرُوهم عن عواقب تَرْكِ العمل بالعلم، فقال الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) - رَحِمَهُ اللهُ - في بيان مَنْزِلة العمل بالعلم:

«إنِّي مُوصِيك يا طالب العلم بإخلاص النِّيَّةِ في طلبه، وإجهادِ النَّفْسِ على العَمَل بِمُوْجبه؛ فإنَّ العِلم شَجَرَةٌ والعملَ ثَمَرَةٌ، وليس يُعَدُّ عالِماً مَن لَمْ يَكُنْ بعِلمه عامِلاً، فإذا كان العملُ قاصِراً عن العلم؛ كان العِلمُ كَلّاً[١] على العالِم، ونعوذ بالله من علمٍ عادَ كَلّاً، وأَوْرَثَ ذُلّاً، وصار في رَقْبَة صاحبِه غُلّاً[٢]»[٣].

وقال الإمام إبراهيم بن أحمد الخوَّاص (ت٢٩١هـ) - رَحِمَهُ اللهُ - فيمَن يُكثِر مِن طلبِ العلم ويَقِلُّ عملُه به: «ليس العلمُ بكثرة الرِّواية، وإنما العالِمُ مَن اتَّبَعَ العلمَ واستعمله، واقْتَدَى بالسُّنَن وإنْ كان قليلَ العِلم»[٤].

وقال الحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «. . . العلمُ ليس هو بكثرة

---

(١) «الكَلّ»: يعني: الثَّقِيل لا خيرَ فيه، كما في التنْزيل العزيز: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل: ٧٦]، (انظر: «المعجم الوسيط»، ص٨٣٢).

(٢) «الغُلّ»: هو طَوْقٌ من حديد أو جلدٍ يُجعَل في عُنُق الأسير أو المجرِم أو في أيديهما، وجمعُه «أغلالٌ». (انظر: «المعجم الوسيط»، ص٦٩٢).

(٣) اقتضاء العلم العمل، للحافظ الخطيب البغدادي، ص١٤، ١٥.

(٤) اقتضاء العلم العمل، للحافظ الخطيب البغدادي، ص٣٠.

الرِّواية، ولكنه نُوْرٌ يَقذِفه اللهُ في القلب، وشَرْطُه: الاتِّباعُ، والفِرارُ من الْهَوَى والابتداعِ، وَفَّقَنا اللهُ وإيّاكم لِطاعته»[١].

ولأحدهم قصيدةٌ رائعةٌ في الْحَثِّ على العمل بالعلم، يقول فيها:

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ... لا يَنْفَعُ العِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ العَمَلُ
وَالعِلْمُ زَيْنٌ وَتَقْوَى اللهِ زِينَتُهُ ... وَالْمُتَّقُوْنَ لَهُمْ في عِلْمِهِمْ شُغُلُ
وَحُجَّةُ اللهِ يَا ذَا العِلْمِ بَالِغَةٌ ... لا الْمَكْرُ يَنْفَعُ فِيْهَا لا ولَا الْحِيَلُ
تَعَلَّمِ الْعِلْمَ واعْمَلْ مَا اسْتَطَعْتَ بِهِ ... لا يلهينك عنه اللَّهو والجدل
وَعَلِّمِ النَّاسَ واقْصِدْ نَفْعَهم أبَداً ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ يَعْتَادَكَ المللُ
وَعِظْ أَخَاكَ بِرِفْقٍ عِنْدَ زَلَّتِهِ ... فَالْعِلْمُ يَعْطِفُ مَن يَعْتَادُه الزَّلَلُ
وإِنْ تَكنْ بَيْنَ قَوْمٍ لَا خَلَاقَ لهم ... فَأْمُرْ عَلَيْهِمْ بِمَعْرُوْفٍ إذا جَهِلُوْا
فإِنْ عَصَوْكَ فَرَاجِعْهُمْ بِلَا ضَجَرٍ ... وَاصْبِرْ وصَابِرْ ولَا يَحْزُنْكَ مَا فَعَلُوْا
فَكُلُّ شَاةٍ بِرِجْلَيْهَا مُعَلَّقَةٌ ... عَلَيْكَ نَفْسَكَ إِنْ جارُوْا وإِنْ عَدَلُوْا[٢]

٣ - تطهيرُ القلب من خبيث الصِّفات، والابتعادُ عن الذُّنوب والمعاصي:

كذلك مِن أهَمِّ ما يجبُ على الطالب في حياته العلمية أن يكون دائماً، بعيداً عن كلِّ غِشٍّ ودَنَسٍ، وغِلٍّ وحَسَدٍ، وسُوءِ عقيدةٍ وخُلُقٍ؛ لِيَصلُح بذلك لقبول العِلم وحفظِه، والاطِّلاع على دقائق معانِيه وحقائق غوامضِه، فإِنَّ العِلْم كما قال العلماء: «صلاةُ السِّرِّ، وعبادةُ القَلْبِ، وقُرْبَةُ الباطِنِ»[٣]،

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١٣/ ٣٢٣).
(٢) اقتضاء العلم العمل، للحافظ الخطيب البغدادي، ص٣٨، ٣٩.
(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة، ص٨٠.

وكما لا تَصِحُّ الصَّلاةُ التي هي عبادةُ الجوارحِ الظَّاهرة إلَّا بطهارة الظَّاهر من الْحَدَثِ والْخَبَثِ؛ فكذلك لا يَصِحُّ العِلمُ الذي هو عبادةُ القلبِ إلَّا بطهارته عن خبيث الصِّفاتِ وحَدَثِ مَساوئ الأخلاق ورَدِيْئِهَا[(١)].

وإذا طُيِّبَ القَلْبُ للعِلم؛ ظَهَرَتْ بَرَكَتُه ونَمَا، كالأرضِ إذا طُيِّبَتْ للزَّرْعِ نَمَا زَرْعُها وزَكَا، وفي الحديث: «إنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألَا وَهِيَ: القَلْبُ»[(٢)].

فحرامٌ على قَلْبٍ يَدْخُله النُّوْرُ وفيه شيءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ ﷻ[(٣)].

كما أنَّ ابتعاد الطالب عن الذنوب والمعاصي من الأسبابِ القَوِيَّة لتحصيل العلمِ والفهمِ عن الله تعالى، قال الإمامُ الشافعي (ت٢٠٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «مَن أَحَبَّ أن يَفتَح اللهُ له قلبَه، أو يُنَوِّرَه؛ فعليه بترك الكلامِ فيما لا يَعْنِيه، وتَرْكِ الذُّنوبِ، واجتنابِ المعاصي، ويكون له فيما بينه وبين الله خبيئةٌ من عَمَلٍ، فإنَّه إذا فَعَل ذلك؛ فَتَح اللهُ عليه من العلم...»[(٤)].

إنَّ قوَّة الحافظةِ موهبةٌ عظيمةٌ مِن الله ﷻ يَختَصُّ بها مَن يشاء، فإذا أراد الطالبُ أن يَحْظَى بهذه النَّعماء، فعليه أن يَجتنِب غضبَ الرَّبِّ باطِّراح المعاصي، وتركِ الذنوب، ليبقَى قلبُه نَقِيّاً وذِهْنُه خَلِيّاً[(٥)]، وقيل في ترجَمة الإمام وَكِيع بن الْجَرَّاح (ت١٩٧هـ) ـ رحمه الله ـ إنَّه لَمْ يُرَ في يده كتابٌ قطُّ،

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة، ص٨٠.

(٢) رواه البخاري في الصحيح، في كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، برقم: (٥٢)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة، ص٨٠.

(٤) مناقب الشافعي، للبيهقي، (٢/ ١٧١).

(٥) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص١٨٦.

إنما هو يَحْفَظُ، فسُئِلَ عن دواء الحفظِ، فقال: «تَرْكُ الْمَعاصِي»(١)، ومِن هنا جاء ما يُنْسَبُ إلى الإمام الشَّافعي (ت ٢٠٤هـ) ـ رحمه الله ـ:

شَكَوْتُ إلى وَكِيْعٍ سُوْءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِيْ إلى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِيْ بأَنَّ العِلْمَ نُوْرٌ ... وَنُوْرُ اللهِ لا يُهْدَى لِعَاصِي(٢)

٤ ـ الابتعادُ عن الْحَسَد:

«الْحَسَدُ» أخبَثُ الأمراضِ القَلْبيَّة الفَتَّاكَة، وأخطَرُ الأدواء النَّفْسِيَّة، وأقبَحُ الصِّفاتِ المذمومة(٣)، وهو ينشأ من رُوْحِ الأنانيّة، وحُبِّ الذَّات، والإعجابِ بالنَّفس، والشُّعورِ الزَّائد بالعُلُوّ. ومن يَتّصِفُ بهذا المرضِ؛ يَضِلُّ عن الطريق المستقيم، ويكون شخصاً مكروهاً من قِبَل جميع النَّاس، فيَنفِرون ويَنْأَوْنَ عنه نظراً لعمله السَّيئ الخبيث.

لذلك شَنَّعَ الكتابُ والسُّنَّةُ على الحسد تشنيعاً شديداً، وقد لَقَّنَ الله تعالى نبيَّه ﷺ العِيَاذَ به تعالى من هذا المرضِ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

كما نَهَى النبيُّ ﷺ عن الحسد أشدَّ النَّهْي، فقال: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ

---

(١) انظر: «تهذيب التهذيب»، للحافظ ابن حجر، (٤/ ٣١٣).
(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص٢٢٦، ٢٢٧.
(٣) نعم إنه كذلك دون مبالغةٍ، ولا يَعرف تأثيرَ حسدِ الحاسدِ على المحسود إلّا مَن ذاقه وعاناه، لذلك أحرص كلَّ الحرص على أن يكون طالبُ العلم بعيداً من أن يُصاب بذلك المرض الخبيث، أو يتصف بتلك الصفة القبيحة سواء أيام طلبه للعلم أو بعد تحصيله في حياته العلمية والشخصية.

الْحَسَنَاتِ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ...»[١]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا تَبَاغَضُوْا، ولا تَحَاسَدُوْا، ولَا تَدَابَرُوْا، وَكُوْنُوْا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً...»[٢].

فالحسدُ كبيرةٌ من الكبائر، فإنه يُذهِب الحسناتِ ويُبطِلها بسُرْعَةٍ، كما تَقضِي النَّارُ على الحطب والعُشْب اليابس، فهو يَضُرُّ الحاسِدَ أكثر من المحسود؛ لأنه داءٌ خفيٌّ كامِنٌ في أعماق النَّفْس، يسبِّب له القَلَقَ الدَّائم، والتوتُّرَ المتصلَ، والاكتئابَ الذي لا ينتهي. كما أنَّ الحسد يُنْشِئ لدى الحاسِد عِدَاءً شديداً نحو المحسودِ الذي لم يَرتكِب معه ذنباً ولم يُلْحِق به ضَرَراً، فلا يَزُوْل هذا العداءُ إلّا إذا زالَ الحسدُ، كما قال الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) رَحِمَهُ الله:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَىٰ مَوَدَّتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ[٣]

لذلك يجب على الطالب أن يُعَوِّد نفسَه دائماً على الْمَحَبَّة والْمَوَدَّة الصَّادقة لجميع الأصدقاء والأقرباء والزُّملاء، ولكلِّ مَن يُجالِس مِن أهل الخير والإصلاح، وأن يَفرَح لفرحهم، ويَحزَن لحزنهم.

كما يجب عليه أن يَبتعِد عن الأحقاد والضَّغائن التي تسبِّب داءَ الحسد، وأن يتذكَّر أنَّ للحاسِد خمسَ عُقوباتٍ تَصِلُه قبل أن يَصِلَ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب: الحسد، برقم: (٤٩٠٣)، وابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب: الحسد، برقم: (٤٢١٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث حسن، (انظر: «الترغيب والترهيب»، ٣/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب: ما يُنْهَىٰ عن التحاسد والتدابر، برقم: (٦٠٦٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والأدب، باب: تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، برقم: (٢٥٥٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ديوان الإمام الشافعي، ص٢٠٠.

المحسودَ مكروهٌ لا سَمَح الله، وهي كما قال الفقيه أبو اللَّيْث السَّمَرْقَنْدِي (ت٣٧٣هـ) «غَمٌّ لا يَنقطِع، ومصيبةٌ لا يُؤجَر عليها، ومَذَمَّةٌ لا يُحمَد بها، ويَسخَط عليه الرَّبُّ ﷻ، وتُغلَق عليه أبوابُ التوفيق»(١).

فحَذارِ مِن هذه الصِّفَةِ الخبيثة أن يَتَّصِفَ بها الطالِبُ؛ فإنَّ مَن يَتَّصِفُ بها يكون عَوْناً للشيطان، وسوف يَفقِد الكثيرَ من الأصدقاء والأحباب، ولا يَنال من الملائكة إلا اللَّعْنَةَ والبُغْضَ، ومَوْقِفُه هذا فضيحةٌ له بين الناس، وغَمٌّ وحسرةٌ عليه.

٥ ـ مُلازَمةُ العلماءِ والصَّالِحين:

لا غِنىً لطالب العلمِ البَتَّة عن مُلازَمة العلماء والصالِحين والاستفادةِ منهم، مهما كان نَهُوماً على القراءة والْمُطالَعةِ، وثقةً بنفسه؛ لأنَّ الإنسان قد يُدرِك بهما علوماً كثيرةً، ومعلوماتٍ مفيدةً، ولكنه إنْ لَمْ يُرزَق الفهمَ الصحيحَ؛ يُخطِئ في فهم المسائل وحَلِّ الْمُعضِلات، فكم من الْمَشاهِيْر من المفكِّرين والمؤلِّفين والكُتّاب في عصرنا قد زَلَّتْ أقدامُهم في مسائل كثيرة وقضايا عديدة، فانْحَرَفُوا فيها عن الجادّة، وأتوا بأفكار الشَّواذ في كُتُبهم ومؤلَّفاتهم، حتى بَلَغ أمرُ بعضِهم إلى الاستخفاف من السُّنّة وإنكارِها، والتَّطاوُلِ على الصَّحابة والأئمة، والعياذُ بالله، ومن أسبابِ ذلك أنهم لم يُلازِموا العلماء والصالحين، ولم يَستفِيدوا منهم أيام طلبهم للعلم.

لذلك لا بُدَّ للطالب من صُحبة شيخٍ صالِحٍ، أو عالِمٍ رَبّانِيٍّ يتربَّى على يده، ويستفيد من هَدْيِه وسَمْتِه؛ ليَكُون مُقتدِياً به في أخلاقِه، مُتَشَبِّهاً به في أفعاله؛ ليَنْشَأ عليها ويَتَجَنَّبَ ما يُخالِفها، «فإنه من خلال مُلازَمته لهم

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، (١/ ٤٥٧)، بتصرف يسير.

سيَرَى للإسلام صورةً عمليةً واقِعيةً في واقِع حياتِهم، فيستطيع بتوفيق الله - تبارك وتعالى - الاقتداءَ بهم فيتخلَّق بأخلاقهم ويتأدَّب بآدابهم، ويكون تطبيقُ الإسلام سَهْلاً ميسوراً حين يَرَى له واقِعاً عَمَلِيّاً في حياتهم»[(١)].

وعن أسماء بنت يَزِيْدَ - رضي الله عنها - عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أَلَا أُنْبِئُكُم بِخِيَارِكُمْ؟»، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «خِيَارُكُم الَّذِيْنَ إذا رُؤُوْا، ذُكِرَ الله عز وجل»[(٢)]، وعن عبد الله بن عُمَر - رضي الله عنهما - عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[(٣)].

فتَشَبَّهُوْا بِهِمْ إنْ لَمْ تَكُوْنُوْا مِثْلَهم فإنَّ التَّشَبُّهَ بالكِرَامِ فَلَاحُ

٦ - ارتيادُ مَجالِس العِلم وحضورُ النَّدَواتِ العلمية:

لقد كان رسولُ الله ﷺ يَحُثُّ أصحابَه رضي الله عنهم على ارتياد مجالس العِلم، ويُرَغِّب فيها ويَذْكُر فضلَها، ويفضِّلها على العبادة، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: «إنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بِمَجْلِسَيْن في مسجده: أحد الْمَجْلِسَيْن يَدْعُون الله ويَرْغَبُون إليه، والآخر يَتَعَلَّمون الفِقْهَ ويُعَلِّمونه، فقال رسولُ الله ﷺ: «كِلَا الْمَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ، وَأَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الآخَرِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَدْعُوْنَ اللهَ وَيَرْغَبُوْنَ إِلَيْهِ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ. وَأَمَّا

---

(١) آداب طالب الحديث الشريف، للدكتور الخشوعي الخشوعي محمد، من «موسوعة علوم الحديث الشريف» (١/ ٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب: من لا يؤبه به، برقم: (٤١١٩)، بإسناد حسن.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب اللباس، باب: في لبس الشهرة، برقم: (٤٠٣١)، وهو حديث حسن صحيح. (انظر: «صحيح سنن أبي داود» للألباني، ٢/ ٥٠٤، رقم الحديث: (٤٠٣١).

هَؤُلَاءِ فَيَتَعَلَّمُوْنَ وَيُعَلِّمُوْنَ الْجَاهِلَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً»، ثم أقبل ﷺ فجَلَس معهم»(١).

كما عَدَّ النبيُّ ﷺ مجلسَ العلمِ بمثابة رياضِ الْجَنَّة، إذْ قال: «إذا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوْا»، قالوا: يا رسول الله! وما رياضُ الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»(٢)، وفي روايةٍ ضعيفةٍ: «مَجَالِسُ الْعِلْمِ»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «نِعْمَ الْمَجلس مجلسٌ تُنشَر فيه الحكمةُ، وتُرجَى فيه الرَّحْمَةُ»(٤).

وإنَّ من رحمة الله تعالى بهذه الأمةِ أنْ ألقى في قلوب السَّلَف الصَّالِح الشَّغْفَ بالعلم، والحِرْصَ على مَجالِسه ليَحفَظ بهم دِيْنَه، وليَكُونوا أسوةً لِمَن بعدهم، ومِن ثَمَّ تَبَوَّؤُوْا مَناصِب الإمامةِ في الدِّين(٥)، فقد كانوا يَزدحِمون على مجالس العلم، وكانت لهم في ذلك أخبارٌ كثيرةٌ وعجيبةٌ، ومنها ما أخبره جعفرُ بن دُرُسْتُوَيْه (المتوفى بعد سنة ٢٨٥هـ)(٦) قال: «كُنَّا نَأْخُذ المجلسَ في مجلس عليِّ بن الْمَدِيْنِي (ت٢٣٤هـ) وقتَ العصرِ، اليومَ

(١) أخرجه الدارمي في مقدمة السنن، باب: فضل العلم والعالم، (١/ ١٠٥)، برقم: (٣٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الدعوات، باب: حديث في أسماء الله الحسنى، برقم: (٣٥١٠)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) ضعيف الجامع الصغير، للألباني، برقم (٧٠٠).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»، (١/ ٢١٣)، برقم: (٢٤٥).

(٥) علو الهمة، للشيخ محمد أحمد إسماعيل المقدّم، ص١٧٣.

(٦) هذا التحديدُ التقريبي في تاريخ وفاته، لم يذكره أحدٌ في ترجمته غيرَ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ في كتابه «صفحات من صبر العلماء»، انظر صفحة: ١٢٦.

لمجلسِ غَدٍ، فنقعُد طُولَ اللَّيلِ، مَخافةَ أنْ لا نَلحَق من الغَدِ مَوضِعاً نَسمَع فيه، فرأيتُ شيخاً في الْمَجلِس يَبُوْلُ في طَيْلَسانِه[١]! ويُدرِج الطَّيْلَسانَ، حتى فَرِغَ مَخافَةَ أن يُؤخَذ مكانُه إنْ قام للبَوْل»[٢].

وقال يَحْيى بن حَسَّان (ت٢٠٨هـ) «كُنّا عند سفيان بن عُيَيْنَة (ت١٩٨هـ) وهو يُحَدِّث، فازْدَحَمَتْ فِرْقَةٌ من الناس على مَحَلِّ شيخ ضعيفٍ، فانْتَهَبُوْه، ودَقُّوْا يدَ الشيخ، فجَعَل الشيخُ يَصِيح: «سفيانُ لا جعلتُك مما عَمِلوا بي في حِلٍّ»، وسفيانُ لا يَسمَع، حتى نَظَر إلى رجلٍ من أولئك الذين صَنَعُوا بالشيخ ما صَنَعُوا، فقال له: «ما يقول الشيخُ؟»، قال: يقول: «زِدْنا في السَّمَاع!!!»»[٣].

وهذا إنْ دَلَّ على شيءٍ فإنما يَدُلُّ على حِرصهم البالغ الشَّديد على الحضور في مَجالِس العِلم وحِلَقِه.

وللحضور في مجالس العلم آدابٌ مهمةٌ ذكرها الإمامُ ابن حَزْم الظَّاهري (ت٤٥٦هـ) رَحِمَهُ الله، فقال: «إذا حضرتَ مجلسَ علمٍ، فلا يَكُنْ حضورُك إلا حضورَ مُسْتَزِيْدٍ عِلماً وأجراً، لا حضورَ مُسْتَغْنٍ بما عندك، طالباً عثرةً تُشيعها، أو غريبةً تُشَنِّعها، فهذه أفعالُ الأراذلِ لا يُفلِحون في

---

(١) الطَّيْلَسان: كِساءٌ أخضرُ، أو أسوَدُ، أو أبيَضُ، لُحْمَتُه وسَدَاهُ مِن صوف، يَلبَسُه كبارُ العلماء والقضاة والمشايخ، وقد كان شِعارُ كبار العلماءِ في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريَّين. (انظر «صفحات من صبر العلماء»، حاشية رقم: ١، صفحة ١٨٨).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/١٣٨)، برقم: (١٤٢٦).

(٣) العزلة، للإمام الخطابي، ص٢٣٠.

العلم أبداً. فإذا حضرتَها على هذه النيّة[١] فقد حصلتَ خيراً على كلّ حالٍ، فإنْ لم تَحضُرها على هذه النيةِ فجلوسُك في مَنْزِلك، أَرْوَحُ لبَدَنِك، وأكرَمُ لخُلُقِك، وأسلَمُ لدِينك»[٢]، فينبغي للطالب مُراعاة هذه الآدابِ عند حضورِه في مجالس العلم.

أمَّا بالنِّسبة لحضور الطالبِ في النَّدوات أو المؤتمرات العلمية التي تُعقَد بين الحين والآخر من قِبل الجامعات أو المؤسَّسات حول مختلف الموضوعات الدينية والعلمية؛ فهو كذلك مُهِمٌّ جدّاً له بعد التحصيل العِلمي والتخرُّج، لِما فيه من الفوائد الجمَّة، خاصةً إذا كانت ـ النَّدواتُ ـ في مجال تَخَصُّصه، فإنَّ حضورَه في مِثل تلك النَّدوات يُتيح له:

١ ـ أن يَتعرَّفَ على العلماء والباحثين والخبراء في مجال تَخصُّصه لا سِيّما إذا كانوا من مختلف البُلدان، فيَستمِع إلى آرائهم واقتراحاتِهم فيه مِن خلال أبحاثهم.

٢ ـ وأن يَلتقِيَ بأُناسٍ كثيرين من الحاضِرين ـ في الندوة ـ في مجال تَخصُّصه، وهذا مِمَّا لا شكَّ فيه أنها فرصةٌ جيدةٌ له لتَبادُلِ الآراء، وطَرْحِ الأفكار بينهم، والتَّواصُل العِلمي معهم في مجال تَخصُّصه.

٣ ـ وأن يُطوِّرَ نفسَه بالعِلم والمعرفةِ بكُلِّ ما هو جديدٌ من الدِّراسات والأبحاث سواء أكان في مجال تَخصُّصه أو غيره.

٤ ـ وأن يَطَّلِعَ على أمورٍ جديدةٍ تُفيده في حياته العلمية والشخصية.

وغيرُ ذلك فوائد كثيرة يَجْتَنِيها الطالبُ من خلال حضوره في مثل تلك النَّدوات.

---

(١) أي: نية الاستزادة بالعلم والأجر.

(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، ص١٩٣.

٧ ـ الحرصُ على الوقت واستثمارُه في النَّافع والْمُفِيد:

لقد عُني القرآنُ الكريم والسُّنَّةُ النبوية بالوقت من نواحٍ شتَّى وبصُورٍ عديدةٍ، أمّا القرآنُ فقد أقسم اللهُ ﷻ في مَطالِع سُوَرٍ عديدةٍ في كتابه الكريم في آياتٍ جَمَّةٍ إشعاراً منه بقيمة الزَّمن، وتنبيهاً إلى أهميته، فأقسم ـ جَلَّ شأنُه ـ باللَّيْل فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]، والنَّهارِ فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]، والفَجْرِ فقال: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٢]، والصُّبْحِ فقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، والشَّفَقِ فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، والضُّحى فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، والعَصْرِ فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢](١).

ومن المعروفِ لدى المفسِّرين أنَّ الله ﷻ إذا أقسم بشيءٍ مِن خَلْقه؛ دَلَّ على أهميته وعَظَمَتِه، ليَلفِت الأنظارَ إليه، ويُنَبِّهَ على جليل منفعتِه وآثاره(٢).

وكذلك فقد وَرَدَتْ في السنة النبوية أحاديثُ كثيرةٌ تُؤكِّد على أهمية الوقت وقيمةِ الزمن، وتُقَرِّرُ أنَّ الإنسان مسؤولٌ عنه يوم القيامة، فمِن تلك الأحاديث: ما رواه أبو بَرْزَة الأَسْلَمِيّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تَزُوْلُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيْمَا فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ؟»(٣).

وعن مُعاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَنْ تَزُوْلَ قَدَما عَبْدٍ

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص٣٢، بتصرف يسير.

(٢) الوقت في حياة المسلم، للدكتور يوسف القرضاوي، ص٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب صفة القيامة، باب: في القيامة، برقم: (٢٤١٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاه؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذا عَمِلَ فِيْهِ؟»[١].

وهكذا يُسأَل الإنسانُ عن عُمْرِه عامّةً، وعن شبابه خاصّةً، والشَّبابُ جزءٌ من العُمْر، ولكن له قيمةٌ متميّزةٌ باعتباره سِنَّ الْحَيَوِيَّةِ الدَّافِقة، والعزيمة الماضِية، ومرحلة القُوَّةِ بين ضَعْفَيْن: ضَعْف الطُّفولة، وضَعْف الشَّيْخُوخة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤][٢].

وعن عبد الله بن عبّاس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ لرَجُلٍ وهو يَعِظُه: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هرَمِك، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ[٣]»[٤].

فيُفيد مما جاءَ في هذه الأحاديث الشريفة: أنَّ الإنسان يَجِبُ عليه أن يُعَمِّر عُمْرَه بالعِلم النَّافِع، والعملِ الصَّالِح، والْمَكْسَبِ الطيِّب، والقُرُباتِ الذَّكِيّة، وأن لا يَغْتَرَّ بالقُوَّة والرَّخَاء، بل يَغْتَنِمَ مَواطِنَ الغُنْم في الحياة قبل

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، (٢٠/ ٦٠)، برقم: (١١١)، وقال المنذري: «رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح، واللفظُ له». (الترغيب والترهيب، ٤/ ٢٩٩، برقم: (٥٢٦١).

(٢) الوقت في حياة المسلم، للدكتور يوسف القرضاوي، ص١٠.

(٣) ونُظِّم هذا الحديثُ في أبيات جميلة، وهي:

بَادِرْ شَبَابَكَ أَنْ يَهْرَمَا ... وَصِحَّةَ جِسْمِكَ أَنْ يَسْقَمَا
وأَيَّامَ عَيْشِكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ ... فَمَا دَهْرُ مَنْ عَاشَ أَنْ يَسْلَمَا
وَوَقْتَ فَرَاغِكَ بَادِرْ بِهِ ... لَيَالِيَ شُغْلِكَ فِي بَعْضِ مَا
وَقَدِّمْ فَكُلُّ امْرِئٍ قَادِمٌ ... عَلَى بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ قَدَّمَا

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، (٤/ ٣٤١)، برقم: (٧٨٤٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

أن تَعرِض له حالاتُ الضَّعْف، وعَوادي الأيام، وتَقَلُّبُ الزَّمان. وعن عبد الله بن عبّاس - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نِعْمَتانِ مَغْبُوْنٌ فِيْهِمَا كَثِيْرٌ مِّنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ»[(١)]، يعني: أنَّ «الصِّحَّة» و«الفَراغ» نِعمتان كبيرتان في حياة الناس، ولكنَّ غالِبهم لا يَنتفِعون بهما، بل يَصْرِفُونهما في غير مَحَالِّهما، فيَصِير كلُّ واحدٍ منهما في حَقِّهم وَبالاً، ولو أنهم صَرَفُوا كُلَّ واحدٍ منهما في مَحَلِّه لكان خيراً أيَّ خيرٍ[(٢)].

فالوقتُ نعمةٌ مِن نِعَم الله على خَلْقه، ولا بُدّ للعبدِ مِن شُكر النعمةِ وإلا سُلِبَتْ وذَهَبَتْ. وشكرُ نعمةِ الوقتِ لا يكون إلَّا باستعمالها في الطَّاعات، واستثمارِها في الباقيات الصَّالحات.

لقد كان عند السَّلَف الصالِح ومَن سار على نهجهم مِن الخَلَف حرصٌ شديدٌ على الاستفادة من كلِّ لحظةٍ يَقْضونَها، لذا اهتمّوا في نصائحهم لطلابهم بالحرص عليه، والتحذيرِ من تضييعه، فقال الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) - رحمه الله -: «أوقاتُك عُمْرُك، وعُمْرُك رأسُ مالِك، وعليه تِجارتُك، وبه وُصولُك إلى نعيم الأبدِ في جِوار الله تعالى، فكلُّ نَفَسٍ من أنفاسِك جَوْهَرٌ لا قيمةَ له، إذْ لا بَدَلَ له، فإذا فاتَ فلا عَوْدَةَ له»[(٣)].

وهذه وصيةٌ جامعة نافعةٌ[(٤)] للإمام مُوَفَّق الدين بن قُدامَة الحنبلي (ت٦٢٠هـ)، وَجَّهَها - رحمه الله - للطالب فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب: الصحة والفراغ، برقم: (٦٤١٢).

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، انظر هامش (٢)، صفحة (٣٦).

(٣) بداية الهداية، للإمام أبي حامد الغزالي، ص١٢٠.

(٤) ذكرها الشيخ أبو غدة في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء»، ص٢٧٨، ٢٧٩، ومنه أنقلها هنا.

«اغْتَنِمْ رَحِمَكَ الله حياتَك النفيسة، واحْتَفِظْ بأوقاتك العزيزة، واعْلَمْ أنَّ مُدّة حياتِك محدودةٌ، وأنفاسَك معدودةٌ، فكُلُّ نَفَسٍ يَنقُصُ به جزءٌ منك، والعُمْرُ كلُّه قصيرٌ، والباقي منه هو اليسيرُ.

وكُلُّ جزءٍ من عُمْرِك جوهرةٌ نفيسةٌ لا عَدْلَ لها ـ أي ليس لها ما يُعادِلها لنَفاستها ـ، ولا خَلَف منها، فإنّ بهذه الحياةِ اليسيرةِ خُلودَ الأبدِ في النعيم أو العذاب الأليم.

وإذا عادَلْتَ هذه الحياةَ بخُلود الأبدِ؛ عَلِمْتَ أنّ كُلَّ نَفَسٍ يَعدِل أكثرَ مِن ألف عامٍ في النَّعيم المقيم الذي لا حَصْرَ له، أو خِلافَ ذلك، وما كان هكذا فلا قيمةَ له ـ أي لنفاسته لا يُقَدَّرُ بقيمةٍ ـ، فلا تُضَيِّعْ جواهِرَ عُمْرِك النفيسة بغير عملٍ، ولا تُذهِبها بغير عِوَضٍ، واجْتَهِدْ أنْ لا يَخْلُو نَفَسٌ من أنفاسِك إلّا في عمل طاعةٍ أو قُرْبَةٍ تتقرَّب بها، فإنك لو كانَتْ معك جوهرةٌ من جَواهِر الدُّنيا، فضاعَتْ منك؛ لحَزِنْتَ عليها حُزْناً شديداً. بل لو ضاعَ منك دينارٌ لسَاءَك، فكيف تُفرِّط في ساعاتك وأوقاتك؟! وكيف لا تَحزَنُ على عُمْرِك الذاهب بغير عِوَضٍ؟!»[١].

فلَمّا كان للوقت، كلُّ هذه الأهميةِ حتى إنه ليُعَدّ هو الحياة حقّاً؛ كان على المسلم عامةً وعلى الطالب خاصةً أن يَحرِص على الاستفادة من الوقت، وأن يُحسِن تنظيمَه، وأن يَغتنِم وقتَ فراغِه، ويَستفِيد منه على أكمَلِ وجهٍ ليَعُوْدَ عليه بنفعٍ أكبر، فإنَّ كُلَّ ساعةٍ تَمضِي من عُمْرِه لا بَدَلَ لها ولا عِوَضَ عنها، وصَدَق مَن قال[٢]:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ ما عُنِيْتَ بِحِفْظِه ... وأراهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيْعُ

---

(١) الوصية، لابن قدامة الحنبلي، ص ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) القائل هو: يحيى بن هُبيرة الذُّهلي الشَّيباني (ت٥٦٠هـ)، أحد الفقهاء والأدباء.

فعلى الطالب أن لا يُضَيِّعَ وقتَه في تَوَافِهِ الأشياء، وفي الأُغْلُوطَات[١]، بَلْ يُفَرِّغ نفسَه دراسةً وبحثاً، قراءةً ومُذاكَرةً، فقد قِيل: «العِلمُ لا يُعطِيك بَعْضَه حتَّى تُعْطِيَه كُلَّكَ»[٢].

أجوَدُ الأوقاتِ للاغتنام بها:

ومِن الأوقات التي حَرَصَ عليها العلماءُ، ووَجَّهُوا طُلَّابَهم إلى الاستفادة منها: البُكُوْرُ في طلب العلم لِمَا فيه من البَرَكَةِ والْخَيْرِ، وقد دعا له النبيُّ ﷺ حيث قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِيْ في بُكُوْرِهَا»[٣].

وذَكَر الحافظُ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ رحمه الله ـ بعضَ أجودِ الأوقات التي ينبغي للطالب أن يَغتَنِم بها، فقال: «أجوَدُ الأوقاتِ: الأسحارُ، ثم بعدَها وقتُ انتصافِ النَّهار، وبعدَها الغَدَوات دُوْن العَشِيّات»[٤].

كما أشار إلى ذلك أيضاً الإمامُ ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رحمه الله ـ بقوله: «أجوَدُ الأوقاتِ للحفظِ: الأسحارُ، وللبَحْث: الأبكارُ[٥]، وللكتابة: وسطُ النَّهارِ، وللمُطالَعة والْمُذاكَرة: اللَّيْلُ»[٦].

الحذرُ من «الغَفْلَة» و«التَّسْوِيْف»:

هناك آفاتٌ كثيرةٌ تُضَيِّع على الإنسان وقتَه، وتَأْكُل عُمْرَه إذا لم يَنتبِه

---

(١) الأغلوطات: هي المسائل الصغيرة التي يُسأل عنها العالِمُ لِيُستزَلَّ بها.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ١٧٤)، برقم: (١٥٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب البيوع، باب: ما جاء في التبكير بالتجارة، برقم: (١٢١٢)، عن صخر الغامدي رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٤) الفقيه والمتفقه، للحافظ الخطيب البغدادي، (٢/ ٢٠٧).

(٥) الأبكار: جمعُ الجمع لـ «بُكْر»، وهي أولُ النهار.

(٦) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٨٣.

لخطرها، ومنها: «الغَفْلَةُ» و«التَّسْوِيفُ»، وإليك ما جاء في كلٍّ منهما من التَّحذير والذَّمِّ الشَّدِيْدَين في نصوص الكتابِ والسُّنّةِ وأقوالِ السَّلَفِ:

الغَفْلَة:

وهي فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشعَر به(١)، أو سَهْوٌ يَعترِي الإنسانَ من قِلّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ(٢)، وقيل إنها: إبطالُ الوقتِ بالبَطالة(٣).

والقرآنُ الكريم يُحذِّر من الغفلة أشدَّ التحذيرِ، حتى إنه ليَجعَل أهلَها حطب جَهَنَّم، ويَجعَلهم أضَلَّ سبيلاً من الأنعام العَجماوات، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويُدين القرآنُ أولئك الذين يَهتمّون بظاهر العلم دُوْن حقيقته ولُبِّه، فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦ ـ ٧].

ويُخاطِب الرسولَ ﷺ فيقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

كما وَرَدتْ في السُّنّة النبوية نصوصٌ في ذَمّ الغافِلين، ومنها ما رواه

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص٥٤٠.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للأصفهاني، ص ٦٠٩.
(٣) التعريفات، للجرجاني، ص٢٠٩.

عبدُ الله بن عَمْرو - رضي الله عنهما - عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيْبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ»(١).

فعلى الطالب أن يَحذَر من الغفلة، فهي صفةٌ مذمومةٌ تُبلِّد ذِهْنَه، وتَسُدّ له أبوابَ المعرفةِ، كما أنها مرضٌ خطيرٌ إذا أصاب عقلَ الطالبِ وقلبَه؛ يَفقِد حِسَّه الواعي بالأحداث، واختلافِ اللَّيْلِ والنهار، ويَفقِد انتباهَه اليَقِظَ إلى معانِي الأشياء، وعَواقِبِ الأمور، فهو يعني بالصُّوَر لا بالمعاني، وبالظواهرِ لا بالحقائق، والقُشورِ لا باللُّبَاب، والبِداياتِ لا بالنِّهايات(٢).

التَّسوِيْفُ:

وهو تأجيلُ ما يَجِبُ عملُه إلى وقتٍ لاحقٍ، أو تقديمُ ما له أَوْلَوِيَّةٌ تاليةٌ على ما له أولويةٌ عاليةٌ، فهو مِن أشدّ مُضَيِّعات الوقتِ حسرةً على الإنسان، ومِن أشدِّ الآفات خطراً على انتفاعه بيومه وحاضره، فقد قيل: «إنَّ (سَوْفَ) جُنْدٌ من جُنْدِ إبْلِيس»(٣)، فيجب على الطالب أن يَتجنَّبه في جميع حالاته، فمِن حقِّ يومِه عليه أن يَغمُره بالنَّافِع من العلم، والصَّالِح من العمل، ولا يُسوِّف إلى غدٍ حتى يَفلِت منه حاضرُه فيُصبح ماضياً لا يعود أبداً، وإلا نَدِمَ حيث لا يَنفَعه النَّدَمُ(٤).

وهذه نصيحةٌ قيمةٌ للطالب في هذا البابِ، التي خَتَم بها(٥) الحافظُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (١١/ ٢٣٥)، برقم: (٦٦٥٥)، قال محقِّقه الشيخ شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره».

(٢) الوقت في حياة المسلم، للدكتور يوسف القرضاوي، ص٦٥، بتصرف وزيادات.

(٣) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ص١١٤.

(٤) الوقت في حياة المسلم، للدكتور يوسف القرضاوي، ص٦٦، بتصرف يسير.

(٥) نقلاً عن محمد بن سمرة السائح.

الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ - رسالتَه النافعة «اقتضاء العلم العمل»، وذكر فيها:

«إياكَ وتأميرَ التسويفِ على نفسك، وإمكانَه مِن قلبك، فإنه مَحَلُّ الكَلَالِ ومَوْئِلُ التَّلَفِ، وبه تُقطَع الآمالُ، وفيه تَنقطِع الآجالُ، فإنّكَ إنْ فعلتَ ذلك؛ أَدَلْتَه مِن عَزْمك وهواك عليه واسْتَرْجِعَا مِن بَدَنك من السَّآمةِ ما قد وَلَّى عنك، فعند مراجعته إيّاك لا تَنتفِع نفسُك مِن بدنك بنافعةٍ.

وبادِرْ يا أخي! فإنك مُبادَرٌ بِكَ، وأَسرِعْ فإنك مَسرُوعٌ بك، وجَدَّ فإنَّ الأمر جِدٌّ، وتَيَقَّظْ مِن رَقْدَتك، وانْتَبِهْ مِن غَفْلَتك، وتَذَكَّرْ ما أَسْلَفْتَ وقَصَّرْتَ، وفَرَّطْتَ وجَنَيْتَ وعَمِلْتَ، فإنه مُثْبَتٌ مُحْصًى، فكأنّك بالأمر قد بَغَتَك، فاغْتَبَطْتَ بما قَدَّمْتَ أو نَدِمْتَ على ما فَرَّطْتَ»(١).

هذا ما ذكرتُه هنا فهو أَحْسَنُ ما قِيل في قيمة الوقت، وأهميتِه، وأفضلِ أوقاته للاستفادة منه، فعلى الطالب أن يكون شديدَ الحرصِ على استعمال كلِّ لحظةٍ يَقضيها من لحظات وقته الثمين لتعود إليه بالفائدة والنفع، «فالوقتُ من حيث هو مِعيارٌ زَمنيٌّ: مِن أغلى ما وَهَب اللهُ تعالى للإنسان، وهو في حياة العالِم وطالِبِ العلم رأسُ المالِ والرِّبْحُ جميعاً، فلا يَسُوْغُ للعاقل أن يُضِيعه سُدًى، ويَعيش فيه هَمَلاً سَبَهْلَلاً(٢)»(٣).

---

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ص١١٤.

(٢) قال ابن الأثير: «السَّبَهْلَلُ: هو الفارغُ الذي ليس معه مِن عَمل الآخرة شيءٌ. يُقال: جاء يَمْشي سبهللاً، إذا جاءَ وذَهَب فارغاً من غير شيءٍ». (النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ٧٥٣).

(٣) العبارةُ بين القوسين من كلام الشيخ عبد الفتاح أبو غده في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء»، ص٢٣.

وأخيراً لا يَفُوْتُني توجيهُ الطالبِ إلى مطالعة ما أَلَّفه بعضُ العلماء من كتبٍ مفيدةٍ في بيان قيمة الوقت وأهميتِه، لا سيّما كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» للعالِم المربِّي الشيخ عبد الفتَّاح أبو غُدَّة (ت١٤١٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ، ففيه الكثيرُ من أخبار السَّلَفِ الحافزة على حفظ الوقت وكسبِه، ولا شَكَّ أنَّ معرفة الطالبِ لأحوالِهم، وقراءتَه لسِيَرِهم سيكون له أكبر عونٍ على حُسْن استغلالِ وقته، وهم ـ رحمهم الله تعالى ـ خيرُ مَن أدرك قيمةَ الوقتِ، وأهميةَ العُمْرِ، وهم أروَعُ الأمثلةِ في اغتنام دقائق العُمْرِ واستغلالِ أنفاسه في طاعة الله وعبادته.

٨ ـ الغَرَامُ بالكُتُب والحِرْصُ على القِراءة:

إنَّ الغَرام بالكُتب، والحرصَ على القِراءة، سُنَّةُ السَّلَفِ الواجب اتِّباعُها على الخلف، وهما يحلّان من حياة العالِم مَحَلَّ الرُّوحِ من الجسد، والعافيةِ من البَدَنِ، فهما اللَّذان يُساهِمان في تنمية عقلِ الإنسانِ، ويَكسِبانه شخصيةً مُتكامِلةً، ويَزيْدانِه معرفةً، ويَرْفَعانِه مَنْزِلةً، فكما أنَّ غذاء الجسدِ: الطعامُ والشَّراب، فغذاءُ العقلِ: المعرفةُ، وأهَمُّ مصادرها: القراءةُ والكتابُ.

فينبغي أن يكون اعتناءُ الطالبِ بِمُصاحَبة الكتابِ، والحرصِ على قراءته، أمراً لازماً في حياته، بل عادةً لا يُمكِن له التخلُّصُ منها، ويكون مَوْقِعُ الكتابِ من نفسِه ومِن لَذَّات حياتِه مثلما عَبَّر الشّاعرُ[1] عن حاله معه في هذه الأبيات:

---

(١) هو القاضي أبو الحسين علي بن عبد العزيز الْجُرْجاني (ت٣٩٢هـ): الأديب الشاعر، ومن فقهاء الشافعية، كان قاضي قُضاة الرَّيّ. (انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان: ١/ ٣٢٥).

ما تطعَّمْتُ لَذَّةَ العَيْشِ حَتّى صِرْتُ للبَيْتِ والكِتابِ جَلِيْسَا
لَيْسَ شَيْءٌ عِنْدِيْ أَعَزُّ مِنَ الْعِلْمِ فَمَا أَبْتَغِي سِوَاهُ أَنِيْسَا
إِنَّما الذُّلُّ فِي مُخالَطَةِ النَّا سِ فَدَعْهُمْ وَعِشْ عَزِيْزاً رَئِيْسَا

ولشَحْذ هِمّةِ الطالبِ، وتشجيعِه على مُصاحَبة الكتابِ، والحرصِ على القراءة؛ يَحسُن أن أذكر هنا بعضَ ما كان لدى السَّلَف من عنايةٍ بالكتاب وحرصٍ على القراءة، مع ذكر بعض الأمور الْمُهِمّة التي تَمُسّ حاجةُ الطالبِ إلى معرفتها في التأدُّب في استعمال الكتاب، وكيفيةِ الاستفادة منه، والْمُداومَةِ على قراءته.

أولاً: أهميةُ «الكتاب» وعنايةُ السَّلَفِ به، ومراعاةُ الآداب في اقتنائه والحفاظِ عليه، والتأدُّب في استعماله، وكيفيةِ الاستفادة منه:

أ ـ أهميته:

لقد وَرَدَتْ في أهمية الكتابِ ووصفِه أقوالٌ كثيرةٌ، ومِن أرْوَعِها وأبْدَعِها وأصْدَقِها ما قاله في ذلك إمامُ الأدبِ أبو عثمان عَمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، ونَصُّه كما يلي:

«الكتابُ وِعاءٌ مُلِئَ عِلماً، وظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِنَ مُزَاحاً وجِدّاً؛ إنْ شِئْتَ كان أبْيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإنْ شِئْتَ كان أَعْيَا من باقِل، وإنْ شِئْتَ ضَحِكْتَ من نَوادِره، وإنْ شِئْتَ عَجِبْتَ من غَرائب فرائِده، وإنْ شِئْتَ أَلْهَتْكَ طرائفُه، وإنْ شِئْتَ أَشْجَتْكَ مَواعِظُه...

ولا أعلم جاراً أَبَرَّ، وخَلِيطاً أَنْصَفَ، ولا رفيقاً أَطْوَعَ، ولا مُعَلِّماً أَخْضَعَ، ولا صاحباً أَظْهَرَ كِفايَةً، ولا أَقَلَّ جِنايَةً، ولا أَقَلَّ إملالاً وإبراماً، ولا أَحْفَلَ أخلاقاً، ولا أَقَلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا أَقَلَّ غِيْبَةً، ولا أَبْعَدَ

عَضِيْهَةً[1]، ولا أكثَرَ أُعْجُوْبَةً وتَصرُّفاً، ولا أقَلَّ تَصلُّفاً وتَكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أترَكَ لشَغَبٍ، ولا أزهَدَ في جِدالٍ، ولا أكَفَّ عن قِتالٍ؛ من كتابٍ.

ولا أعلَمُ قَريناً أحسَنَ مُوافاةً، ولا أَعْجَلَ مُكافَأَةً، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أَخَفَّ مَؤوْنَةً، ولا شَجَرَةَ أطوَلَ عُمْراً، ولا أَجْمَعَ أَمْراً، ولا أَطْيَبَ ثَمَرَةً، ولا أقرَبَ مُجْتَنًى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أَوْجَدَ في كل إِبَّانٍ؛ من كتابٍ.

ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَداَثةِ سِنِّه وقُرْبِ مِيلادِه، ورُخْصِ ثَمَنِه، وإمكانِ وُجودِه، يَجمَع من التَّدابِير الْحَسَنة، والعُلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقول الصَّحيحة، ومحمودِ الأذهان اللَّطيفة، ومن الْحِكَمِ الرَّفيعة، والمذاهب القَوِيْمَة، والتَّجارِبِ الحكيمة، ومن الأخبار عن القُرون الماضية، والبلادِ الْمُتنازِحة، والأمثال السَّائرة، والأُمَم البائدة؛ ما يَجمَع لك الكتابُ»[2].

وهذا أروَعُ وأصدَقُ وصفٍ في بيان أهمية الكتاب وفوائده، فهذا هو الكتابُ، الذي «يَجْلو العقلَ، ويَشحَذ الذِّهْنَ، ويُحْيِي القلبَ، ويُقَوِّي القَرِيْحَةَ، ويُمتِع في الْخَلْوَة، ويُؤنِس في الوَحْشَة»[3]، فلقد صَدَق في وصفه الشَّاعرُ أبو الطيِّب الْمُتَنبِّي (ت٣٥٤هـ) حين قال: «خيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ»[4].

---

(١) العضيهة: الكذب والإفك والبُهتان.

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ، (١/ ٣٨٤٢)، باختصار.

(٣) العبارة بين القوسين من كتاب «زهر الآداب وثمر الألباب» لإبراهيم بن علي الأنصاري الحصري القيرواني، (١/ ١٣٩)، بتصرف واختصار يسيرَين.

(٤) والبيت بكامله:

أعَزُّ مكانٍ في الدُّنيا سرجُ سابحٍ   وخيرُ جَليسٍ في الزَّمانِ كتاب

ب ـ عنايةُ السَّلَف بالكتاب:

كان السَّلَفُ الصَّالِح يَتفانَون في حُبِّ الكُتُبِ ومُجالَسِتها؛ لِمَا فيها مِن العِلم والفائدة، ومُتْعَةِ العقلِ والقلبِ، فكانت الكتبُ أنيسةَ نفوسِهم وأرواحِهم، وسَلْوَى هُمومِهم وغُمومِهم، وكان الحافظُ ابن الْجَوْزِي (ت٥٩٧هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يقول: «إذا وجدتُ كتاباً جديداً فكَأنِّي وقعتُ على كَنْزٍ»[١].

وهذا الإمام المجاهد الحافظ الزاهد عبد الله بن الْمُبارَك (ت١٨١هـ) فقد لامَه أصحابُه على عدم رُؤيتِهم له مِن كثرة مُجالَسة الكُتبِ والْخَلْوَةِ معها؛ فقال لهم ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «إنِّي إذا كنتُ في الْمَنْزِل جالستُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ»[٢]، يعني: النظر في الكتب.

ولو تَصَفَّح الطالبُ تَراجُم كبار الأئمة، والعلماء المبرَّزين؛ لوجد أنَّ القاسِم المشترك بينهم هو حُبُّ الكتبِ والشَّغفُ بها، وأنهم كانوا من أصحاب المكتبات العظيمة.

وأمَّا رحلتُهم مع الكتاب وقِصّتُهم معه، فهي قصصٌ تَمْلَؤها العاطفةُ والتَّفانِي والبذلُ واحتقارُ الدُّنيا ومَلَذّاتها: فكم من عالِمٍ رَضِيَ بالجوع دهراً ليَقتني الكتبَ، وكم من عالِمٍ آخر باعَ ثوبَه الذي على جسده أو دارَه التي يَسكُنها ليَمتلِك كتاباً، وكم من عالِمٍ رَضِيَ ببُكاء أهلِه وأولادِه عُرْياً وحِرْماناً ولم يَرْضَ بَيْعَ كتابٍ له، وكم من إمامٍ بَكَى وغَلَب حزنُه على صبره لَمَّا فاته كتابٌ.. وكم وكم!![٣].

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص١٤٩.

(٢) تقييد العلم، للحافظ الخطيب البغدادي، ص١٢٦.

(٣) نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية، للشيخ حاتم بن عارف العوني، ص٦٧.

وأخبارُهم في ذلك كثيرةٌ، فقد ذَكَر جملةً وافرةً منها الشيخُ عبد الفتاح أبو غُدَّة (ت١٤١٧هـ) في كتابه «صفحاتٌ من صبر العلماء»، والأستاذُ عبد الرحمن يوسف الفرحان في كتابه «عُشّاق الكُتُب».

ج ـ أمورٌ ينبغي للطالبُ مراعاتها عند اقتناء الكتابِ وبعده:

ثَمّة أمورٌ مهمةٌ ينبغي للطالب مراعاتها عند اقتنائه الكتابَ، وكذلك بعد حَوْزَتِه إياه، وهي أمور جِدّ مهمة قلّما يَنتبِه إليها الطُّلّابُ، وهي:

أمورٌ ينبغي للطالب مراعاتها عند اقتناء الكتابِ:

١ ـ أن يَعتني بتحصيل الكُتبِ الْمُحتاج إليها ما أمكنه، مِثل كتب الأصول في كل علمٍ؛ لأنها آلةُ التحصيل.

٢ ـ ولا يَحشُر مكتبتَه بالكُتب الغُثائية، لا سِيّما كُتُب المبتدعةِ، فإنها سَمٌّ ناقِعٌ[1]. كما لا يَجعَل تحصيلَ الكُتُبِ وكَثْرَتَها حَظَّه من العلم، وجَمْعَها نصيبَه من الفَهْم، كما يفعله كثيرٌ من الْمُنتحِلين الفقهَ والحديثَ.

وقد أحسن القائلُ:

إذا لَمْ تَكُنْ حافِظاً واعِياً فَجَمْعُكَ للكُتُبِ لا يَنْفَعُ

٣ ـ ويَحرِص كُلَّ الحرصِ على اقتناء مؤلَّفات الَّذين عُرفوا بمتانة دينِهم، وصِحَّةِ عقيدتِهم، وسلامةِ فِكْرِهم، وفصاحةِ لُغَتِهم، ونصاعةِ بيانِهم، وجميلِ أسلوبهم.

٤ ـ ويَحرِص على اختيار الكُتُب المنسوجة على طريقة الاستدلال والتفقُّهِ على عِلَل الأحكامِ، والغوصِ في أسرار المسائل.

---

(١) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٧٦.

٥ ـ ويَستشير بعضَ أساتذتِه، أو زُملائه من طُلّاب العلم المشهود لهم، قبل اقتناء الكتابِ المرادِ شِراؤه.

٦ ـ وإذا كان الكتابُ المرادُ شِراؤه شرحاً لكتابٍ مُعَيَّنٍ؛ فينبغي عليه أن يَتأكَّد: هل هناك شروحٌ أخرى للكتاب؟ فإنْ كان له شروحٌ أخرى فعليه أن يَتأكَّد أيضاً: أيُّ تلك الشروحِ أجمَعُها وأكثرُها علماً[١].

٧ ـ ويَتأكَّد من طبعات الكتابِ المقصود، فإنْ كان له أكثَرُ من طبعةٍ؛ فيَحرِص على اقتناء أجود الطبعات له.

٨ ـ وإذا كان المرادُ شِراؤه كتاباً مُحقَّقاً؛ فليَحرِص على أجود النُّسَخ تحقيقاً، و«واجبٌ على طالب العلم: أن يَعرِف الفرقَ ما بين الطبعات، فإنَّ كثيراً من كُتُب التُّراثِ قد طُبِعَ مَرّتَين أو أكثر، وتَتفاوَتُ هذه الطبعاتُ فيما بينها، كمالاً ونَقْصاً، وصِحّةً وسَقَماً، ولا بُدَّ أن يكون رجوع الطالبِ إلى الطبعة المستوفية لشرائط الصِّحّة والقَبول، وهذه الشرائطُ ظاهرةٌ لائحةٌ لِمَن يتأمّلُها، وتتمثَّل في:

ـ التقديم للكتاب، وبيانِ وزنِه العلمي.

ـ وفهرستِه فهرسةً فنيةً، تكشِف عن كُنوزه وخَباياه.

ـ والعنايةِ بضبطه الضَّبْطَ الصحيح.

ـ والتعليقِ عليه بما يُضيئه، ويَربِطه بما قبله وبما بعده، في غير سَرَفٍ ولا شَطَطٍ.

---

(١) مثل: «صحيح البخاري»، له شروحٌ كثيرة، منها: «فتح الباري»، للحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ)، و«عمدة القارئ»، للشيخ بدر الدين العَيْنِي (ت٨٥٥هـ)، وغيرهما.

ـ والإخراج الطِّباعي، المتمثِّل في جودة الورق، ونصاعةِ الحرف الطباعي.

وقد حَظِي تُراثنا ـ ولله الحمدُ والْمِنّةُ ـ منذ ظُهورِ المطبعةِ في القرن الخامس عشر الميلادي إلى يوم الناس هذا، بعُلماء كبارٍ، في الشرق والغرب، تَوَافَدُوا على إخراجه الإخراجَ العِلميَّ الصحيحَ، وطابِعين مَهَرَةٍ أظهروه في حُلَلٍ زاهيةٍ، لكنه ظَهَر إلى جانب هؤلاء: ناشرون مُتساهِلون، وطابعون مُتعجِّلون، أرادوا ثراءَ المالِ مِن أَيْسَر سبيلٍ.

فَاعْرِفْ أيها الطالبُ وأَنْكِر، وأَقْبِل وأَعْرِضْ، على ما وَصَفْتُ لك، تَسْتَقِمْ دراستُك، وتَمْضِ إلى ما تُريد لها مِن كمالٍ وإتقانٍ»[١].

٩ ـ ويَحرِص على اقتناء كُتُبٍ ذات الخطِّ الواضح، مُشَكَّلِ الكلماتِ الْمُشكِلة، ومضبوطِ أسماء الأعلام والبلدان[٢].

١٠ ـ ويُحاوِل اقتناء الكتبِ ذات التجليدِ القويِّ المتين، ويَتَأَكَّد من تَماسُكِ الغِلافِ.

١١ ـ ويَتأكَّد من خُلُوِّ الكتاب من الأوساخِ، أو عيوبِ الطَّبع، كالقطع في الصفحات، أو طَيِّ بعضِها، أو تَمَزُّقِ أجزاء من الصفحات، أو نقصٍ فيها.

١٢ ـ ولا يَغْتَرّ بالعناوين البَرَّاقة، والسِّعْر الرخيص، بل ينبغي عليه التأكُّدُ من مضمون الكتابِ[٣].

---

(١) بتصرف يسير من كلام الدكتور محمد محمود الطناحي في كتابه «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»، ص٢٢.

(٢) وخير نموذج لذلك كتب: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، والدكتور بشّار عواد معروف، وغيرهم من العلماء المؤلِّفين والمحقِّقين الكبار.

(٣) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم»، للإمام ابن جماعة، ص١١٦، و«حلية طالب =

أمورٌ ينبغي للطالب مراعاتها بعد حَوْزَتِه الكتابَ:

إذا حازَ الطالبُ كتاباً؛ فلا ينبغي له أن يُدخِله في مكتبته إلَّا بعد أن يَمُرَّ عليه سريعاً مثل:

١ ـ أن يَقرأ مقدِّمةَ الكتابِ جيداً، فإنَّ كثيراً مِن المؤلِّفين والكُتَّاب يَكشِفون في مقدِّمات كُتُبِهم عن دَوافِع التأليفِ وأهدافه، كما يَكشِف بعضُهم عن الفئة التي يَخدِمها الكِتابُ، وعمَّا إذا كان الكِتابُ يَهدِف إلى شرحِ قضيةٍ مُعَيَّنةٍ، أو كان قد صُمِّمَ للرَّدِّ على كاتبٍ آخر، أو للمُساهَمَة في مُعالَجة قضيةٍ من القضايا. كما أنَّ بعضهم يَشرحُون في مقدِّمات كُتبِهم اصطلاحاتِهم التي أكثروا من استعمالها فيها.

٢ ـ ويُلقِي نظرةً جيدةً على فهرس موضوعات الكتاب، فإنها تترسَّخ في ذاكرته، بحيث إنه يستطيع أن يَرجِع إلى تلك الموضوعات بسهولةٍ عند الحاجة.

٣ ـ ويَطَّلِع على فهرس مصادر الكتاب ومراجعه؛ فإنَّ المصادر والمراجع التي اعتمد عليها المؤلِّفُ في بناء كتابه، تُشَكِّلُ الموردَ الأساسَ لمعلوماته وصياغاته، فإنها تُساعِد الطالبَ على كشف الكثير مِن الخلفية الفكرية والثقافية التي تُشَكِّل ميولَ المؤلِّف المعرفية.

٤ ـ ويَقْرَأ مُلَخَّصَ الكتابِ الذي يكون ـ عادةً ـ خلفَ غلافِه. وكذلك مُلَخَّصاً مُكَثَّفاً في الرسائل الجامعية، الذي يُودِعه الباحثون آخِرَ كُلِّ فصلٍ

= العلم»، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٧٦، و«معالم في طريق العلم»، للشيخ عبد العزيز السدحان، ص١٧٧، ١٧٨.

من فصول رسائلهم، وهذا يُفيده في تَحسُّسِ جوهر المادة المعروضة. كما أنَّ إلقاء نظرةٍ سريعةٍ على فصول الكتاب لا تَخْلُو من نفعٍ(١).

٥ ـ ويُحاوِل دائماً قراءةَ الكتابِ كُلِّه، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الفَتّاح أبو غُدَّة (١٤١٧هـ) ـ رحمه الله ـ: «الكتابُ لا يُعطيك سِرَّه إلَّا إذا قرأتَه كُلَّه»(٢).

د ـ الأدبُ مع الكتاب:

وليكون الطالبُ حسنَ الأدبِ مع الكتاب والاستفادة منه؛ فعليه أن يَلتزِم بهذه الآداب:

١ ـ أن يَتأدَّب مع الكتاب، فإنَّ من تعظيم العلم: تعظيم الكتاب، فينبغي للطالب أن لا يأخذ الكتابَ إلا بطهارة.

٢ ـ ويُراعي في وضع الكُتُبِ أو ترتيبِها في الرُّفوف باعتبار علومها وشرفِها ومصنِّفيها وجلالتهم، فيَضَع الأشرفَ أعلى الكُلِّ، ثم يُراعي التدريجَ، مثلاً: أن يضع القرآنَ الكريم في الأعلى ثم تفاسيرَه وما يتعلَّق به، ثم كتبَ الحديث وشروحَه وعلومَه، ثم كتبَ الفقه وأصولَه، ثم كتبَ التاريخِ والأدبِ... إلى آخره.

٣ ـ ويَصُفّ الكُتُبَ في الرُّفوف بطريقة صحيحة، دون مَيْلٍ لها، أو وَضْع الكتبِ الضَّخمة على الصغيرة، مما يعرِّض الثانيةَ للتَّلَف والتَّمَزُّق.

٤ ـ ولا يَضَع الكتابَ على مَوْضِع الأقدام في سَرِيْرٍ أو صُوْفَةٍ، ولتَكُنْ الحاشية التي من جِهَة البَسْمَلة وأوّلِ الكتاب إلى فوق.

---

(١) القراءة المثمرة مفاهيم وآليات، للدكتور عبد الكريم بكار، ص ٣٦، ٣٨، بتصرف وزيادات.

(٢) ذكره الأستاذ سلمان أبو غدة في ترجمة الشيخ في مستهلّ تحقيقه لـ «لسان الميزان»، (١/ ٦٢).

١ ـ ويَحذَر من وضع الكتابِ على الأرض، بل يَضَعه على كُرْسيٍّ أو تَخْت خشبٍ أو نحوِه؛ كيلا يَسرَع إليه البِلَى والتَّلَفُ بعامل الرُّطُوبة وغيرها، ويَضَع فوقه أو تحته ما يَمنَع تآكُلَ جلدِه، أو ما يُصادِفه أو يُسنِده من حائطٍ أو غيره.

٢ ـ ولا يَجعَل الكتابَ خزانةً لكراريس أو غيرها، ولا مِخَدَّةً، ولا مِرْوَحَةً، ولا مِكْبَساً، ولا مِسْنَداً، ولا مُتَّكأً، ولا مَقْتَلَةً للبَقِّ وغيره.

٣ ـ ويُراعي الطُّرُقَ الصحيحةَ في فتح الكتابِ، وتقليبِ صفحاته، ومُناوَلتِه بين الأيدي.

٤ ـ ويُراعي عند فتح الكتابِ للقراءة سلامةَ الكتاب، فلا يُعرِّضه للتَّلَف إذا كان مُجَلَّداً فلا يُسرِف في فتحه؛ كيلا يُؤَدِّي ذلك إلى تقطيع حَبْله ـ يعني موضعَ الخياطةِ من التجليد ـ.

٥ ـ ولا يَدَع الكتابَ مفتوحاً، أو مقلوباً لفترةٍ طويلةٍ، مما يعرِّضه للتمزُّق والاتِّساخ.

٦ ـ ولا يَطوِي صفحاتِ الكتاب ذات موضوعاتٍ تَهُمُّه ليَقِفَ عليها عند حاجته إليها، بل يضع عليها إشارةً خفيفةً قابلةً للإزالة، أو علامةً أخرى، وقديماً كان العلماء يَكتُبون كلمة «بَلَغ» للدلالة على المكان الذي وصل إليه[١].

٧ ـ ولا يُشير إلى موضوعاتٍ مُهِمّةٍ في الكتاب إلا بقلم الرَّصاص، حتى تَسهَل قراءتُها له ولغيره، ويتجنَّب الإكثارَ مِن ذلك حتى لا تَتَشَوَّهَ به صفحاتُ الكتاب.

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص ١١٨، و«من أدب المحدثين في التربية والتعليم»، للدكتور أحمد نور سيف، ص٢٣٢، بتصرف وزيادات.

وهذا الحِسُّ المُرهفُ في التَّعامُل مع الكتاب يَعكِس أبعادَ تلك التَّربيةِ الفريدة عند السَّلَف في إعداد الطالبِ، وإشعارِه بأهمية الكتابِ والتأدُّب في استعماله، وكيفيةِ الاستفادة منه، والنَّظرةِ إليه نظرةَ احترامٍ وإجلالٍ.

وقد لاحظتُ نموذجاً من هذا الأدب الرفيع مع الكتاب عند العلامة المربِّي الداعية الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدْوِي (ت١٤٢٠هـ)، فكان يُزعِجه كثيراً منظرُ الكتبِ الموضوعة عشوائياً، فكم رأيتُه يُرَتِّبها بيده ترتيباً لائقاً بها، ويَطلُب ذلك أيام مرضِه ـ في آخر عُمره ـ ممّن حوله مِن الطلاب في غايةٍ من اللُّطف، وطالما حظيتُ بهذا الشَّرف، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيحَ جِنانه.

و«المُرَبُّون والمعلِّمون اليومَ مُطالَبون بهذا الأسلوبِ الذي نَفتقده ـ مع الأسف ـ في كثيرين منهم، فيَرْمِي أحدُهم بالكتاب، أو يَضَعُه تحته ليَتَّقِيَ به أَتْرِبَةَ الكرسيِّ، أو تُصنَع التُّخَت، وتُجعَل حافظة الكتبِ تحت الكرسيِّ الذي يَقعُد عليه الطالبُ.

وافتقدنا في كثير من المدارس، الاهتمامَ بالكتاب أو الكُرّاس، تجليداً، أو نظافةً، أو تنظيماً، وهي وإنْ كانت أموراً شكليةً في نظر البعضِ، إلَّا أنَّها في حقيقة الأمرِ صياغةٌ وإعدادٌ وتشكيلٌ لشخصية الطالبِ في مستقبل حياتِه، فإنْ أُحْسِنَ إعدادها؛ تَهَذَّبَتْ وأصبحت هذه المعاني جزءاً من شخصيتها، وأسلوباً في حياتها، وأثَّر في ذلك في عطائها في المستقبل، وتَحَمُّلِ مسؤولياتها؛ وكانت أجيالاً صالحةً لأمتها ووطنِها»[1].

هـ ـ إعارة الكتب واستعارتها ومراعاة الآداب في ذلك:

إنّ إعارة الكُتب لمحتاجها والمستفيد منها تُعَدّ نوعاً من سُبُل نشرِ

---

(١) من أدب المحدثين في التربية والتعليم، للدكتور أحمد نور سيف، ص٢٣٣.

العلم، لقد استحبَّ العلماءُ ذلك لِمَن لا ضَرَرَ عليه فيها مِمَّن لا ضَرَرَ منه بها، لِما فيه من الإعانةِ على العلم وبذلِ الفائدة[(١)]، قال أبو وَهْب محمد بن مُزاحِم العامِري (ت٢٠٩هـ) «أوّلُ بركةِ العِلم إعارةُ الكتبِ»[(٢)]، ولبعضهم في ذلك أبياتٌ جميلةٌ، ومنها هذه التي قالها الحافظُ أبو الكَرَم خَمِيْس الْحَوْزِي (ت٥١٠هـ):

كُتُبي لأهلِ العِلْمِ مَبذُولةٌ ... أَيْدِيْهِمْ مِثْلُ يَدِيْ فِيْها
مَتى أرادُوْها بِلَا مِنَّةٍ ... عارِيَّةً فَلْيَسْتَعِيْرُوْها
حاشَايَ أنْ أَكْتُمَها عَنْهُمْ ... بُخْلاً كَما غَيْرِيْ يُخَفِّيْها
أعارَنا أَشْياخُنا كُتْبَهم ... وَسُنَّةُ الأشْياخِ نُمْضِيْها[(٣)]

ولكن ثَمّة آدابٌ ينبغي للمستعير مراعاتها في استعارة الكتاب، وهي:

١ ـ أن يَشكُر الْمُعِيرَ ويَدْعُو له بالخير.

٢ ـ ويَتفقَّد الكتابَ جيّداً عند استعارته وعند رَدِّه.

٣ ـ ويُحافِظ على نظافة الكتابِ ما دامَ عنده، ويُعيده إلى صاحبه سالِماً من كلِّ عيبٍ.

فقد قال أحدُ الْمُعِيرين للكتاب:

إذا استعرتَ كتابي وانتفعتَ به ... فاحْذَرْ وقيت شرّاً أن تغيرهُ
وارْدُدْه لي سالِماً إنّي شُغِفْتُ به ... لولا مخافة كَتْمِ العِلمِ لم تَرَهُ[(٤)]

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١١٦.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني، ص١٧٥.

(٣) أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني، ص١٧٥.

(٤) لم أعثر على مصدره.

٤ ـ ولا يَحبس الكتابَ عنده عن صاحبه لوقتٍ طويلٍ.

يقول الإمام الزُّهْري (ت١٢٤هـ) ليونس بن يَزيد الأَيْلِيّ (ت١٥٩هـ) «يا يونس! إيّاك وغُلول الكُتُبِ»، قال: قلتُ: وما غُلول الكتب؟، قال: «حَبْسُها عن أصحابها»[١].

فشَبَّه الزهريُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حَبْسَ الكتبِ بالإثم، ومَنْع الناسِ من حقِّهم بِمَن يَغُلُّ من الغنيمة في الحرب قبل أن تُقسَم، فيَأخُذ ما ليس له فيه حقٌّ، ويَرتكِب بذلك جُرْماً عظيماً[٢].

ولبعضهم:

أعِرْ صديقَك ماحصّلتَ من كتبٍ ... تَفُزْ بشُكر أريجِ النَّشْرِ عن كَثَبِ

فإنْ أعارُوْك فَارْدُدْها على عَجَلٍ ... حتى تُعَارَ بلا منعٍ ولا نَصَبِ

ومما قِيل فيمَن حَبَس الكُتُبَ عن صاحبها:

ما بالُ كُتْبي في يَدَيْكَ رَهِينةً ... حُبِسَتْ على كَرِّ الزَّمان الأوّلِ

فأْذَنْ لها في الانصراف فإنّها ... كَنْزٌ عليه إذا افتقرتُ مُعَوَّلِي

ولقد تَغَنَّتْ حين طالَ مَقامُها ... طالَ الثَّواءُ على رُسوم الْمَنْزِلِ[٣]

٥ ـ وإذا قضى حاجتَه من الكتابِ؛ أو طَلَبه صاحبُه، بادر بردِّه، وليُعامِل المعيرَ بما يُحِبّ أن يُعامله به، وفي هذا المعنى يقول الجاحظ:

أيها الْمُسْتَعِيْرُ مِنِّيْ كِتاباً ... لا تَرَى رَدَّ ما أعرتُك نَفْلاً

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ٢٤٢)، برقم: (٤٨٢).

(٢) من أدب المحدِّثين في التربية والتعليم، للدكتور أحمد محمد نور سيف، ص٢٣٨.

(٣) أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني، ص١٧٦.

إِرْضَ لِيْ مِنْهُ مَا لِنَفْسِكَ تَرْضَى   وتَرَى رَدَّ ما اسْتَعَرْتُك فرضاً[١]

٦ ـ ولا يُصلِح الكتابَ الْمُستعار إلا بإذن صاحبِه.

٧ ـ ولا يعلِّق عليه تعليقاتٍ مهما كانت علميةً وقَيِّمَةً في نظره، إلا إذا عَلِم رضا صاحبِه.

٨ ـ ولا يَكتُبِ شيئاً في بَياض فَواتِحِه أو خَواتِمِه، إلَّا إذا تأكَّد من عدمِ سَخط صاحبِه على ذلك.

٩ ـ ويُحافِظ عليه من الضَّياع والفُقْدان؛ لأنّ فَقْد الكتابِ المستعار كبيرةٌ من كبائر الاستعارة[٢].

ثانياً: أهمية «القراءة» وفوائدها وأهدافها:

إنَّ رسولَنا محمَّداً ﷺ بُعِثَ برسالةٍ سماويةٍ عظيمةٍ خالدةٍ، غايتُها: الدعوةُ إلى التوحيد، والإيمانُ بالله ورسولِه، والحثّ على العبادة والطاعة، فكان من طبيعة هذه الرسالةِ أن يَنْزِل على صاحبها ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ أوّلُ وَحْيٍ بكلماتٍ لها علاقة بما بُعث لأجله، مثل: «وَحِّدِ اللهَ»، أو«آمِنْ به»، أو«اعْبُدْ»، أو«صَلِّ»، أو«صُمْ» وغيرِ ذلك من كلماتٍ تَقتضِي طبيعةَ تلك الرسالةِ التي بُعِثَ ﷺ لأجلها.

ولكن الَّذي نَزَل به الوَحْيُ؛ أَخْلَفَ الظُّنُوْنَ، وبَهَر الألبابَ حقّاً، إذْ

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (١/ ٢٤٤)، برقم: (٤٨٨).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، ص ١١٥، ١١٦، ١١٩، و«معالم في طريق طالب العلم»، للشيخ السدحان، ص١٨٥، ١٨٨، بتصرف وزيادات.

كان بكلمةٍ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾. . فأوَّلُ تكليفٍ تلقَّاه الرَّسولُ ﷺ مِن ربِّه هو القِراءةُ، وأوَّلُ كلمةٍ أُلْقِيَتْ عليه هي: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[1].

وهذا أعظَمُ دليلٍ على أهمية القراءة في دين الإسلام، حتى أنزل اللهُ ﷻ أوَّلَ وَحْيِه إلى رسوله المصطفى ﷺ بكلمةِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، في صيغة فِعل الأمر التي تَدُلُّ على الوُجوب. ولكن من الْمُؤسِف جداً أنَّ أبناءَ الأُمَّةِ المخاطَبة بالقِراءة مِن فوق سبع سماواتٍ، يحتاجون دوماً إلى الحثِّ على القراءة، والترغيبِ فيها!.

أ ـ فوائد القراءة:

وما للقراءة من فوائد ومنافع لا يخفى على أحدٍ، ومع ذلك سيُذكَر بعضُ أهمِّها وأبرزِها تذكيراً للطالب وتشجيعاً له على مُداومَتها، وهي كما يلي:

١ ـ أنَّ القراءة مِن أقوى الأسبابِ لمعرفة الله ﷻ، وعبادتِه، وطاعتِه، وطاعةِ رسول الله ﷺ، على وجهٍ صحيحٍ وطريقةٍ أصوَب مُوْصِلةٍ إلى مَرضاة الله.

٢ ـ وأنَّها طريقٌ إلى معرفة سيرة الرَّسولِ ﷺ، وأخلاقِه، التي لنا فيها عِظَةٌ وعِبْرَةٌ، ولنا فيها أُسْوَةٌ حَسَنةٌ.

٣ ـ وبها تحقيق فضيلة طلبِ العلم الشرعي، والتفقُّه في الدِّين، وإزالة الجهل عن النفس، مع نيّة العمل بما عَلِمَ.

٤ ـ وبها يُعرَف الفرقُ بين الحلال والحرام، والواجبِ والْمُسْتَحَبّ، والْمُباح والْمَكْرُوه، وعن طريقها تُعرَف العباداتُ، من صلاةٍ وزكاةٍ وحَجٍّ

---

(١) انظر: «الوصايا العشرة لمن يريد أن يَحيا»، للأستاذ خالد محمد خالد، ص١٣٦، ١٣٩، ومقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب «النظم التعليمية عند المحدِّثين في القرون الثلاثة الأولى»، للأستاذ أقلايَنة، ص٧.

وصيامٍ، وغيرِها من الأحكام الْمُهِمَّة.

٥ ـ وبها تُعرَف مَكائدُ أعداءِ الإسلام من الكَفَرَة والْمُلحِدين، والِفرَق الضّالَّة ودحضِها، والحذرِ والتحذيرِ منها.

٦ ـ وأنها سببٌ لمعرفة أحوالِ الأُمَم الماضية والاستفادة مما حَدَث لها.

٧ ـ وأنَّ كثرة قراءة الكُتبِ وسَعَةَ الاطّلاعِ على الكتب المختلفة، تَجعَل الناسَ أن يَنْظُروا إلى صاحبها نظرةَ إكبارٍ وتقديرٍ.

٨ ـ وأنها تُعطي القارئَ القُدْرَةَ على التحليل وإبداء الرَّأي السَّليم، وإذا نَقَد فإنّه يَنقُد بعَيْنٍ بصيرةٍ، كما أنها تُنَمّي قُدْرَتَه على الْمُناقَشة وإثراء الْمَجالِس والْمُنتدِيات بكلّ ما هو نافعٌ.

٩ ـ وأنها تُنَمّي القدرةَ العقليةَ على التَّركيز والتَّخيُّلِ، والتَّمييزِ بين الواقع والخيال.

١٠ ـ وأنها تُوسِّع دائرةَ مَعارِف القارئ، وتُغْنِي خِبراته، وتُوسِّع أُفُقَ تفكيرِه.

١١ ـ وأنها تُثرِي لغةَ القارئ بالعديد من الْمُفرَدات، وتُنَمّي ذَوْقَه.

١٢ ـ وأنها تُعَلِّم القارئَ الضَّبْطَ والدِّقَّةَ في تَقَصّي المعلوماتِ والحُكمِ على الأشياء(١).

ب ـــ أهداف القراءة:

إنَّ الأهداف العامَّة للقراءة عند معظم الناس، لا تتجاوَزُ عن ثلاثة، وهي:

١ ـ القراءةُ من أجل التَّسلية، وتزجيةِ الوقت وملءِ الفَراغ: وهذه القراءةُ

(١) بتصرف واختصار من «الإضاءة في أهمية الكتاب والقراءة»، للأستاذ خالد النصار، ص٥٤، ٥٦.

الأكثر شيوعاً بين الناس، وتُثبِت بعضُ الإحصاءات أنَّ نحواً من سبعين بالمئة من القُرَّاء يَتّجِهون إلى هذه القراءة من أجل التسلية، فيقرؤون الجرائدَ، والمجلَّات، والرِّوايات، والقِصَص، والْمَسْرَحِيّات. فهذه القراءةُ وإنْ كانت للتسلية لكنها لا تَخْلُو من فوائد، بشرطٍ أن تكون في إطارٍ مُحَدَّدٍ، فصُحْبَة الكتابِ خيرٌ على كلِّ حالٍ.

٢ ـ القراءة من أجل الاطِّلاع على معلومات فقط: وهو أسلوبٌ في القِراءة يُمارِسه كثيرٌ من النَّاسِ، كمَن يتناول «سِيَر أعلام النبلاء» ـ وهو في مجلَّدات كثيرة ـ لمعرفة ترجُمةِ عَلَمٍ من أعلام المسلمين فقط، وكمَن يفتح «صحيحَ البخاري» للبحث عن حديثٍ يتعلَّق بالعلم فقط، وهكذا دواليك. والجهدُ الذي يتطلَّبه هذا النوعُ من القِراءة محدودٌ جداً، وكذلك نفعُه.

٣ ـ القراءة من أجل توسيع قاعدةِ الفهم: وهي كمَن يقرأ «مقدِّمةَ ابن الصَّلاح» أو كتاباً مثلِه في علوم الحديث، أو غيرِه في علوم أخرى، ليتوسَّع في ذلك العلمِ، ويتعمَّق فيه. وإنَّ هذا النَّوْعَ من القراءة يُعتبَر مِن أشَقّ أنواعِها، ولكنَّ أكثرها فائدةً ونفعاً بلا شَكٍّ، فإنَّ القراءة من أجل الفهم هي التي تَستهدِف امتلاكَ منهجٍ قويمٍ في التعامُل مع العِلم أو المعرفة، وتَجعَل معلوماتِ القارئ تُزهِر وتُثمِر، وإنَّ القارئ إن اسْتَمَرَّ على مثل هذه القراءةِ في علمٍ من العلوم؛ فلا يُستَبعد أن يكون مَرْجِعاً فيه في مُدّةٍ قصيرةٍ[١].

ج ـــ أمورٌ لا بُدَّ من مراعاتها في تهيئة جوِّ القراءة:

عموماً فإنَّ كيفية القراءةِ تحتاج إلى توضيح أمورٍ تالية:

---

(١) القراءة المثمرة مفاهيم وآليات، للدكتور بكار، ص ٢٦، ٢٧، بتصرف واختصار وزيادات.

١ ـ يجب أن يكون مكانُ الدِّراسة مُنَظَّماً وجميلاً ونظيفاً، يَبعَثُ على الارتياح والانشراح، وهذا يكون ميسوراً حين يكون هناك حجرةٌ خاصّةٌ بالدِّراسة أو جزءٌ من حجرةٍ؛ لأنَّ المكان المليء بالأشياء الْمُبعثَرة، أو الَّتي لا حاجةَ إليها؛ يَبعَث على الكآبة، ويولِّد الرغبةَ في مغادرته.

٢ ـ ينبغي أن تكون حجرةُ الدِّراسة صِحِّيَّةً حسنةَ التَّهْوِيَة، جيِّدةَ الإضاءةِ، وينبغي أن تكون درجةُ الحرارةِ فيها بين (١٥) و(٢١)مْ حتى يَحتفِظ القارئُ بنشاطِه، ويستطيع الاستمرارَ على القراءةِ مُدّةً طويلةً.

٣ ـ ينبغي أن يكون مكانُ الدِّراسة بعيداً عن الضَّوْضاء، سواء أكان داخِلَ الْمَنْزِلِ أو خارجَه؛ لأنَّ الدِّراسةَ تتطلَّب صفاءَ الذِّهْنِ والقُدْرَةَ على التركيز، فهذا لا يتيسَّر إلَّا بِهُدوء المكان، وانعزالِه عن الناس.

٤ ـ ينبغي أن يكون الكرسيُّ مُرِيْحاً، وأن يكون مُناسِباً لمكتب الدِّراسة، حتى يَجلِس القارئ على وَضْعِيّةٍ مناسبةٍ صِحِيّةٍ تتلاءَمُ مع الجسد، بحيث لا يصيرُ الجلوسُ للقراءة من باب الْجُهْد والعَناء.

٥ ـ ينبغي أن يضع مريدُ القراءةِ على مكتبه الأدواتِ والْمَعاجِم والْمَراجِع التي يحتاج إليها أثناء القِراءة، حتى لا يَضِيْع وقتُه بالقيام والقعود إن احتاج إلى شيءٍ من ذلك[1].

وهذه بعضُ أمورٍ ينبغي على الطالب مراعاتها في تكوين الْجَوِّ المناسِب للقراءةِ، كما عليه أن يَعلَم: أنَّ العِبرةَ ليست بكثرة الجلوس في حُجْرَة الدِّراسة، ولا بكثرة الكُتُب التي يَقرؤها، وإنما العِبرةُ بالإنتاجية والثَّمَرَة التي يَقطِفها من خلال قراءته للكتب.

---

(١) من كتاب «القراءة المثمرة مفاهيم وآليات»، للدكتور عبد الكريم بكار، ص ٢٦، ٢٨، بتصرف واختصار وزيادات من المؤلف.

هذا ما وَسعني من ذِكر بعض التوجيهات والنصائح في التأدُّب في استعمال الكتاب وفي كيفيةِ الاستفادة منه، والحثّ على قراءته. فعلى الطالب أن يَحرِص على الاستفادة من هذه التوجيهات والنصائح، والعمل بها، فالكتابُ في الزَّمان خيرُ جليسٍ، وقراءته فاتحةُ خيرٍ للإنسان.

وأمَّا الذي يَزعُم أو يَعتقِد أنَّه يَستغني عن الكتاب «بالإنترنيت» ما دامَ يَملِك جِهازَ الحاسوبِ الآلِيّ، ومُشترِكاً بشَبَكَة الاتِّصالات العالمية، فهو مُخْطِئٌ في زَعْمه أو اعتقاده في ذلك، الذي لا يَنِمّ إلَّا عن تفكيرٍ محدودٍ وساذجٍ.

ولا يُنكَر ما للإنترنيت من فوائد ومنافع، ولكنه مع ذلك لا يَحِلّ محلَّ الكتابِ أبداً، فهو يَختلِف عن الكتاب كُلَّ الاختلاف في كونه متجدّدَ المعلومات باستمرارٍ، كذلك فهو متنوّعُ الفُنون، فقد تَظْهَر فيه معلوماتٌ وموضوعاتٌ فجأةً، وتختفي فجأةً، وقد تستبدل بسُرعةٍ، ما لم يلجأ القارئ إلى وسائل الحفظِ المعمول بها في الحاسب الآلِي.

كما لا بُدَّ لاستخدامه من وعيٍ وإدراكٍ لدى القارئ، ليستطيع التميزَ بين الضَّارّ والنافع، والغَثِّ والسَّمين، بحيث لا يَمِيل مع كلِّ اتجاهٍ، ولا يَسِير مع كلِّ فكرةٍ[1].

كذلك في استخدامه تضييع كثيرٍ للوقت في التنقُّل من موقعٍ إلى موقعٍ دون أن يُعطي نتيجةً مفيدةً أحياناً.

لذلك من الخطأ جداً أن يَظُنّ ظانٌّ أنَّ في استخدام «الإنترنيت» غِنًى

---

(١) انظر ما كتبه في ذلك الأستاذ خالد النصار في كتابه «الإضاءة في أهمية الكتاب والقراءة»، ص٤٤، ٤٥.

عن مُصاحَبة الكتاب وقراءته، ومع ذلك فعلى كلِّ مَن يَستخدِمه أن يُراعي بعضَ الأمور كالتي تلي:

١ ـ أنْ يُخَصِّصَ لتَصَفُّحِ المواقع ساعةً يومياً فقط في آخر اليوم، كي لا يَضِيع وقتُه في التنقُّل من موقعٍ إلى موقعٍ.

٢ ـ ويَعتنِي بالقِراءة لِمُشارِكين من العلماء المتخصِّصين في مجالاتهم، ومن طَلَبَة العِلم الْمُتقِنين في العلوم الشرعية.

٣ ـ ولا يَكتُب على المواقع إلَّا للفائدة، ولا يُجادِل في مسألةٍ بغير علمٍ، وإنْ فعل خِلافَ ذلك؛ هَدَر وقتَه ووقتَ غيرِه.

٩ ـ الْمُناصَحةُ وبذلُ الفائدةِ:

لقد حَثَّ العلماءُ طالِبَ العلمِ على الْمُناصَحة وإفادةِ بعضِهم بعضاً، سواء أكان ذلك ببذل النُّصْح والإرشادِ والتوجيهِ لِمَن هم بحاجةٍ إلى ذلك، أو بإعارةِ الكُتُب لخِبّانه وخِلّانه ليستفيدوا منها، وهذه أوْلَى فوائد طلبِ العلم، وعلى وجه الخصوص طلب علم النُّبُوة وميراثها، وقد أُثِرَتْ في ذلك العديدُ من الأقوال عن الأئمة والعلماء، وها هي بعض منها:

١ ـ قال الإمام مالكُ بن أنس (ت١٧٩هـ) ـ رحمه الله ـ: «مِن بركة الحديثِ إفادةُ بعضِهم بعضاً»[١].

٢ ـ وقال الإمام عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ) ـ رحمه الله ـ: «إنَّ أوّل مَنْفَعَةِ الحديثِ أن يُفيد بعضُكم بعضاً»[٢].

٣ ـ وقِيل لإمام العربية خَلِيل بن أحمد الفَرَاهِيْدي (ت١٧٠هـ): بِمَ

---

(١) علوم الحديث، لابن الصلاح، ص٢٤٨.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ١٥٠)، برقم: (١٤٥٢).

أَدْرَكْتَ هذا العِلمَ؟ قال: «كنتُ إذا لَقِيتُ عالِماً أَخَذْتُ منه، وأعطيتُه»[(١)].

٤ ـ وقال الإمام النَّووي (ت٦٧٦هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «ينبغي أن يُرشِد [الطالبُ] رِفْقَتَه وغيرَهم من الطَّلَبَة إلى مَواطِن الاشتغالِ والفائدة، ويَذكُر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والْمُذاكَرة، وبإرشادهم يُبارَك له في عِلمه ويَستنير قلبُه، وتتأكَّد المسائلُ معه مع جزيل ثوابِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)].

٥ ـ وقال الإمامُ ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: ينبغي للطالب «أن يُرغِّب بَقِيّةَ الطَّلَبَةِ في التحصيل، ويَدُلّهم على مَظانِّه، ويَصرِف عنهم الْهُمُوْمَ الْمُشغِلةَ عنه، ويُهوِّن عليهم مُؤنَتَه، ويُذاكِرهم بما حَصَّله من الفوائد والقواعد والغرائب، ويَنصَحهم في الدِّين، فبذلك يَستنير قلبُه ويَزكُو عِلمُه، ولا يَفخَر عليهم، أو يُعجَب بجَوْدة ذِهنه، بل يَحمَد اللهَ تعالى على ذلك، ويَستزيده منه بدَوام شُكره»[(٣)].

لذلك ينبغي أن يكون الطالبُ حريصاً على إرشاد رُفقائه وزُملائه إلى ما يَظفَر به من فوائد علميةٍ، عملاً بهذا الحديث: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْماً، ثُمَّ يُعَلِّمُهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»[(٤)]، والحديثِ: «مَنْ دَلَّ عَلى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[(٥)].

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص٨٥.

(٢) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، (١/ ٦٥)، باب: آداب المتعلم.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١١٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن، في المقدمة، باب: ثواب معلِّم الناس، برقم: (٢٤٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال المنذري: «رواه ابن ماجه بإسناد حسن»، (الترغيب والترهيب: ١/ ١٢٦).

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله، برقم: (١٨٩٣)، عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أمّا الذي يَكتُم عن إخوانه شيئاً من الفوائد ليَنفرِد بها عنهم؛ فهو جديرٌ بأن لا يُنتفَع به(١)؛ ومَن فَعَل ذلك «لَمْ يَنْبت عِلمُه، وإنْ نَبت لَمْ يُثمِر، وقد جَرَّب ذلك جماعةٌ من السَّلَف»(٢). فكِتمَانُ الطالبِ علماً وفائدةً عن زُملائه ورُفَقائه لُؤْمٌ لا يَلِيقُ به، وقد وَرَد في الحديث وعيدٌ شديدٌ لِمَن يَكتُم العِلمَ، كما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فكَتَمه؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(٣).

وقال الحافظ ابن الْجَوْزي (ت٥٩٧هـ) ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]: «وهذه الآيةُ تُوجِب إظهارَ عُلومِ الدِّين منصوصةً كانت أو مستنبطةً»(٤).

وقد أُثِرَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إنَّ الناسَ يقولون: أكثَرَ أبو هريرة(٥)، ولولا آيتان في كتاب الله ما حَدَّثْتُ حديثاً»؛ ثم تَلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخرها(٦).

وقال الإمام عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ) ـ رحمه الله ـ: «إذا كَتَم العالِمُ عِلْمَه؛ ابْتُلِيَ إمّا بموت القلبِ، أو يُنْسَى»(٧).

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث، للدكتور نور الدين عتر، ص١٩٢.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص١١٤.
(٣) أخرجه ابن ماجه، في السنن، انظر: المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، برقم: (٢٦٦)، وهو حديث صحيح. (انظر «الترغيب والترهيب»، للمنذري: ١/ ١٦٣).
(٤) الآداب الشرعية، لعبد الله محمد بن مفلح المقدسي، (٢/ ١٥١).
(٥) أي من الرواية عن النبي ﷺ.
(٦) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب العلم، باب: حفظ العلم، برقم: (١١٨).
(٧) الآداب الشرعية، لابن مفلح المقدسي، (٢/ ١٥١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ـ رحمه الله ـ: «إنَّ كاتِمَ العِلْمِ يَلعَنه اللهُ، ويلعنه اللَّاعِنون، إذا لم يكن عُذْرٌ وغَرَضٌ صحيحٌ في كِتْمانه»(١).

فيجب على الطالب أن يَحذَر من كِتمان العِلم الذي رَزَقه اللهُ تعالى به، وليَكُنْ شديدَ الحرصِ على نشره بكُلِّ ما أُوْتِيَ من وسائلَ وقُدراتٍ، وفي ذلك فضيلةٌ عظيمةٌ له، فإنَّ مَن يَنشُر العلمَ ويُفيده؛ يَستغفِر له كُلُّ شيءٍ، حتى الْحُوْتَ في الماء، والطَّيْرَ في الهواء، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ العالِم لَيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّماوات والأَرْضِ، والْحِيْتَان فِي جَوْفِ الْمَاء»(٢)، وأمَّا كاتِمُ العلمِ فيَلعَنه الله والملائكةُ والناسُ أجمعون.

١٠ ـ الالتِزامُ بالأَمانةِ العِلْمِيّة:

ومن الآداب التي ينبغي أن يتحلَّى بها الطالبُ ـ دائماً ـ في حياته: أن يكون مُلتزِماً بالأمانة العلمية في: الطَّلَب، والتَّحمُّلِ، والعَمَلِ، والبَلاغِ، والأداءِ(٣)، ولا يَتساهَل في النَّقْل عن الكُتُب دُوْن العَزْو إليها؛ ليُوهِم غيرَه أنَّ ما يَقُوله أو يَكتُبه؛ هو من بناتِ أفكاره، وسَحَرِ أسحارِه، وروائع إبداعِه؛ بل يجب عليه أن يَنسُب الأقوالَ والأفكارَ إلى أصحابها «دُوْن أدْنَى غَضاضَةٍ من صغيرٍ أو كبيرٍ، من مسلمٍ أو كافرٍ، من بَرٍّ أو فاجرٍ، من مُتقدِّمٍ أو مُتأخِّرٍ»(٤)، ولا يَنسُبها إلى نفسه، فقد ذَمَّ العلماءُ لِمَن يفعل ذلك:

---

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح المقدسي، (٢/ ١٥١).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، برقم: (٣٦٤١)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو حديث حسن. (انظر «الترغيب والترهيب»، للمنذري، (١/ ١٢٠).

(٣) حلية طالب العلم، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، ص٥٩.

(٤) منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، للدكتور فاروق حمادة، ص٥٥.

١ ـ قال الإمام سفيان الثَّوْرِيّ (ت١٦١هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «نسبةُ الفائدةِ إلى مُفِيدها من الصِّدْق في العِلم وشُكْرِه، وأنَّ السُّكوت عن ذلك من الكذبِ في العِلم وكُفْرِه»[(١)].

٢ ـ وقال الحافظ السُّيُوْطِيّ (ت٩١١هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «بركةُ العلمِ عَزْوُ الأقوالِ إلى قائلها؛ ولأنَّ ذلك من أداء الأمانةِ وتَجَنُّبِ الخيانةِ، ومن أكبرِ أسباب الانتفاعِ بالتصنيف»[(٢)].

٣ ـ وقال العلامة محمد الْخِضَر حسين (ت١٣٧٧هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «فمَن تحدَّث في العلم بغير أمانةٍ؛ فقد مَسَّ العِلمَ بقُرْحَةٍ، ووَضَع في سبيل فلاحِ الأُمَّةِ حَجَرَ عَثْرَةٍ»[(٣)].

كما ينبغي للطالب ـ أيضاً ـ أن يتحرَّى الأمانةَ العلميةَ عند نقله نصّاً من كتابٍ، فيَذكُر هل نَقَله كما هو في الأصل، أم قام فيه بتصرُّفٍ، وهل هذا التصرُّفُ فيه يسيرٌ أو باختصارٍ، أو بزيادةٍ منه، وغير ذلك، ويجب أن يكون في ذلك شديدَ الْحَذَرِ والْحَيْطَةِ حتى لا يُفسِد ما أراده مؤلِّفُه أو كاتِبُه.

١١ ـ الْحَذَرُ من التَّسَرُّعِ في الإفتاء:

ومن الأمور التي يَجِبُ على الطالب أن يَحذَر منها أشدَّ الحذرِ هو: التَّسَرُّعُ في الإفتاء بكُلِّ ما قَرَأه في كتابٍ، أو سَمِعَه من شيخٍ أو عالِمٍ، غيرَ مُدرِكٍ للفتوى ومصدرِها، وسندِ الإفتاء بها، وحالِ المستفتي وظروفه.

كما يجب عليه أن يَحذَر كذلك من التَّسَرُّعِ في الإفتاء دُوْن أن يَعلَم آيةً أو حديثاً مِن غير أن يُدرِك ما الذي يَتّصِل بهذه الآيةِ أو الحديثِ من أحوال

---

(١) الجواهر والدرر، للحافظ السخاوي، (١/ ١٨١)

(٢) عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد، للسيوطي، (١/ ١١).

(٣) رسائل الإصلاح، للشيخ محمد خضر حسين، (١/ ١٣).

النَّسْخ أو القَيْدِ أو الخصوص، أو عدمِ ثُبوت الحديث، أو غيرِ ذلك من مواقع الاستدلال أو قُيوده.

فإنَّ معرفة ذلك كُلَّه من أهمِّ شروط الإفتاء، وإنْ تَحقَّق في الطالِب شيءٌ منها فعليه أن يَتأنَّى ويَتريَّث ثم يُفتي، فالعَجَلَةُ في الإفتاء نوعٌ من الجَهْل والخَرْق، وفي الحديث: «التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَةُ مِن الشَّيْطان»[١].

أمَّا الذي لم يَتأهَّلْ للإفتاء، فعليه أن يُمسِك لسانَه، ولا يَتجَرَّأ على ذلك، وأن يُرجِع الأمرَ إلى مَن هو أكثَرُ منه تَمَكُّناً ونظراً، وقد جاءت الأحاديثُ الكثيرةُ تُحَذِّر من اقتحام الفتوى، والتَّسَرُّعِ فيها من غير علمٍ؛ ومنها قولُه ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كانَ إِثْمُه عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ»[٢]، ومِمّا يُنسَب إليه ﷺ في هذا البابِ قولُه: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»[٣]، أي: كأنّه يسرع إلى النار؛ لأنه لا يقدِّر عاقبةَ عدمِ إصابتِه الحقَّ بسُرعته وعدمِ تَرَوِّيْه[٤].

وكان السَّلَفُ ـ رحمهم الله تعالى ـ يَعُدّون التَّسَرُّعَ في الإفتاء من غير علمٍ أمارةً من أمارات عدمِ فِقْهِ الرَّجُل؛ ويَهابُوْنَ موقفَ الإفتاء، «ويَكرهُون

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه، (٧/ ٤٢٥٦)، وقال المنذري: «رجاله رجال الصحيح». (الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب: التوقي في الفتيا، برقم: (٣٦٥٧)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب: اجتناب الرأي والقياس، برقم: (٥٣)، وأحمد في المسند، (١٤/ ١٧)، برقم: (٨٢٦٦)، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظُ لأبي داود، وقال محقِّق المسنَد الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده ضعيف».

(٣) أخرجه الدارمي مرسلاً في مقدمة السُّنَن، باب: الفتيا وما فيه من الشدة، (١/ ٦٢)، برقم: (١٥٧). وهذا القولُ لم يصح عن رسول الله ﷺ.

(٤) انظر تعليق المحقِّق على «سنن الدارمي»، (١/ ٦٢).

التّسرُّعَ فيه، ويَوَدُّ كلُّ واحدٍ منهم أن يكفيه إيَّاها غيرُه: فإذا رأى بها قد تعيَّنت عليه؛ بَذَل اجتهادَه في معرفة حُكمِها من الكتاب والسُّنَّة، أو قولِ الخلفاء الراشدين، ثم أفتى»[١].

وكان التابعيُّ الجليل سعيدُ بن المسيِّب (ت٩٤هـ) - رحمه الله - لا يكاد يُفتي إلَّا قال: «اللَّهم سَلِّمْني وسَلِّمْ مني»[٢].

وأُثِرَ عن الإمام عبد الرحمن بن أبي ليلى (ت٨٣هـ) - رحمه الله - أنه قال: «أدركتُ عشرين ومئةً من أصحاب رسول الله ﷺ، فما كان منهم محدِّثٌ إلَّا وَدَّ أنَّ أخاه كَفَاه الحديث، ولا مُفْتٍ إلَّا وَدَّ أنَّ أخاه كَفَاه الفُتيا»[٣].

وقال الإمام سحْنُون بن سعيد التَّنُّوْخِي المالكيّ (ت٢٤٠هـ) - رحمه الله -: «أجْرَأُ النَّاسِ على الفُتيا أقَلُّهم عِلماً[٤]، يكون عند الرَّجُلِ البابُ الواحدُ من العلم؛ يَظُنُّ أنَّ الحقَّ كُلَّه فيه!!»[٥].

والجرأةُ في الإفتاء - كما قال الإمامُ ابن قَيِّم الْجَوْزِية - رحمه الله - لا تكون إلا من قِلَّة العلم، أو من غزارتِه وسَعَتِه، فإذا قَلَّ علمُه أفتى عن كلِّ ما يُسْأَل عنه بغير علمٍ، وإذا اتَّسَع علمُه اتَّسَعَتْ فُتياه[٦].

لذلك يجب على الطالب أن يَحذَر من الاستعجال والتَّسرُّع في الإفتاء إذا سُئل عن مسألةٍ من المسائل، فإذا كان مُؤهَّلاً لذلك والمسألةُ المعروضةُ

---

(١) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ص٣٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٦٨.
(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (٢/ ٢٧٣)، رقم: (٢١٩٩).
(٤) إلى هنا أُثِرَ القولُ عن الإمام سفيان بن عيينة - رحمه الله - أيضاً، انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر، (٢/ ٢٧٦) رقم: (٢٢٠٩).
(٥) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (٢/ ٢٧٧)، رقم: (٢٢١١).
(٦) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ص٣٣، ٣٤.

من المسائل المعروفة، وهو يفهم كلامَ العلماء فيها، ويَعرِف أقوالَهم واستدراكاتِهم؛ فيُمكنه عندئذٍ توضيحُ أمورِ الدِّين للنَاس، وهو مسؤول عن العلم الذي استودعه اللهُ ﷻ إيَّاه.

أمَّا الذي لم يَتأهَّل لذلك فلا يَتَجرَّأ على الاقتحام في ذلك دون علمٍ، لأنَّ في ذلك تَقَوُّلٌ على الله ﷻ ورسولِه ﷺ، وقد وَرَد في ذلك تحذيرٌ شديدٌ في الأحاديث وأقوال السَّلَف كما تَقَدَّم.

١٢ ـ التَّأنِّي والتَّرَيُّثُ في التدريس حتى يَتأهَّل لذلك:

ينبغي أن لا يَحمِل الطالبُ حُبَّ الشُّهرةِ على الْمُبادَرة إلى التدريس، وتَصدُّرِ الْمَجالِس قبل أن يَنْضَج في العلم، فإنَّ انتصابه للتدريس دون التأهُّلِ له كمَن قال عنه النبيُّ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ»(١)، فمَن انْتَصَبَ للتدريس دُوْن أن تَكمُل أهليته، فكأنه يَلبِس ثيابَ أهلِ العلم وهو ليس منهم.

وقد ذَمّ السَّلَفُ مَن يَنخرِط في سِلك التدريس دون أهليةٍ له، ولهم في ذلك أقوالٌ عديدةٌ، منها:

١ ـ قولُ الحافظ قَتَادَة بن دِعَامَة السَّدُوْسِيِّ (ت١١٨هـ) ـ رحمه الله ـ: «مَن حدَّث قبل حينه؛ افْتَضَح في حينه»(٢).

٢ ـ وقولُ الإمام أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) ـ رحمه الله ـ: «مَن طَلَب الرياسةَ في غير حِينه؛ لم يَزَلْ في ذُلٍّ ما بَقِيَ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب: المتشبع بم لم ينل، برقم: (٥٢١٩)، ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب: النهي عن التزوير في اللباس وغيره، برقم: (٢١٣٠) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٨، ص٤٠، وج١٧، ص٢٠٨.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٦٥.

٣ ـ وقولُ الزَّاهِد أبي بكر الشِّبْلي (ت٣٣٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «مَن تَصَدَّر قبل أوانِه؛ فقد تَصَدَّى لِهَوانه»[(١)].

٤ ـ ولبعضِهم:

تَصَدَّرَ لِلتَّدْرِيْسِ كُلُّ مُهَوِّسٍ ... جَهُوْلٍ تَسَمَّى بِالفَقِيْهِ الْمُدَرِّسِ
فَحُقَّ لأَهْلِ الْعِلْمِ أنْ يَتَمَثَّلوْا ... بَيْتٍ قَدِيْمٍ شَاعَ فِي كُلِّ مَجْلِسِ
لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِها ... كُلاها وَحَتّى اسْتَامَها كُلُّ مُفْلِسِ

أمّا الذي يجد نفسَه أهلاً للتدريس فيُستَحسَن له أن يَستشِير أهلَ العلمِ قبل أن يُبادِر إليه، وقد أَكَّد العلماء ضَرُورة ذلك، فقال الإمامُ مالِكُ بن أنسٍ (ت١٧٩هـ) ـ رحمه الله ـ: «ليس كلُّ مَن أحَبَّ أن يَجلِس في المسجد للتحديث والفُتْيا جَلَس، حتى يُشاوِر فيه أهلَ الصَّلاحِ والفضل، وأهلَ الْجِهَة[(٢)] من المسجد، فإنْ رَأَوْه أهلاً لذلك جَلَس. وما جلستُ حتى شَهِدَ لي سبعون شيخاً من أهل العلمِ أنِّي مَوْضِعٌ لذلك[(٣)]»[(٤)].

١٣ ـ الاشتغالُ بالتَّأليف النَّافِع الْمُفِيد إذا تأهَّل له:

وبعد فراغ الطالبِ من تحصيل العلم؛ يُحبَّذ له الاشتغالُ بالبحث والإنتاج العلمي المفيد من تصنيفٍ وتأليفٍ وتحقيقٍ إذا كان أهلاً لذلك، «لقد أَكَّد علماء الإسلامِ عبر القرون، على ضرورة التأهُّلِ والاستعدادِ قبل التأليف

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، ص٦٥.
(٢) لعلَّ مراده بهم: المشرفين على إدارة المسجد من أهل العلم، والله أعلم.
(٣) أي: أهلٌ لذلك.
(٤) الديباج، لابن فرحون، ص٢١، و «المجموع شرح المهذب»، للإمام النووي، (٦٩/١).

والتصنيف، وحَذَّروا من الخوضِ فيه قبل ذلك»[١]. يقول إمامُ القُرَّاء أبو عَمْرو بن العَلاء البَصْري (ت١٥٤هـ) ـ رحمه الله ـ: «الإنسانُ في فُسْحَةٍ مِن عقله، وفي سلامةٍ من أفواه النَّاسِ، ما لَمْ يَضَعْ كتاباً أو يَقُلْ شِعراً»[٢]. وقال عبد الله بن الْمُقَفَّع (ت١٤٢هـ) «مَن صَنَّف كتاباً فقد استهدف؛ فإنْ أَحْسَنَ فقد استعطف، وإنْ أساءَ فقد استقذف»[٣].

أمَّا الذي وَجَد نفسَه أهلاً للاشتغال في هذا المجالِ فلا ينبغي له الإحجامُ عنه، لِمَا له في ذلك من فوائد عظيمة، منها: أنه يزيده تَعَمُّقاً في العلم، ويَفتَح له من مَغاليقه، ويُوسِّع أمامه من مجاله ما لم يكن بحُسبانه، وقد حَثَّ العلماء على ذلك، وذكروا العديدَ من الفوائد، منهم الحافظُ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ رحمه الله ـ، الذي قال: «قَلَّ ما يتمهَّر في عِلم الحديث، ويَقِفُ على غَوامِضه، ويَستبِين الْخَفِيَّ من فوائده، إلَّا مَن جَمَع متفرّقَه، وألَّف متشتّتَه، وضَمَّ بعضَه إلى بعضٍ؛ فإنَّ ذلك الفِعلَ مما يقوِّي النَّفْسَ، ويُثبِت الحفظَ، ويُذكِي القلبَ، ويَشحَذ الطبعَ، ويَبسُط اللِّسانَ، ويُجِيد البيانَ، ويَكشِف الْمُشْتَبِهَ، ويُوضِّح الْمُلْتَبَسَ، ويُكسِب أيضاً جميلَ الذِّكْر، وتخليده إلى آخر الدَّهر»[٤].

وقال الإمام النَّووي (ت٦٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ: «بالتصنيف يُطَّلَع على حقائق

---

(١) منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، للدكتور فاروق حمادة، ص٣٦.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٨٣)، برقم: (١٨٦٤).

(٣) أدب الدين والدنيا، للماوردي، ص٣٣٢.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، (٢/ ٢٨٠)، برقم: (١٨٥٢).

العلوم ودقائقه، ويُثبت معه؛ لأنه يضطرُّه إلى كثرة التفتيش، والمطالعةِ، والتحقيقِ، والْمُراجَعةِ، والاطِّلاعِ على مُختلِف كلامِ الأئمة ومُتَّفِقِه، وواضحِه من مُشكِله، وصحيحِه من ضعيفه، وجزلِه من ركيكه، وما لا اعتراضَ فيه من غيره، وبه يَتّصِف المحقِّقُ بصفة المجتهد»[١].

ثم هو ـ إضافةً إلى ذلك ـ ثوابٌ لا يَنقطِع، وخلودٌ دائمٌ، وذِكْرٌ جميلٌ، وشَذى يتضوَّع»[٢]، وصَدَق الرسولُ الكريم ﷺ حيثُ قال: «إذا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ لَهُ»[٣].

والذي يريد الاشتغالَ بالتأليف والتصنيف فقد ذَكَر له العلماءُ الشروطَ التي ينبغي تَوَفُّرُها فيه، وهي:

١ ـ أن يكون قد رَسَخ في العلم الذي يريد التأليفَ فيه، من تفسيرٍ، أو حديثٍ، أو فقهٍ، أو أصولٍ، أو عقائد.

٢ ـ ويكون مُلِمّاً بمصطلحات العلم الذي يريد التأليفَ أو الكتابةَ فيه.

٣ ـ والأَوْلَى أن يَعْتَنِي بما يَعُمُّ نفعُه، وتكثُر الحاجةُ إليه.

٤ ـ وليَكُن اعتناؤه بما لم يَسبق إلى تأليفه أو تصنيفه.

٥ ـ ويتمكَّن تمكُّناً تامّاً من اللغة التي يَكتُب بها.

---

(١) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، (١/٥٦).

(٢) العبارة بين القوسين من كلام الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة في كتابه «الوسيط في علوم ومصطلح الحديث»، ص١٩٢.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم: (١٦٣١).

٦ ـ ويتحرَّى إيضاحَ العبارةِ في تأليفه، ويُعرِض عن التطويل الْمُمِلّ والإيجازِ الْمُخِلّ.

٧ ـ ويتحلَّى بالأمانة العلمية، التي هي زينةُ العلمِ ورُوحه، ودليلُ كمالِ خُلُق المؤلِّف وعظيمِ أدبه؛ وذلك بعَزْو الأقوالِ إلى قائليها، وذِكرِ مصادره التي اعتمد عليها.

٨ ـ ويَعرِض تأليفَه أو تصنيفَه على أهل العلم، ومَن فوقه وقَبْله في الطَّلَب، مُسْتَرْشِداً مُسْتَأْنِساً بكلامهم وتوجيهاتهم.

٩ ـ ولا يُخرِج تصنيفَه من يدِه قبل تهذيبه، وتكريرِ النظر فيه وترتيبه[١].

وأمّا الذي لم تتحقَّق فيه هذه الشروطُ فهو غيرُ أهلٍ للخوض في هذا المجال، قال الإمامُ النَّوَوي ـ رحمه الله ـ: «وليَحذَر كُلَّ الحذرِ أن يَشرَع في تصنيفٍ مَن لم يَتأَهَّلْ له، فإنَّ ذلك يَضُرُّه في دِينه وعِلْمِه وعِرْضِه»[٢].

وكما أشار إلى ذلك الإمامُ ابن جَمَاعة (ت٧٣٣هـ) ـ رحمه الله ـ بقوله: «أمَّا مَن لم يتأهَّل لذلك فالإنكارُ عليه مُتَّجِهٌ؛ لِما يتضمَّنه من الجهل، وتغريرِ مَن يَقِفُ على ذلك التصنيفِ به، ولكونه يُضَيِّع زمانَه في ما لم يُتقِنه، ويَدَعُ الإتقانَ الذي هو أَحْرَى به منه»[٣].

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»، لابن جماعة، ص٥٤، ٥٥، و«منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً»، للدكتور فاروق حمادة، ص٣٥، و«التأصيل في طلب العلم»، للدكتور محمد بن عمر بازمول، ص٤٢، بتصرف وزيادات من المؤلف.

(٢) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، (١/٥٧).

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم»، لابن جماعة، ص٥٥.

١٤ ـ الاحترازُ عن الْهُجوم على الْمَذاهِب الفِقْهِيَّة والتَّطاوُلِ على أئمّتها:

ومن الآداب التي ينبغي للطالب أن يتحلَّى بها دائماً في حياته العلمية، ويُلزِم نفسَه بها: الاحترام لجميع المذاهب الفقهية، والاحتراز عن الهجوم عليها، والتَّطاوُلِ على أئمتها.

فما أكثَرَ ما يُلاحَظ على الطُّلَّاب ـ لا سيما الذين خَلْفِيَّتُهم في العلوم الشرعية ضعيفةٌ، وتصوُّرهم لها ضَيِّقٌ ـ أنهم إذا اتَّفَقَتْ لهم إجالةُ نظرٍ في كتب الحديث، أو قِراءةُ كتابٍ من كُتبه، أو صُحْبَةُ سُوَيْعاتٍ لعلمائه؛ يَزْعُمُون أنه قد حَصَل لهم جَرّاء ذلك شيءٌ من التمكُّن من عِلم الحديث! فنجدهم يتسرَّعون في الإعراض عن مذاهب الفقهاء، ويُلقونها وراءهم ظِهْرِياً بدعوى الاكتفاء بما نَصَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، ويتحمَّسون في دعوة النَّاسِ إلى تَرْك التقليدِ، وإيجابِ الاجتهادِ عليهم حتى العَوَام منهم، ويُنكِرون بشِدَّةٍ على مقلِّدة تلك المذاهب بل يُهاجِمونهم بعُنْفٍ، وربما يَغلُو بعضُهم في هجومه على التقليد، فيقدح في المذهب نفسه، بل ـ في بعض الأحيان ـ يَتطاولُون على أصحابها الَّذين كانوا أئمةَ الحديثِ أولاً ثم أئمة الفقه[1]، وإنْ غَلَب على بعضهم[2] الفقهُ وتدوينُه ولم يتسنَّ لهم التصنيفُ في الحديث مثل ما تسنَّى لغيرهم.

لا شكَّ في أنَّ مِثل هذه الْمُحاوَلةِ الغوغائيةِ والحماسةِ الهوجاء في صَدِّ

---

(١) مثل الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) صاحب «المؤطأ»، والإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) صاحب «المسند»، رحمهما الله تعالى.

(٢) مثل الإمام أبي حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ)، والإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، رحمهما الله تعالى، وليس لهما مُصنَّف في الحديث.

الناس عن تقليد مذهبٍ من المذاهب الفقهية: فُقْداناً للحكمة والبصيرة، وإثارةً للفِتَن بين صفوف المسلمين، ومحاولةً لتشتيتِ شملِهم، وأعظَمُ مِن ذلك كلِّه إساءةٌ إلى السُّنّة النبوية نفسِها، التي يَتّخذونها تُكْأَةً لهم على الهجوم على المذاهب الفقهية وأصحابِها.

وليَعْلَم الطالبُ أنَّ «الفقه» و«السُّنّة» صِنْوانِ مُتلازِمانِ، ولا يَستغنِي أحدُهما عن الآخر، فلا سُنَّةَ بغير فِقْهٍ، كما أنه لا فِقهَ بغير سُنَّةٍ، ولم يُدَوِّن أحدٌ من الأئمة الفقهاء مذاهبَهم بالْمَيْل عن السُّنّة، أو الاستغناء عنها، والدليلُ على ذلك حَفْلُ كُتبِهم في الفقه ـ في أيِّ مذهبٍ كان من المذاهب الفقهية ـ بالاستدلال بالسُّنَّة قولاً وفِعلاً وتقريراً، وكانوا ـ رحمهم الله تعالى ـ يُقدِّمون السُّنَّةَ بعد كتاب الله للأخذ بها، والاحتكامِ إليها، والرُّجوعِ إلى حُكمها، ولا يَسَعُهم الخِلافُ عن أمرها[1]، فالسُّنَّة هي الأصلُ عندهم في تدوين الفِقه بعد كتاب اللهِ ﷻ، ولا يُمكِن الاستغناءُ عنها البَتّة.

---

(١) كما يَظهَر ذلك جَلِيّاً من أقوالهم السَّائرة المشهورة الآتية:
١ ـ قول الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان: «ما جاءَ عن رسول الله ﷺ فعلى الرَّأس والعَيْن، بأبي وأُمِّي، وليس لنا مُخالَفته...».
٢ ـ وقول إمام دار الهجرة مالِك بن أنس: «إنَّما أنا بَشَرٌ أُخطِئ وأُصِيبُ؛ فانْظُروا في رَأْيِي؛ فكُلُّ ما وافَقَ الكِتابَ والسُّنَّةَ فخُذُوْا به، وكُلُّ ما لَمْ يُوافِق الكتابَ والسُّنَّةَ فاتْرُكُوْه».
٣ ـ وقول ناصِر السُّنّة الإمام محمد بن إدريس الشَّافِعي: «إذا صَحَّ الحديثُ فهو مَذْهَبِي».
٤ ـ وقول إمام أهل السُّنّة أحمد بن حَنْبَل: «مَنْ رَدَّ حديثَ رسولِ الله ﷺ فهو على شَفَا هَلْكَةٍ».
وغير ذلك من أقوالهم الكثيرة، تجدها في تراجمهم وسِيَرهم.

أمّا الذي لا يُريد أن يَتَقيَّد بمذهبٍ مُعَيَّنٍ من المذاهب الفقهية لقُدرته على معرفة الدَّليل واستخراجه فلا ينبغي عليه: أن يُهاجِم تلك المذاهب، وأن يَتطاوَلَ على أئمتها، ويَدعُو مَن ليست له أهليةٌ لمعرفة الأدلةِ الشَّرعية إلى عدم التقيُّدِ بمذهبٍ من تلك المذاهب، وخاصّةً مَن يَتَّبِعُه من الناس كابراً عن كابرٍ، وجِيْلاً عن جيلٍ.

ويَحسُن بي هنا توجيهُ نصيحةٍ قيّمةٍ إلى الطالِب، التي خَتَم بها العالِمُ الربّاني العلامة أبو الحسن علي الحسني النَّدْوِي (ت١٤٢٠هـ) ـ رحمه الله ـ، رسالتَه الماتعة «المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف»، وقال فيها:

«وأخيراً لا آخراً... يَحترز [الطالبُ] عن الهجوم بعُنْفٍ وقَسْوَة على مذهبٍ من المذاهب الفقهية، المعمولِ بها من قديم الزَّمان، والمؤسَّسِ على استخراج الأحكام واستنباطِ الآراء والقضايا من الكتاب والسُّنَّة ـ على اختلافٍ في الاجتهاد والْمَعايِيْر ـ بحُسْن النِّيَّة والإخلاص، والوَرَع والتَّقْوى، وإجلالِ الكتاب والسُّنّة، وإحلالِهما الْمَحَلَّ الأوّلَ، وما كَتَب اللهُ له من الشُّيُوع والانتشار، والقَبولِ والإقبالِ؛ فيكون ذلك جهاداً في غير جهادٍ، ونِضالاً في غير عَدُوٍّ.

وبدلاً مِن ذلك يُرَكِّز كُلُّ عنايةٍ، وكُلُّ ما أَنْعَم اللهُ به من دراسةٍ للكتاب والسُّنَّة، والاستدلالِ بالقرآن والحديث، وكُلُّ ما أَنْعَمَ اللهُ به من قُدْرَةٍ بيانيةٍ، ومَقْدرةٍ خطابيةٍ، واستدلاليةٍ، على: دراسةِ الحديثِ الشريف، وإشاعتِه ونشرِه، وعلى: تفهيم القرآن الكريم، وعلى: الرَّدِّ على أنواع الشِّرْكِ والبِدَع ومظاهرِهما الفاشية»[١]، وذلك أنفَعُ للطالب، وأبقى له للآخرة.

وهذا ما يسَّر اللهُ لي من بيانِ بعض تلك الآداب والأخلاق التي ينبغي

---

(١) بتصرف يسير من «المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف»، ص٦٣، ٦٤.

أن يتحلَّى بها طالبُ العلمِ الشَّرعي في سائر مراحل طلبه له، وكذلك تقديمُ بعضِ النصائح والتوجيهات التي تَمُسُّ حاجته إليها في طلب هذا العلم، فأسأل الله ﷻ أن يوفِّقه للتحلِّي بها، والاستفادة منها، كما أسأله ـ تعالى ـ أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، ويتقبَّله مِنّي، والحمدُ لله أوّلاً وآخراً، حَمْداً يُوافِي نِعَمَه، ويُكافِئُ مَزِيْدَه، وصَلاتُه وسَلامُه الأَكْمَلانِ على سيّدنا محمَّد وآله وأصحابِه أجمعين.



قائمة المصادر والمراجع

١ ـ **الآداب الشرعية**: للإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٢ ـ **أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية**: للشيخ الندوي أبي الحسن علي الحسني، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير ـ دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٣ ـ **أبو الحسن الندوي: الإمام المفكر الداعية المربي الأديب**: للغوري سيد عبد الماجد، دار ابن كثير ـ دمشق، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤ ـ **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**: للإمام ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد الظاهري القرطبي، دار ابن حزم ـ بيروت، ط١، ٢٠١١م.

٥ ـ **أدب الإملاء والاستملاء**: للإمام السمعاني أبي سعد عبد الكريم بن محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، دون تاريخ الطبع.

٦ ـ **أدب الدنيا والدين**: للإمام الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٥٥م.

٧ ـ **أدب الطلب ومنتهى الأرب**: للإمام الشوكاني محمد بن علي

اليماني، تحقيق: الأستاذ عبد الله يحيى السريحي، دار ابن حزم - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٨ - **أدب الفتيا**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: الدكتور محيي الدين السرحان، دار الآفاق العربية - القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩ - **الأدب المفرد**: للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق - الجبيل، ط٥، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٠ - **إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ**: للإمام النووي محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، تحقيق: الدكتور نور الدين عتر، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١١ - **الإضاءة في أهمية الكتاب والقراءة**: للأستاذ خالد بن عبد العزيز النصار، دار العاصمة - الرياض.

١٢ - **الاعتصام**: للإمام الشاطبي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، تحقيق: الأستاذ أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار التوحيد - عريش، ط١، ١٤٢١هـ.

١٣ - **الأعلام**: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط١٢، ١٩٩٧م.

١٤ - **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: للإمام ابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار طيبة - الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

١٥ - **اقتضاء العلم العمل**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر

أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٦ ـ **الأنساب المتفقة**: لابن طاهر المقدسي القيسراني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

١٧ ـ **أوجز المسالك إلى موطأ مالك**: للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، دار القلم ـ دمشق، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٨ ـ **بداية الهداية**: للإمام الغزالي أبي حامد محمد، دار المنهاج ـ جدة، ط١، ١٤٢٥هـ.

١٩ ـ **بغية الملتمس**: للحافظ العلائي أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي، عالم الكتب ـ بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢٠ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: للشيخ الزبيدي أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني البلجرامي، دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٢١ ـ **تاريخ بغداد**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، مطبعة السعادة ـ القاهرة، ط١، ١٣٤٩هـ.

٢٢ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية ـ المدينة المنورة، ط١، ١٣٧٩هـ.

٢٣ ـ **تذكرة الحفاظ**: للحافظ الذهبي أبي عبد الله شمس الدين الدمشقي، دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد (الهند).

٢٤ ـ **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**: لابن جماعة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٥ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: للقاضي عياض أبي الفضل ابن موسى اليحصبي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ رباط (المغرب)، ط١، ١٩٨٣م.

٢٦ ـ **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**: للإمام المنذري زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي، تحقيق: الأستاذ محيي الدين مستو وآخرين، دار ابن كثير ـ دمشق، ط٣، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٧ ـ **تصحيفات المحدِّثين**: للعسكري أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، تحقيق: الدكتور محمود أحمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة ـ القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٨ ـ **تعليم المتعلم طريق التعلُّم**: لبرهان الإسلام الزرنوجي، تحقيق الدكتور مروان قباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٩ ـ **تقييد العلم**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: الدكتور يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، ١٩٧٤م.

٣٠ ـ **تهذيب التهذيب**: للحافظ ابن حجر العسقلاني أبي الفضل أحمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣١ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**: للشيخ المناوي زين الدين محمد عبد الرؤوف المصري، تحقيق: الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب ـ القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣٢ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: للشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار الحديث ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٣ ـ **تيسير مصطلح الحديث**: للدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط١٠، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٤ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: للإمام ابن عبد البر أبي عمرو يوسف القرطبي الأندلسي، تحقيق: الأستاذ أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي ـ الرياض، ط٨، ١٤٣٠هـ.

٣٥ ـ **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**: للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، دار السلام ـ الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ.

٣٦ ـ **الجامع الصحيح (صحيح مسلم)**: للإمام مسلم أبي الحسين مسلم بن الحجاج القُشيري، دار السلام ـ الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

٣٧ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٨ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: للإمام القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب ـ الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٩ ـ **الجرح والتعديل**: للدكتور إبراهيم بن عبد الله اللاحم، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٠ ـ **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**: للحافظ السخاوي محمد بن عبد الرحمن، تحقيق: الأستاذ إبراهيم باجس، دار ابن حزم ـ بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٤١ ـ حفظ الله السنة وصور من حفظ العلماء لها وتنافسهم فيها: للأستاذ أحمد بن فارس السلوم، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٢ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله بن أحمد، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٤٣ ـ حلية طالب العلم: للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، دار العاصمة ـ الرياض، ط٥، ١٤١٥هـ.

٤٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: للحافظ ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد، ط١، ١٩٤٥م.

٤٥ ـ الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب: لابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري، تحقيق: محمد الأحمدي أبي النور، دار التراث للطبع والنشر ـ القاهرة.

٤٦ ـ ديوان الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس: جمع وشرح: الأستاذ محمد عبد الرحيم، دار الفكر ـ بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٤٧ ـ ديوان علي بن أبي طالب ﵁: تحقيق الأستاذ عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة ـ بيروت، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٨ ـ الرحلة في طلب الحديث: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: الدكتور نور الدين عتر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٤٩ ـ الرسالة: للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، بدون تاريخ.

٥٠ ـ **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة**: للإمام ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٥١ ـ **رسائل الإصلاح**: للعلامة محمد خضر حسين، دار الإصلاح ـ الدمام (السعودية).

٥٢ ـ **رياض الصالحين**: للإمام النووي أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، تحقيق: الأستاذين عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، مكتبة الرسالة ـ عمان، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٥٣ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: لإبراهيم بن علي الأنصاري الحصري القيرواني، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٥٤ ـ **السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية**: للأستاذ أبي الأشبال أحمد بن سالم المصري، دار الفاروق ـ القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٥٥ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥٦ ـ **سنن أبي داود**: للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، دار السلام ـ الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٥٧ ـ **سنن ابن ماجه**: للإمام ابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد الرَّبْعي القزويني، دار السلام ـ الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٥٨ ـ **سنن الترمذي**: للإمام الترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار السلام ـ الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٥٩ ـ **سنن الدارمي**: للإمام الدارمي أبي محمد عبد الله السمرقندي، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار القلم ـ دمشق، ط٢، ١٤١٧هـ.

٦٠ ـ **سنن النَّسائي**: للإمام النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، دار السلام ـ الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦١ ـ **سير أعلام النبلاء**: للحافظ الذهبي أبي عبد الله شمس الدين الدمشقي، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦٢ ـ **شرح كتاب حلية طالب العلم**: للشيخ محمد بن صالح بن العثيمين، مكتبة دار البصيرة ـ الإسكندرية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٦٣ ـ **شعب الإيمان**: للإمام البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين الخسروجردي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٦٤ ـ **صحيح ابن حبان**: للإمام ابن حبان أبي حاتم محمد بن حبان البُسْتِيّ، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٦٥ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ.

٦٦ ـ **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**: للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب، ط٣، ١٤١٣هـ.

٦٧ ـ **صفة الصفوة**: للحافظ ابن الجوزي أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن، دار المعرفة ـ بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

٦٨ ـ **صيد الخاطر**: للحافظ ابن الجوزي أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن، دار الفكر ـ دمشق، ط١، ١٣٨٠هـ.

٦٩ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزياداته**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٣، ١٤١٠هـ.

٧٠ ـ **ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني**: للإمام عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب، ط٤، ١٤٢٩هـ.

٧١ ـ **العزلة**: للإمام الخطابي أبي سليمان حمد بن محمد البستي، المطبعة السلفية ـ القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ.

٧٢ ـ **عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام وسمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٧٣ ـ **علوم الحديث**: للحافظ ابن الصلاح أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق: الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ـ دمشق، ط٣، ١٩٩٨م.

٧٤ ـ **علو الهمة**: للشيخ محمد إسماعيل المقدم، دار العقيدة للتراث ـ الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٧٥ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧٦ ـ **فضائل القرآن الكريم**: للحافظ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، تحقيق وتعليق: الشيخ أبي إسحاق الحويني، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ.

٧٧ ـ **فضل علم السلف على علم الخلف**: للحافظ ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، تحقيق: يحيى مختار غزّاوي، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٧٨ ـ **الفقيه والمتفقه**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: الأستاذ أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف الغزازي، دار ابن الجوزي ـ الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ.

٧٩ ـ **الفوائد**: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٣م.

٨٠ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: للعلامة المناوي زين الدين محمد عبد الرؤوف المصري، دار المعرفة ـ بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ.

٨١ ـ **القاموس المحيط**: للفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٧، ١٤٢٤هـ.

٨٢ ـ **القراءة المثمرة: مفاهيم وآليات**: للدكتور عبد الكريم بكّار، دار القلم ـ بيروت، ط٦، ١٤٢٩هـ.

٨٣ ـ **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**: للشيخ جمال الدين القاسمي، تحقيق: الشيخ محمد بهجة البيطار، دار النفائس ـ بيروت، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٨٤ ـ **قيمة الزمن عند العلماء**: للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط١٣، ١٤٣٠هـ/ ١٩٩٨م.

٨٥ ـ **كتاب التعريفات**: للعلامة الجرجاني علي بن محمد الشريف، تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٨٦ ـ **كتاب الحيوان**: للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٨٧ ـ **كتاب الزهد ويليه كتاب الرقائق**: للإمام عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، دون تاريخ.

٨٨ ـ **الكفاية في علم الرواية**: للحافظ الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، مكتبة النمنكاني ـ المدينة المنورة، دون تاريخ.

٨٩ ـ **الكليات**: لأبي البقاء الكفوي أيوب بن موسى الحسيني، تحقيق: الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٩٠ ـ **لسان الميزان**: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٩١ ـ **المجموع شرح المهذب**: للإمام النووي محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، دار الفكر ـ بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٩٢ ـ **مجموع الفتاوى**: لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، مجمع الملك فهد ـ المدينة المنورة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٩٣ ـ **مختار الصحاح**: للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، دار البشائر ـ دمشق، ط١، ١٤١٧هـ.

٩٤ ـ **مختار العقد الفريد**: دون المؤلف، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ـ بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٩٥ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٣م.

٩٦ ـ المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف: للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير ـ دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ.

٩٧ ـ المدخل إلى السنن الكبرى: للإمام البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين الخسروجردي، تحقيق: الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة أضواء السلف - الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٩٨ ـ المستدرك على الصحيحين: للإمام الحاكم النيسابوري أبي عبد الله محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٤، ٢٠٠٩م.

٩٩ ـ المستطرف في كل فن مستظرف: لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

١٠٠ ـ المسند: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشَّيْبَاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

١٠١ ـ المسند: للإمام أبي يعلى الموصلي: تحقيق: الشيخ حسين أسد، دار المأمون ـ دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ.

١٠٢ ـ معالم إرشادية لصناعة طالب العلم: للشيخ محمد عوامة، دار اليسر ـ المدينة المنورة، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٠٣ ـ معالم في طريق العلم: للشيخ عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السَّدحان، دار العاصمة ـ الرياض، ط٣، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٠٤ ـ **المعجم الأوسط**: للإمام الطبراني أبي القاسم سليمان بن أحمد، دار الحرمين ـ القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.

١٠٥ ـ **المعجم الكبير**: للإمام الطبراني أبي القاسم سليمان بن أحمد، تحقيق: الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل، ط٢، ١٩٨٣م.

١٠٦ ـ **المعجم الوسيط**: القاهرة ـ مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٠٧ ـ **معجمات المصطلحات الحديثية**: للغوري سيد عبد الماجد، معهد دراسات الحديث النبوي (إنهاد) ودار الشاكر ـ سلانجور (ماليزيا)، ط٢، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٠٨ ـ **معيد النعم ومبيد النقم**: للإمام السبكي تاج الدين عبد الوهاب المصري، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين، مكتبة القانجي ـ القاهرة، ط٢، ١٤١٣م.

١٠٩ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**: للإمام ابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق: الشيخ علي بن حسن بن علي الحلبي الأثري، دار ابن عفان ـ الرياض، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٣م.

١١٠ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: للعلامة الأصفهاني الحسين بن محمد بن المفضل، تحقيق: الأستاذ صفوان عدنان داوودي، دار القلم ـ دمشق، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ١٩٩٦م.

١١١ ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على**

الألسنة: للحافظ السخاوي محمد بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٩م.

١١٢ ـ **مقدمة ابن خلدون**: لابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: الدكتور علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر ـ بيروت، ط٣، ١٩٨١هـ/ ٢٠٠٦م.

١١٣ ـ **من أدب المحدِّثين في التربية والتعليم**: للدكتور أحمد محمد نور سيف، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ـ دبي (الإمارات العربية المتحدة)، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١١٤ ـ **مناقب الإمام الشافعي**: للإمام البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين الخسروجردي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث ـ القاهرة، ط١، ١٣٩١هـ.

١١٥ ـ **المنهاج الحديث في علوم الحديث**: للدكتور شرف محمود القضاة، مؤسسة البيان ـ كوالالمبور (ماليزيا)، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١١٦ ـ **منهاج السنة النبوية**: لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: الشيخ محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة ـ السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ.

١١٧ ـ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج**: للإمام النووي أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيخا، دار المعرفة ـ بيروت، ط١٥، ١٤٢٩هـ.

١١٨ ـ **منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً**: للدكتور فاروق حمادة، دار القلم ـ دمشق، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١١٩ ـ **منهج النقد في علوم الحديث**: للدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ـ دمشق، ط٣، ١٤١٨هـ.

١٢٠ ـ **منهجية العلم في الإسلام**: للدكتور عبد الستار أبو غدة، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢١ ـ **الموافقات**: للإمام الشاطبي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، تحقيق: الأستاذ أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان ـ الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢٢ ـ **الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم**: للدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

١٢٣ ـ **موسوعة علوم الحديث الشريف**: إعداد مجموع من الباحثين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٢٤ ـ **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: للشيخ التهانوي محمد علي الهندي، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٢٥ ـ **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس، برواية يحيى بن يحيى اللَّيثي، دار الفكر ـ بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٢٦ ـ **الميسر في علم الرجال**: للغوري سيد عبد الماجد، دار الشاكر ـ سلانجور (ماليزيا)، ط٢، ١٣٣٢هـ/ ٢٠١٢م.

١٢٧ ـ **نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**: للدكتور مصطفى سعيد الخن وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢٦، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٨ ـ **نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية**: للشيخ حاتم بن عارف العوني، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ.

١٢٩ ـ **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**: إعداد مجموعة من المتخصصين، دار الوسيلة ـ جدة، ط٥، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٣٠ ـ **النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى**: للأستاذ المكي أقلايَنة، (المطبوع في سلسلة كتاب الأمة، رقم: ٣٤)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة القطر، ط١، ١٤١٣هـ.

١٣١ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للإمام ابن الأثير مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ـ بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٣٢ ـ **الوسيط في علوم ومصطلح الحديث**: للدكتور محمد بن محمد أبي شهبة، مكتبة السنة ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٣٣ ـ **الوصايا العشرة لمن يريد أن يحيا**: للأستاذ خالد محمد خالد، دار كتب حديثة ـ القاهرة، ط١، ١٩٦٦م.

١٣٤ ـ **الوصية**: لابن قدامة المقدسي أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد، تحقيق: د. محمد يوسف الشربجي، دار الكلم الطيب ـ دمشق، ط١، ١٤١٧هـ.

١٣٥ ـ **وفيات الأعيان**: لابن خلكان أحمد بن محمد البرمكي، دار الصادر ـ بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

١٣٦ ـ **الوقت في حياة المسلم**: للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

القسم الثاني
آدابُ الطالبِ في طلب العِلم الشَّرعي

